في زمن القهر

نور الدين صمود

أحمد الله أنني لست حاكم ... في بني العرب أو شعوب الأعاجمْ
ولو انّي قد كنته، كنت نذلا ... وعميلا من أجل عرشي أساومْ
كلما الشعب شاء شيئا تراني ... للذي قد أراد شعبي أقاومْ
لست أرضى له السعادة يوما ... ليقضي الحياة يشكو المظالمْ
وليبقى ميت الطموح ذليلا ... لجميع الظلاّم دوما مسالمْ
يقبل الصفع بابتسام عريض ... ويدير الخدّ الذّليل للاطمْ
وسأرضي الأغراب في كلّ أمر ... ليس يرضي بني بلادي الأكارمْ
ليذلّوا ويسلم العرش، إنّي ... عبد عرش يفديه كلّ مقاومْ
وكفاني بأنّني لست عبدا ... لقوى الظلم مثل بعض البهائمْ
فلقد ساء ذا الزمان وأضحى ... من يسوس الشعوب أكبر نادمْ
ولو انّي قد كنت حاكم شعب ... عربيّ، يقتصّ من كلّ ظالمْ...
لمضت قوّتي تدجّن شعبي ... لتصير النّسور مثل الحمائمْ
وليغدو الجميع قطعان شاء ... في نيوب الذئاب مثل الولائمْ
ولأضحوا يرضون بالضيم حتى ... يصبح الضيم للعروبة لازمْ
ولصار التقتيل، في كلّ قطر ... عربيّ، لا يستفزّ الصوارمْ
ولأضحت أحلامهم أن يكونوا ... في يد الغاصبين مثل الخواتمْ...
أو ذيولا تسير خلف رؤوس ... صاغرات النفوس والأنف راغمْ
ولو انّي ملكت آبار نفط ... ومن التبر كبريات المناجمْ..

لمضت كلّها إلى الغرب قهرا ضد شعب للعرش دوما مقاومْ..
علّه يحرس الحمى من بنيه ولتبقى لنا جميع المغانمْ
وسأشقى لو كنت وارث عرش بالذي قد حملته من مآثمْ
غير أنّي لن يستفيق ضميري فضميري في هدأة الذلّ نائمْ
وإذا ما صمدت قالوا : خطير ذو دهاء يدكّ أمن العوالمْ
فلنخضدّ أشواكه فهي هول ونقلّم أظفار هذا المهاجمْ
ولو أنّي قد كنت قائد شعب "ناصر الحق" في بلاد الأعاجمْ..
يستفزّ الغرب الغشوم بفعل لا يراه إلا كبعض الجرائمْ..
لنهاني عن ذلك الفعل حتّى صرت للشعب والمبادي أقاومْ
ثم راحوا يهددون وجودي بأفاع مسمومة وأراقمْ
ولسلّطت – في اضطهاد بلادي والمبادي – أقسى ضروب المظالمْ
ولآمنت بالذي قرّروه والذي يزعمونه من مزاعمْ
فرأيت الفداء والموت عزّا في سبيل الأوطان، إحدى المآثمْ
وبدا لي الجهاد، في كل أمر يزعج الغرب، من كبار الجرائمْ

ولصار الشهيد عندي رمزاً ... من رموز الإرهاب جمّ المظالمْ
فالذي يرهب الصديق عدوّ ... ذو دهاء تصطكّ منها القوائمْ
وشهيد الأوطان مجرم حرب ... والمبادي لدى الخصوم جرائمْ
والفدائي قاتل ورهيب ... تغتدي وقع المنايا حوائمْ
أحمد الله أنّني لست حاكم ... في بني العرب أو بلاد الأعاجمْ
لا رعى الله كلّ حاكم شعب ... عرشه فوق كومة من جماجمْ
ينخر الشعب عرشه، وتراه ... يحرس العرش بالجيوش الخضارمْ
وهو، في شعبه، خطيب جريء ... وهو، بين الأسياد، أخرس واجمْ
يؤثر الذلّ فوق عرش كنعش ... لم يحقق، في الحكم، إلاّ الهزائمْ
رافضا عزّة الإباء كريما ... بين لمع القنا وهزّ الصوّارمْ
مانحا ثروة البلاد لخصم ... فرضاه لديه كبرى الغنائمْ
وكفاني بأنني لم أذلّل ... مثل أسيادنا الكبار الأعاظمْ
ورعى الله كلّ من كان شهما ... يعربيّا مشرّفا آل هاشمْ
وكريما يجود بالنفس طوعا ... مثلما جاد بالنفائس حاتمْ
لا يخاف العدى إذا ناب خطب ... وعزيز لدى الدّواهي الغواشم

مؤمنا بالمبادىء الغرّ مهما ... ثار في البحر، موجه المتلاطمْ

لا ذليلا يعدّ لكلّ نصرا لديه ... أن يرى نفسه من الموت سالمْ

فهو عبد لكلّ من أمّروه ... وهو عبد الحياة عبد الدراهمْ

وأنا أحمد الإله لأنّي ... شاعر صادق جريء مقاومْ

أحمد الله أنّني لست حاكم ... في بني العرب أو شعوب الأعاجمْ

« قلعة الموت »

مراد العمدوني

هائم...

فوق أشلاء الرماد

أتهجّى جيف الموتى لأخفي جثّتي

خلف عصفورين طارا في العراق

كنت أهوي

والهواء كان قلاعي

فتلاشى كخطاف شفقيّ

خانه الوجد فغاب

بين حدّي رافدين...

كنت أهوي

والطريق البكر يخفي

ما تبقّى من خفايا الوجه، والدهر اليباب..

يستردّ المجد من قبو التمنّي

هامت الروح... تلاشت

كغبار بين دوح الردّتين

والصدى خان دروبي

... ثار نفح من رمادي

فاستويـــــــــت

خلف من فاتوا... وماتوا

بين ألياف الوريد...

خلف طفل نبويّ أربك النجم وصاح :

ـ هل أعير النهر للنبع، وأمضي.

نحو أزهار تموت

أم أعيد الملكَ للطيف الشريد...

....

كنت أستلّ المواعيد من الأكفان، وحدي أحتفي

باحتراق الورد في كفّـي حمام ينحني

لانشطار الروح بين الصدفتين...

كنت أبني من خرافاتي قلاعا

للصراط المستحيـــــل

وأغنّـــي للـــدّم المستنقع

هل سرقنا الموج من حيتانه

كي يتوب البحر عن أخطائها

أم جعلنا الماء غيما

والندى سقف السحاب..

كنت أروي الرياح

كيف كنّا

نقطف الشمس من النهر، ونرمي كجتّين

خلف إشراق الشعاع...

كيف كنّـــــا

نسبق الموتى إلى أكفانهم غيما فتبقينا الأغاني:

ليتنا نبقى كما الريح السموم

مزقا ثكلى وأوطانا تحوم

ليت قلبي ما هوى الشوك الذي

حين ينمو، يجعل الأرض تخون

(..................)

هــــائـــــــــم

بين أسمائي وبين الريح ألهو

مثل طفل يفلت الخيط لعصفور الورق...

مثل بركان يدلّي شعلة الروح.. ويهدي

صورة المطلق نارا للعلق...

مثل عفريت خطفنا الماء من لجّته الأولى، وصغنا

بهباءاته نسلا للغسق...

وجعلنا من هشيم الشهوتين، قلعة

ومن النهرين قبوا للفلق...

....

ألهذا اللحن عزف

غير ما تلقيه عند الباب أنثى

من ترانيم الصغار...

ألهذا اللحن وقع المرأة الأولى ليحتلّ حنيني

لاكتشاف الأرض شكلا في دواري

فأدير الجسم نحو الجسم، قسرا

ما استطعت

أن أرى نفسي وقوفا

لانهياري

في فتات الوهم يهوي

حين نروي

حلمنا الشادي بأطفال الفرات...

....

هــــــــائـــــــــم

لم تزل قلعتنا تحتلّ غيما

والهباءات تعدّ الجسد ابكر لموت بحريّ

وتهجّيه حدود النهد حرقا

فوق فعل المستطاع...

مثلا، لو أستطيع الجمع بين الريق والمنيّ العقيم

لو نثرت النطفة المنتوفة الأولى بلا إسم

على جثّة الغيم...

لو تأخرت قليلا، يا ابنة الرمل البعيد،

عن مواعيد الليالي البيض، واستمطرت خمرا

لو تباطأت ولم تلتقطي جثّة الطير

من ضفاف الأرخبيل...

لاستطاع الوجد أن يحتلّ طيفا

ويعيد الروح غصبا

لفتى مستنسخ من جينة مبتلّة بالدّم والطين الذليل

(......................................)

قال نخل

وهو يخفي غيمة استلّها من سترة التاريخ فجرا :

ـ هل يعاد المشهد السحريّ لو يختلّ نجم

ويتوب العاشقون

عن دروب النار والتجديف ضدّ الغيب.. هل كنّا جميعا

تحت سقف وسماء تتدلّـــى فوق قبر مائل

لتكفّ الريّح عن خلخلة الورد الصبوح........

....

....

قد ينزّ الصدف البحريّ ماء قاتلا للبحر أحيانا، فنمضي

خلف أسماء بلا معنى ولحن مربك كانكسار الضوء

في قاع سحيق....

خلف أوهام حلول أبديّ في جباب الله، واستمناء طفل

يستحي من نطفة مفتونة بالانتظار...

....

كان وقع الموت يأتي

كلّما استحوذت أشلاؤنا، غصبا، على أشكالها

كلّما تقنا لصوت إمرأة مهمومة بالانتشاء...

أو قطفنا جثث الماضي من الذكرى

أو مشينا بين نهدين لبنت تتعرّى

في طريق النهر كي تحمي كتابا...

لم لم تأت من الرّيح سوى الروح البغيّ؟!

لم لم تخف الليالي صور العشاّق عن مجرى الرّصاص ؟

لم يا ليل، يمرّ الطير بين الريح غيما

وهو يلقي ما تبقّــى من ركام

فوق قلبي

فتفيض الأغنيات

(آه يا ليل... ليلي يا ليل...)

لك ما تخفيه عنّا القبلة الموقوتة الأولى

من ظلال

وجع المجهضة البكر لطفل الأنبياء

لك ما تهديه أنثى لفتاة

تستعيد اللّذة المرّة وهما بالسحاق

وحريق مستعار من حكاك الشفّتين

لك أن تستلّ فيض الصوت من حنجرة الطفل الأبيّ

لا مفاعيل بقت حتّـــى نغنّـــي

لا ولا صمتا يليق

قد يخون العالم الماضي فلا تبقى موازين

والتي كادت تكون الـــ "فاعلاتن"

لم تكن إلاّ "مفاعيل"............

....

مفاعيل من نحن إذن ؟

حتّى تخفينا الظلال تحت سترتها

وترمينا المعاني إلى الأفول...

مفاعيل من نحن إذن ؟

وهذي السماء تستبقي الوافدين في مواقدها

ثمّ تخون....

هـــــــائـــــــــم

لكم جرّدنا أشياءنا من الهيولى

وأعدنا للرّيح شكل النّـــار

والتربة المؤودة

لتمضي بنا القوارب خلف شفق ملّطخ بالبحر

واختبار مفضوح لسرّ سمرتها

حين تفتح على العري البدائي شبابيك صرّتها

وتنشىء من صلصالها بلدا

يكتّفنا بالأمنيـــــــــات

ويعبث بأوجـاعنـــا الثكلى...

....

آه يا بلدي

تعبت أسمائي منّـــي...

تعبـــــــــــــــت

فدع جسدي يخترق شهوته بالضياع

ويختلق شبق الموت...

دع قلعة النسر تحتضن نجمتها المهيأة للإنشطار

وتهدي رفرفة للصوت..........

لم تـــعـــد لنــــا لــذة المعنـــى

خرائط لنمتدّ خلف أشكالها

وننام كالأطفال تحت لحاف الريّح

لم تعد لنا لذّة المعنى

ولا ثرثرة همجيّـــة كالطقس

حتى نعيد الدّم إلى وردة محفورة على الهمس

ونتكـــيء على صفصافة أخرى

غير عمري

آه يا بلدي...

تعبت أسمائي منّي..

تعبت كــلّ المدن....

وتعرّت لي الأشياء بلا شبق

كأنّها مـاء ملوّث بالذكرى

كأنّها ابتسامة نهر بين موتين

يمتصّ دم الريح

فكيف أمـدّ صمتي بين شفتين مقيّحتين وجرح...

تعبت أسمائي منـــي

تعـبــت........

قصيدتــــــــان

رعد مطشر*

عصافير منطمرة

ها هم أطفال بلادي
ناموا في سيف سهادي
ثم انهمروا من صحو رقادي
جثثا
مطرا
شهداء،
أيها الناسجون المدى
بشذى حزننا
يا أقاصي اليتامى ويا رضّعا
حرّقوا جمر أكبادنا
كيف غبتم بلاطا يعجّ بأشلائنا ؟!
وفضحتم صدى الأدعياء.
أيّـها الـ...
إنسجوا للثكالى عويلا
وأنتقوا للأرامل جرحا
شكّلوا من ضحايا الملاجي.. نهرا

لتردّد أكوانكم:
هــا هــم
أطفال حدادي
فزعوا من سهو سوادي
ملأوا بالليل شبيه مواكبنا
وعوانس من طائرات،
هــا هــم
أطفال عراقي
رهنوا الأحلام لدغدغة القصف
والطير لكابوس الموت
وحدائقنا أبواب النزف
هــا هــم
تــراهــم
حلّــقوا
حــلّــقوا
... أزهار دم وغار،
هــا هــم

* شاعر عراقي

سمــاؤهم
أ... ش... ل... ا... ء
طيـــــر ؟

وبلادي... أيضا

كل الطائرات توقظ أشباحها وتطير
تجاهك
وأنت...
قاصفو بياضك
لم يلمحوا تسلّل الأنامل من سواد
القصف
لم يسمعوا بمراع تبسمل بالينابيع
أو
بشهادة تربت على كتف العصافير
وتسبّح بجلال الضحكة الطائرة..
فيفرّون مسترسلين في العواء
بعيدا عن هذي البلاد
البلاد التي تشحذ سماءها لذبح
الخفافيش
وترتفع
ترتفع
في كل ذبح

توازى حفيف الطفولة
ولثغة الشهداء...
ولمّا تهبط.. تسوّي من إسرةّ القتلى
سطوحا لرعشة الفراشات
وتدير مقبض النهر
فيفيض الفرات بالجسور والسمك
ويصير الموج مخابىء لرفعة الشقائق
النادبات :
عـــا..
مـي..
ري..
يــــات..
عامـــــر.. يات
يتنزّه ـ بين أشلائها ـ الوجوم
ويـــــردّد :
عامريات تتلفع بسطوة الصراخ،
يـــا بـــلا.. طـــــات
وبلا.. طات ما عاد فيها متّسع لأقمار
تتجسّس
كيما تنضبّ صبر البلاد..
البلاد التي توحّد نفير الدمع بدجلتها

قصـــــــائد

الهادي العثماني

لهــاث

ما زلت ألهثُ..

خلف صوت قصائدي المفجوع،

يرحل في دمائي

ما زلت أبحث...

عن رحيل، أهتدي بدروبه،

نحو انتمائي

وألّـم في شعثي الخيال مشتّتا

بين الرّبيع بزهره،

والقحط في فصل الشّتاء

سأظلّ أجمع من نثار قصائدي،

ما بدّدته على الطريق يد الفناء

وأظلّ أبحث لاهثا...

ما بين خارطة الزمان وبينك

عن موقع يحمي احتمائي

ما أتعس الفرح الذي...

لا ينتشي بلقائك عند المساء

فبدون وحيك،

لا أكون مع القصائد شاعرا

وبدون أحلام الهوى،

تفل القوافي

ويرتدي الشعراء ثوب مهرّج

زمن الحداء.

معزوفة الناي الحزين

اللّيل... والأشواق...

والأمل المرصّع بالمنى للرّاحلين

تلج القصيدة في تخوم الذكريات

يقودني طيف الكلام إلى ثنايا الحلم

رغبتي تستعيد وميضها

كيما يدق العشق باب الرّوح...

ينفلت الحنين

لا شيء يرضي.. أو يليق بلهفتي

إنّي اتكأت على مواجع غربتي

من نسغها نسغ الكلام وظلّه

وصهيل جرح غائر، من لوعة العشّاق

تشعلها السّنين...
سقطت على الأحشاء جمرة نارها
شبّـت لهيبا حارقا
من ألف عام أشتكي وجعي،
وأجهش صادقا... دربي الجنون
من ألف عام،
والهوى لغتي ودربي
والغرام عقيدتي وقصيدتي
ما زلت أنثر للّيالي صراخ روحي
واحتجاجاتي، وإلحاحي وخوفي،
وآعترافاتي تبثّ اللّحن
مـن نـاي حزين

لي وشائج دهشتي

ستظلّ تخطفني، وتدهشني تماما
مثلما تهب الورود عطورها ـ أرجا يفوح
فأظلّ مرتبك العبارة والخطى
وأخاف في عينيها أحجية تلوح
أشتاقها.. فأمرّ من وطن الكلام،
إلى وليمة نزوتي،
كي تشتهيها مواسمي جسدا وروح
سأظلّ أذكرها، فأمدح حسنها
وأظلّ أعشق صمتها ـ لغزًا يبوح
إنّي الفتى المشدوه،
أرحل في مواكب عطرها...
في سحرها
لي ذكريات العشق، متكا مريح
سأظلّ ألهث خلفها كي أستظلّ بفيئها
لي عشق فاتنة الفؤاد ،
ولي... جنون الشّعر
لي... بوح صريح.

قصـــائـــد

نزيهة الجديد

1. قطوف :

*** إلى م. رضا الجلالي**

أيها الشّاعر الشّاعر !
لماذا تركت البراح
بلا ظلّ
والرّوائح
بلا فلّ
ومحاسن الأضداد
ورحلت / كابيا كخريري...
أيّها الشاعر الشّاعر !
طلقاتك تدوي أسمعها،
في النّبض تسري أسمعها،
تقصف أفراحي،
ترديها...

*** إلى حسن نصر :**

ما بين القدر
و"بيضة رأس الديك"
بطيخة ناضجة
عالجتها استعصت،
سبيل أخرى
أدركها النّسيان، ضاقت،
صارت لها أسوار
من عوسج...

*** إلى نفسي :**

عقود ثلاثة
تساقط كالزّهر
والصّمت يتعبني
وتتعبني الأحزان
فلا أبكي..
تحيّرني البحار
فأسبح في مداها
موجة تائهة
تتلمّس مناقير النّوارس
والأحجار...

2. دوار :

هل أقيس الخطوة على الرّمل
شبرا شبرا،
وأسحب الدمعة من صفحة الخدّ
جمرا..
وآمر الرّيح أن تتوارى
أو تستريح بعيدا
حتّى أعبر وحدي هذي الشوارع
والسّاحات،
حافية، جافية، غافية
باسطة الجناح للأحلام؟!..

3. الغيمة :

*** إلى م. عفيفي مطر :**

ـ ما المسألة ؟
قال : أن نوغل في رحم الأشياء.
ـ شبرا شبرا ؟!
قال : حتّى قتل الزمن المنافق،
حتّى رفع القمع عن فراشة الدمّع
بملامح وجه "أمبيذو قليسي"
فما الموت سوى شهقة
ما بين لعبة السّيف
وشهوة الغرق
في غابة الجوع والقمر.
ـ ما المسألة ؟ أيّها السافر،
ـ كرّرت التّسآل،
قال : امنحوا الشّاعر الأمل.
وتوارى خلف الغيمة.

الغيمة
خلف
القضبان

أربع قصائد من حلب...

مصطفى النجار*

1 ـ رسالة أم إلى ولدها

ولدي...
أسلمت زمامك للطوفان لماذا ؟
ولماذا قد حاصرك المقت، قطعت
جسورك..
واجتثت أوهامك أشجار الضوء
عققت الصدر، رجمت الدالية العذراء
وحثثت الخطو إلى هاوية عمياء
فلماذا تبقى من غير شراع
طوّحك الريح، وتبقى من غير عيون.
تتهجى لغة الشوك، الليل، الأشباه
وتنسى ما غذّاك به الصدر طويلا؟
هل تبقى من غير حليب ترعى قطعان
الإسمنت
وقطعان الأشجان وتثغو : ماء.. ماء
كم من صدري انهمر الحبّ
ومن كفي التقط العصفور الكلمات الأولى
الألف.. الياء، الحاء، الباء
عد يا ولدي الضال
وتعال الآن تعال
ستراني (خنساء) تبحث عن ولد..
يأتي بالمعجزة الفرعاء !

2 ـ من أين يأتي ؟

من أين يأتي.. خبريني أستريح
فالورد والأحلام والنبع الشفيف
للروح عطشى، بعدما الحب الجريح
ضاقت به الدنيا كما ينأى الرغيف
من أين يأتي.. كيف نجنيها الأماني
من أين والأيام بالحمى تدور..
من أين قولي؟ كيف تنداح الأغاني
من أين والأحلام وهم مستطير
من أين يأتي.. خبريني فالفحيح
لفّ أشواق العذارى
والأرض أصداء ريح

والناي (موال) الحيارى
من أين يأتي،، خبريني أستريح؟
مثل طير الحب يدمى
صار في التسآل فكره
بكر فكره
شرّدته الآن في الآفاق زهره
وارتمى تحت الرماد
كم شدا شاد عليه
واكتوى الشوق إليه
وهو جمرة
تحت قمصان الرماد؟..
هل ترى يلقاه مرّة ؟
من أين يأتي.. خبريني أستريح
بل كيف يأتي، ترتوي - في التو-
روح؟.

* * *

يا حزين الروح.. يا آه الحيارى
يا سؤال الريح في سمع الصحارى
فتش الوجدان عن سر خبيء
كان بالأمس شعاعا فتوارى
فتش الأوراق عن حرف مضيء..
أشرقت يوما بنجواه الصحارى؟!

* * *

كرمي عيون النبع، أسمعني نشيدك
يا أيها الإنسان بادلني بريدك
وابدأ قويا، يانسا لا.. لن أريدك؟!

3 ـ أمنية

أضحى في السحر الأبيض
أبيض من فضة
وبياضا تزداد حواليه الأشياء
أضحى محرابا للعباد الخلصاء
ومشفى للمرضى
أضحى نهرا، روضة
وبريدا يتحلى بفراشات
من فرح ومشاعر بضة
ونهوضا للغة الخضراء
وتمنى الشاعر لو كان العالم
رغم الليل، النزف اليومي
مدينة نور تنهض
من سحر أبيض !

4ـ حينما تنضج الروح

هل حملت روحي من مطر النور حروفا
أم أخذت من جمرات الليل قطوفا
فهي الآن نضوج يصل الناس أليفا
ونجاوى معشبات..
وعشايا خضلات..
وخروجا من يباب..
يصل الناس ألوفا ؟!

سيخلـع نعليـــه

محمد الغزي

سيخلع نعليه إذا جاء بابها
فإثم عظيم، أن يدوس ترابهَـا

هي الأرض سجّاد ونحن نزولها
نوقّر أن تغشى النّعال رحابهَـا

سنبصر قبل العين بهجة وجهها
ونسمع من قبل الخطاب خطابهَـا

فيا أيّها السقّاء هات مياهها
وأفرغ بظلماء القلوب قرابهَـا

وخضّب بأطياب المدينة دورقي
لأجلو على بعد المزار غيابهَـا

ولا تسألنّي إنّني من سلالة
بها العين والحدس المكين تشابهَـا

فمنّي قلوب العاشقين تحدرّت
ومنّي أنا العشق الذي قد أذابهَـا

دمشق الهوى والشعر هذي قلوبنا
إلى أرضك الولهى تمدّ رقابهَـا

ونعرف أنّ الحبّ قد كنت بيته
وحريّة الأوطان قد كنت بابهَـا

فماذا سنروي عن ربوع عراقنا
وأنت لأدرى بالذي قد أصابهَـا
تحدّرت الأخلاط من كلّ جانب
لتغرس في لحمِ العراق حرابهَـا
سلاما بلاد الرّافدين ونخلها
سلاما فراتيها سلاما سحابهَـا
سلاما مقامات تدفّق نورها
سلاما مريديها سلاما قبابهَـا
سلام على الحلاّج من جعل الهوى
طريق فراديس الجنان وبابهَـا
إن استوحشت أرواحنا كان أنسها
وإن ظمئت للحق كان شرابهَـا
سلاما نواسيّ التولّه والطّلا
يعيد إلى بكر المعاني شبابهَـا
تعاورها الشرّاح دهرا وأولوا
فما رفع الشرّاح يوما حجابهَـا
سلام على الأهلين في أرض بابل
سلاما لياليها سلاما صحابهَـا
سلام على ذات النقّاب التي نأت
فكان تجلّيها الجميل احتجابهَـا

أجابت إذ استنسبتها موصلية
وإنّ إلى أهل الجبال انتسابهَـا

تساءلت إذ أبصرت جمر عيونها
ترى كيف لم يحرق لظاه نقابهَـا

بلى.. ذاك عهد لا أؤمل عوده
وتلك ليال لا أرجى إيابهَـا

كأنّ شباب العمر كان جناية
ووثبة هذا الشّيب كان عقابهَـا

سلام على الصّحراء بيت قبيلنا
سلاما خزاماها سلاما شعابهَـا

أيا بدر عد للبصرة اليوم شاهدا
وجل في حواريها وشاهد خرابهَـا

فمن أول التاريخ كانوا تحدّروا
ليستأنفوا إحراقها وانتهابهَـا

دمشق الهوى والشعر هذي قلوبنا
إلى أرضك الولهى يمدّ رقابهَـا

ونعرف أن الحبّ قد كنت بيته
وحريّة الأوطان قد كنت بابهَـا

فهذي فلسطين بأغلال أسرها
تكابد من ستّين عاما عذابهَـا

سلاما دماء الأهل تغذو ترابهَـا

سلاما بأرض الضفّتين انشخابهَـا

كأنّي أرى مني الدماء تقاطرت

وأسمع من شريان قلبي انسكابهَـا

دمشق الهوى والعشق هذي قلوبنا

إلى أرضك الولهى تمدّ رقابهَـا

لسوف يثوب الدّهر يوما لرشده

وتسترجع الأيام حتما صوابهَـا

وترفع هذي الأرض راية نصرها

وتحضن من بعد افتراق ترابهَـا

مشهد امرأة ثاكل

محمد الأمين الشريف

بصوت مغصوص
وعين زخاخة
قالت : يا سعفايا
لا العذراء عادتها
ولا المسيح لها تراءى
لا ماء في الكهف
لا ماء
فقط رائحة الموت.. التنبعث
من جثة صغيرتها
ترفض أن تتوارى
فالبعل مأسور
والبيت مصعوق
والعفش
والزرع
والشاة
يا لصدمة ما دهاها
***
يسوع
أيها الشاهد على مأساتها
وبلواها
يا من كنت هنا

تحبي الموتى
وتشفي الجذام
أجر ثاكلا تشوّت رئتاها
شاط قلبها
وانتفخت من الولولة
لوزتاها
لم تك تعلم ان حينا آخر
سيفقدها ذماها
فالابن راح يدرس لنيل شهادة
وعلى محفة جاء
بالشهادة القدسية جاء.
كل شيء لديها في ومضة عين
تلاشى
***
لا ماء في الكهف
لا ماء
لا العذراء عادتها
ولا المسيح
أنجدها وواساها
أين منها حليلا كانت بحبّه تتماهى
أين منها طفلا كان حلمها ومناها

أين منها طفلة ترقّبت زفّتها وهناها
أين بيتا كان مخدعها ومأواها
وذاك الحقل الذي أهابها دوما خبزها وريّاها
أين منها غضارة
كانت بها تتباهى
***
يتها الجلجلة
ملعونة أنت
وملعون ثراك
ولا الله بل مثواك
ان لم ترجمي بصخورك اللاهوتية
يهوذا المفسد والسفاك
وتزلزلي من تحت أقدامه الأرض
وتضرمي نارا
وتنزلي عليه أشدّ دهاك
وبذا تقيمين الحدّ
وتستنصرين لمعطوبة
في حماك
***
يتها المجدلية
بحزنك المعتّق الأبدي
لملمي حزنها الطارىء
وعلى لسانها
اطلقي زغرودة
وعلى قلبها
بثّي بردا وسلاما
واستبدلي صابها شهدا
ورضابا
ثبيها على قدر زفراتها
برّا وسلوانا
وابسطي على جراحها جناحيك
وأطردي ما هان وراع
أعيدي لها الفرحة
وآرسمي على شفتيها
البسمة
والأمل المصان
وضعي على جبينها
فلاّ وغارا
وأحكمي قيافاتها
بما يوافق أمومتها
بما يضيف لها حياءا ووقارا
غدا يشرق فجر الخلص
من أبناء فلسطين
ويشعّ انبهارا
وتشاد صروح المجد وضّاءة
وتحضن أهلها الديار
ونأتي لنغني سويا
ملاحم البطولة والانتصار

قصيـدتــان

محمد بوحوش

كائنات اللاّزورد

كائنات من اللاّزورد تحطه،
على وقع أهزوجة صاخبة.
وتشطح في موكب الموج،
تشطح في ألق الضوء.
تزهو وترنو إلى أفق الدهشة الخاطفة.
كائنات من اللأزورد توقع،
في بهجة الإخضرار ترانيمها، ثمّ تخبو
شعاعا..
كائنات على عريها، ها هنا،
كالعناكب ـ من سقفها ـ تتدلّى
كائنات هناك على فتنة، كالنّدى غافية.
كائنات على جرحها، يعبر الوقت
كالشهوات، وترقص في ألم الرغبة
النازفة.
كائنات كظلّ المرايا، تمرّ على وتر
الفرحة الخاوية.

قبل السديم

"من أنا قبل ليل السديم" ؟
أدق على الغيب بابا
وأفتح أفقا على أفق آخر.
كنت فيض الغياب.
الموشّى بطيف الغموض.
سادرا في سديمي أرى :
رجفات يديّ.. صفاتي،
رمادا من الحلم يوقظ
فيّ حنين الصدى.
وأرى فوق هذا المدى ظلّ "لوركا"
وماض يئن بأوتار أندلس الباكية.
سادرا في سديمي أرى :
أولياء البلاغة في شجن،
إمرىء القيس يكبو..
بلا فرس راقصة.

القصيدة البيضاء

عبد الرزاق الفريخة

حين تخبو آخر النّجمات في قاع الضّلوع
أتسلّى بالدّموع
لست من عشّاق ليلى
لا ! ولا أختا لصخر
فأنا حين يجفّ النّهر في الأعماق
أو تذوي الشّموع
أتسلّى بالدّموع.

* * *

حلم غنّى قليلا ثمّ تاه
ضيّع الميناء والدّرب وضاع
في سماء لم تكن يوما سماه
سألتني عنه أشجار النّخيل
سألتني الأرض والأقدار واللّيل الطّويل
قلت : لم يترك دليل
هو ذكرى
حين تصحو وتضوع
أتسلّى بالدموع

* * *

لست أرثيني ولكن
ضاقت الغرفة بي هذا المساء
لون أوراقي رصاص
وحروفي شهداء
أيّها القمريّ من أغراك بالصّمت الجليل؟
من ترى عطّل فيك الحالة الأولى
وأنساك الهديل
مغلق شبّاك بيتي
والقمر
يرتدي جلباب غيمات شرودات
ويخفي بين أغصان الشّجر
دمه الممزوج بي
وبأحلام النّساء
لست أبكيني.. ولكن...
حين تنهار القلوع
أتسلّـــى بالدّموع

نطفة من أصل خائن

حفيظة القاسمي

الإهداء : إلى الضمير العربي.

ما تراني قد أقول لبناتي
يوم يسألن بآه
عن ضحايا من بني عمّ وخال
بطرابلس ووهران الشقيقة
بفلسطين وشبعا
وببغداد العريقه
أما طرطوس فليل واحد ثم انهيار
ولمصر موعد من خلف غدر بالنهار
ولـبَـكّـــــه ...
آ آه يا بكّه دقيقة
ثمّ يأتيك الرّجيف والدمار
ما تراني قد أقول لبناتي ؟!
هل أقول قد جبنت مثل أجدادي
القدامى
يوم حطّ موكب "الصقّر" وقال :
"هيّا دلّونا وأنتم بالوسام غانمون"

آ آه كم كنّا صغارا خانعين !!!
هل أقول ما استطعت أن أخون
طبع أعراب الخيانة
فالأمانـــه..
ليس لي فيها نصيب وشؤون.
ولأني نطفة من أصل خائن
ابن خائن
جدّ خائن... وجبان
قد حملت الغدر إذعانا لأصلي.
وقتلت يا بناتي
حلم أبناء الفرات
ونشرت سرّ موّال لطفله
وسلبت نفط بغداد الأبيّه
وانحنيت :
- "سيدي الصقّر إليّ...
من بلادي ترحم الدّرب البهم
انّني ملك اليمين".

ما عساي قد أقول ؟!	هذا تاجي...
فالهنود الحمر أسياد لنا	حتى أفنى..
وذيول الخانعين...
بينها ذيلي تعطّر وقع أقدام الهنود
تلعق النّعل وتفنى
مثل صرصار ودود
وأنا منذ الولاده
قد رضعت الذّل دهرا بامتياز
وركبت الفعل لهوا بالمجاز
وتحدّيت الغبار لأكون
أنفه الذّيل لديهم.. ذاك حلمي
ولئن حلّ الوعيد..
مثل طوفان شديد
مثل إعصار ونار
ما استطعت أن أكون
غير ما كنت عليه
ذاك أصلي..
وأنا حبّا بأصلي وانتفاء
لن أكون إلاّ ذيلا من ذيول الخانعين

الثقافة العربية في مواجهة العولمة

محمد الهاشمي بلوزة*

بعد انهيار الاتحاد السوفياتي الذي شكل طيلة ما يزيد عن نصف قرن من الزمن أحد قطبي المعادلة التي حفظت للعالم نوعا من التوازن ومنعت إلى حد ما عودة الاستعمار العسكري المباشر الذي يستند إلى منطق القوة والهيمنة، انهارت معه جملة القيم والمفاهيم التي كرسها الفكر المؤسس لذلك الوضع الدولي مقابل صعود منظومة القيم المنتمية للمعسكر المنتصر الذي استفرد بالعالم وارتأى أن من حقه أن يفرض عليه تعاليمه إن لم يكن بقوة الحجة فبقوة السلاح.

والسلاح في الواقع أسلحة، أشدها فتكا تلك الأسلحة غير التقليدية التي تتطلب مواجهتها قدرا كبيرا من الوعي بخطورتها، وأولها السلاح الإقتصادي الذي يتجسد في السيطرة على موارد الدول والهيمنة على مقدراتها واخضاعها لنفوذ الشركات الدولية متعددة الجنسيات لنهبها والثاني فكري ثقافي يرمي إلى غزو العقول وتنميطها وفرض ثقافة الغالب على المغلوب لقتل أي شكل من أشكال الخصوصية وطمس هوية الشعوب وبالتالي مسخها وتنميطها ثم تدجينها وتحويلها إلى أسواق استهلاك للمنتجات الواردة من الضفاف الأخرى.

هذه النظرة التي تحمل القدر الكبير من الإنفعال وربما من الانحياز المسبق الناتج عن ردة الفعل، مبررة بدون شك بما تتعرض له الأمة العربية في خضم هذه التحولات ولا يمكن في الواقع لمثقف يعطي انتماءه الحيز الأكبر في وعيه بذاته أن يكون محايدا في معركة لطالما كان هو جزءا من وقودها.

ولا معنى من وجهة نظرنا لأي مقاومة، إن كان لابد من المقاومة، إذا لم تكن خيارا يدافع عن هذا الوجود من منطلق التفاعل الحضاري مع الآخر وليس بغاية رفضه جملة وتفصيلا لطالما أن الآخر قدر محتوم أصبح من المستحيل الاستغناء عنه في عالم يفقد جغرافيته وتاريخه معا.

هذا العالم الذي يسير بخطى حثيثة نحو عولمة لم تعد تقتصر على مجال الإقتصاد والمال والأعمال، وانما امتدت إلى الفضاء الثقافي لتجعل من الفكر والإبداع سلعة رخيصة تنتقل دون قيد أو شرط كما تنتقل بقية السلع.

لكن هل يمكن بالفعل عولمة الثقافة وتنميطها وهي المبنية أصلا على التنوع؟ وهل تصمد ثقافات العالم ومنها الثقافة العربية في وجه هذا التيار الجارف الذي يسمى عولمة؟ وماذا تعني العولمة تحديدا وما هي مخاطرها حتى نخاف على الثقافة العربية منها؟ ولماذا نفترض وجود المواجهة كأنما هي قدر محتوم؟

كل هذه الأسئلة هي ما نحاول التحاور فيه في الفقرات التالية وذلك تبعا للمنهج الإجرائي الذي ينطلق من تحديد

* كاتب تونسي

مفاهيم المصطلحات المتداولة ومنها الثقافة والثقافة العربية والخصوصية ثم العولمة ليقع التطرق بعد ذلك إلى حصر التحديات التي تفرضها العولمة على الثقافة والبحث في الأخير عن كيفية المواجهة والتصدي.

1 ـ في مفهوم الثقافة وخاصياتها

يحيل البحث عن تعريف للثقافة إلى المفاهيم التقليدية التي تداولتها الأدبيات وأبرزها التعريف الذي وضعه «تايلر» والذي مفاده أن «الثقافة هي تلك المجموعة التي تشمل المعارف والمعتقدات والفن والقانون والأخلاق والتقاليد وكل القابليات والتطبيقات الأخرى التي يكتسبها الإنسان كعضو في مجتمع ما» وقد تأيد هذا التعريف فيما بعد من خلال مجمع اللغة الفرنسية في جلسته الخاصة بتاريخ 29 جوان 1972 الذي جاء فيه «وعلى الصعيد الاجتماعي تدل كلمة ثقافة اليوم على جملة الوجوه الفكرية والأخلاقية والمادية والمذاهب القيمية وأساليب الحياة التي تميز حضارة من الحضارات. غير أننا نجد هذه التعريفات شاملة وغير دقيقة بمعنى أنها لا تبرز الميزات الخاصة بكل ثقافة ولا تفرق بين العناصر المكونة للثقافة لذلك نعتقد أن أي تعريف دقيق لابد أن يأخذ بعين الاعتبار عدة عوامل أبرزها الموقع الذي نتخذه عند التعريف، فالثقافة في فرنسا عادة ما تكتسب البعد الكوني في حين في المانيا يطغى عليها الطابع الفردي الإجتماعي. كما يختلف التعريف الأنتروبولوجي عن التعريف الإجتماعي.. الخ...

ولأن الثقافة منتجة للقيم وحارسة لها فإن من يحاول تحديد معنى لها سيواجه مسألة «قيمة القيمة» لذلك فإن مفهوم الثقافة معياري بالأساس كما ان من وظائفها الأساسية إنتاج المعايير (القيم المعيارية).

أما علماء الأنتروبولوجيا فقد اتفقوا اليوم على أن كل ثقافة يجب أن تبحث انطلاقا من بنيتها الخاصة وقيمها الذاتية لأن كل قيمة أو معيار ثقافي يتأثر بالوسط الذي ينمو فيه وبالسياق الذي أنتجه.

وبالرغم من أن هذا التعريف يضيق من مجال الثقافة. إلا أنه يثبت أن لكل مجموعة مهما كان حجم ثقافته المخصوصة التي تتميز عن غيرها من الثقافات كما يبين أن الثقافات متماثلة في القيمة وليس هنالك ثقافة أعلى مرتبة أو أفضل من غيرها.

أما المقدمات الأساسية للثقافة فهي ثلاث :

1 ـ ليس هنالك ما بعد القيم وهذه الفرضية تضعنا في دائرة الحضور المطلق المرتبط بالقيمة في ذاتها (l'Immanence)

2 ـ يوجد من بين القيم، قيمة بعينها هي قيمة الحقيقة المطلقة.

3 ـ إن قيمة الحقيقة هذه التي تحيل إلى «الكونية».

وتمكن المقدمتان الثانية والثالثة من استعادة الملامح المخصصة عادة لوجه الحقيقة الخارقة (Transcendance) الروحية، وهي استعادة تؤدي إلى ما يطلق عليه «الهوية النقية الصافية» كدرجة من درجات انسجام وخصوصية شعب ما.

ولتجنب هذه النتيجة التي تعني ضرورة الإنغلاق، يحسن اعتماد فرضية الحضور المطلق الذي يقود إلى اعتبار التبادل الثقافي كعنصر مميِّز للنظام الثقافي ومنه يتحول

«الكوني» المعيار الوحيد للحق المطلق.

من خلال التعريف أعلاه يتبين أن الكوني في الثقافة هو ما تشترك فيه كل الثقافات لأنه يشمل الحقائق والقيم المطلقة وأن ما يميز الثقافات عن بعضها البعض هو عناصرها المخصوصة التي تتيح نسبة الثقافة إلى جهة جغرافية أو مجموعة ثقافية كالقول بوجود ثقافة أوروبية أو آسيوية والقول بوجود ثقافة فرنسية أو عربية.

وإذا سلمنا بهذا التحليل، فما هي ملامح الثقافة العربية وخصوصياتها؟

تتجلى الثقافة العربية إذا سلمنا جدلا بوجودها في ثلاثة مستويات على الأقل مثلها مثل بقية ثقافات العالم. هذه المكستويات تغطي الكون العام والذاتي المخصوص مثلما سبقت الإشارة، وهي كما يلي:

1 ـ مستوى التراث المادي والتاريخي : ويشمل العناصر المادية والفكرية التي راكمت التجربة السابقة في مختلف أوجه الحياة والتي ساهمت في بناء الشخصية وأثرت تأثيرا مباشرا على تكوين الوعي بالذات. ويضم هذا التراث أيضا سلم القيم المخصوصة الموروثة ومنها ما هو كوني كما يشمل المعتقد والدين وكل أشكال البناء الروحي للمجتمعات.

ويشكل هذا المستوى الدرع الذي يتحصن به أي فرد عندما يحس بخطر داهم يتهدد كيانه الثقافي أو الفكري لأنه يمثل عادة العناصر الثابتة في تشكل الهوية.

2 ـ مستوى السلوك اليومي الحادث والظواهر العامة : وهما بالرغم من حدوثهما وربما تبدلهما باستمرار إنما يصدران في نسبة كبيرة منهما عما ترسّب في اللاّوعي الجمعي كما تعلق بهما باستمرار ترسبات الحادث والوافد الناتج عن التفاعل مع ثقافة الآخر.

ويلعب العامل البشري عادة دورا متميزا في نشوء هذا المستوى لذلك تبينت أهمية هذا العنصر من خلال تحليل علم الإجتماع التفاعلي عند قوفمان و «سارتر» الذي ركز على مراقبة السلوك الفردي (في حين ركز التحليل الإثني على الخطاب).

علم الإجتماع التفاعلي الذي يجد جذوره في علم الإجتماع الأمريكي الذي يبدأ بـ «ميد» Mead ثم «بارسونز» Parsons لينتهي فيما بعد بالفينومينولوجيا أو علم دراسة الظواهر.

ويبدو الإنسان من وجهة النظر أعلاه ظاهرة معقدة وفريدة تتحدى قوانين الكونية والمنطق، واستنادا إلى هذا التحليل، فإن الثقافة تملك معمارا مختلفا حتى ولو كانت محصورة في مجموعة ضيقة من الأفراد، ذلك أنها تخضع للتأويل، فالإنسان يحدد ثقافته انطلاقا من الظواهر اللاواعية التي اكتسبها المجتمع.

وهكذا إذا ما اتبعت الثقافة خطا مشتركا لمجموعة من الأفراد يشتركون في هذا الإتجاه، فإنها ستكون رغم ذلك مختلفة لدى كل منهم لأنها تخضع لقانون التأويل العشوائي.

3 ـ مستوى الخطاب : وهو الحامل لما سبق والمعبر عن المستويين بطرق مختلفة ومتعددة.

والخطاب الثقافي العربي خطابات تتأثر بعوامل عديدة منها الفكري الأيديولوجي والسياسي، والطائفي وغير ذلك من المؤثرات التي تجعل هذا الخطاب يقول في كثير

من الأحيان ما لا يبطن. وهو من حيث هو نظام في الثقافة العربية، يمارس سلطته وفق نسق ما، لذلك يرى بعض الباحثين أن الخطاب الثقافي العربي يقوم على ثنائية الخطاب/السلطة، مشتركين في ذلك مع م. فوكو من ناحية ومع «دريدا» من جهة أخرى في كون الخطاب العربي خطابا ميتافيزيقيا غيبيا كونه يعتمد على أولوية الشفوي الذي عارضه دريدا كما هو معروف منتصرا للخطاب المكتوب لأن الأول من وجهة نظره «نظام سماع المرء نفسه يتكلم، وهو بالتالي نوع من نزوع الإنسان اللاواعي إلى ظاهرة التمركز النرجسي.

إذا كان ذلك تعريف الثقافة، فما هي خاصياتها ؟

لاشك أن من أبرز خاصيات الثقافة تعقدها. ففهم الثقافة وخاصة الجوانب غير المرئية منها يبدو عسيرا ومنغلقا على كل شخص أجنبي عنها لأنه يتطلب فهم منطقها وسلوكاتها وعاداتها وخصوصياتها.

يخاف الفرد بطبيعته التغييرات الطارئة حتى وإن كانت تحمل له الحداثة والرفاه والحرية، لذلك نجده دائما يحتمي في هذه الحالة بالمناطق التي يصعب اقتحامها، حتى لكأنه يفضل ممارسة العزلة والإنقطاع عن منطق نظام وجوده لينتظم في دائرة مغلقة.

ولقد أصبح من المعلوم اليوم أنه لا ينبغي أن يتم إغفال هذه الجزئيات، ذلك أن الثقافة سلسلة تلعب كل حلقة من حلقاتها دورا أساسيا في حياة النظام، لذلك وجب التعامل مع الثقافة على أنها كل لا يتجزأ لأن أي تجزئة تؤدي إلى تأويل خاطىء لبنيتها. لكن ينسى العديد في كثير من الأحيان تمظهرات الثقافة. كالمعتقد والدين مثلا الذين تعتبرهما وجهة النظر الوظيفية سبب تشكل التجمعات البشرية باعتبارها المحرك الأول للروابط بين الافراد.

2 ـ في مفهوم العولمة :

تعرف العولمة من وجهة النظر الشائعة والتقليدية (وهي وجهة نظر تخضع للرؤية التقليدية للإقتصاد السياسي أو وجهة النظر القومية أي وجهة نظر الدولة الوطنية) على أنها عملية تدويل تمتد على ثلاث مراحل :

أ ـ تدويل التبادل Internationalisation des échanges وهي ظاهرة قديمة تفطن لها المؤرخون ورجال الإقتصاد منذ القدم ولا تنحصر في الغرب بل إنها لم تعرف معناها الفعلي إلا بعد أن تشكلت حدود الدول الوطنية.

ب ـ تدويل الإنتاج Internationalisation de la production الذي مكن الشركات عبر الوطنية من تحويل مصانعها للتمكن من بيع الإنتاج على عين المكان، وهكذا اقتطعت هذه الشركات جغرافيا جديدة لا تتطابق بالضرورة مع الجغرافيا السياسية والطبيعية مما يجعل الفضاء الإقتصادي عبر الوطني لا يتطابق مع حدود الدول بل إن الحدود الأولى تحل تدريجيا محل الثانية.

ت ـ العولمة المالية التي تتمثل في التدفقات المالية والنقدية التي تجتاح العالم بأكمله.

وتبدو العولمة استنادا إلى التعريف أعلاه كأنما هي نتاج ايرادات الدول المشتركة وهو نتاج مسيطر عليه لأن هذا التحليل يستند إلى المنطق الليبرالي الذي يعتبر العولمة

توسع ينطلق من الحدود ويبني نظاما دوليا لشبكة متداخلة تحتفظ فيه الدول بالمبادرة.

غير أن الدولي ليس العالمي، والكلام عن اقتصاد عالمي يفرض سيطرة «كل» تكون فيه الإقتصادات الوطنية بالنسبة له فروع.

وهكذا يكون التحليل التقليدي للإقتصاد ينطلق من إطار الدولة وينمو بين الدول، بينما يمكن أن ينطلق من التدفقات Les flux ويطرح الوسائل التي وضعتها الدول للسيطرة عليها.

وهكذا تبدو العولمة Mondialisation من وجهة النظر أعلاه «عملية تدويل للإقتصاديات والمجتمعات ناتجة عن نمو التبادل والإنتاج وتسمى أيضا «شمولية» وهو أقرب مصطلح يمكن أن يترجم كلمة Globalisation وهي تترجم كما سبقت الإشارة التوسع الجغرافي للتبادل، واتساع مجال التبادل نفسه ليشمل إلى جانب البضائع والسلع، الخدمات والملكية الفكرية والأعمال الفنية وقد لعبت الشركات متعددة الجنسية دورا رئيسيا في هذه العملية إلا أن عوامل أخرى لعبت دورا مهما ومنها التطور التكنولوجي في مجالي النقل والإتصالات.

وعلى الرغم من أن مفهوم العولمة استعمل في البداية للدلالة على عولمة الطلب إلا أنه تطور فيما بعد ليدل على العملية المعقدة التي يمكن أن نميز في تعريفها بين أربع مراحل:

1 - اقترح مصطلح Globalisation من طرف تيودور ليفيت Théodore Levitt سنة 1983 ليشير إلى تلاقي الأسواق في العالم بأسره، أي أن الشركات ذات البعد الشمولي تعمل بكلفة أقل عندما تعتبر أن العالم بأسره، وحدة (تبيع نفس الشيء بنفس الطريقة في جميع أنحاء العالم. في هذا المعنى تعرف العولمة بالنسبة للأسواق في مقابل النظرة التقليدية لدورة الإنتاج التي تعني بيع المنتوجات التي انتهت صلاحيتها في الدول المتقدمة إلى الدول الأقل تقدما.

2 - في سنة 1990 تمّ توسيع المفهوم من طرف «كينيشي أوهماي» Kenichi Ohmae ليشمل جملة سلسلة أنتاج القيمة التي تبدأ من البحث والهندسة إلى إنتاج البضائع، ولكن أيضا الخدمات المالية، ووفق هذا المفهوم تبدأ الشركة بالتصدير من قاعدتها الوطنية ثم توسع نقاط البيع في الخارج ثمّ تحول الإنتاج، تصبح العولمة بهذا المعنى نوعا من التصرف المندمج على الصعيد العالمي.

3 - يستند المفهوم الثالث إلى الدور الذي أصبحت تلعبه الشركات متعددة الجنسية باعتبارها تنتج جزءا هاما من الإنتاج العالمي وتتحكم بالتالي في جزء من السياسات الإقتصادية. استنادا إلى ذلك تصبح «الشمولية» التي تبحث الشركات من خلالها إعادة صياغة قواعد اللعب التي وضعتها الدول، لصالحها. وهكذا ينتقل مجال التصرف من المستوى المحلي إلى المستوى العالمي.

4 - في هذا المستوى تفقد الدول القومية السيطرة على التطورات الإقتصادية الوطنية بما ينذر بنهاية «الدولة - الأمة» أو «الدولة الوطنية» على حد تعبير كينيشي أوهماي سنة 1995 في كتابه الذي يحمل نفس العنوان، ومنه يبدأ الإرتباط بين الإقتصادات فيما بينها بما ينهي

الاتفاقات السياسية والظروف الوطنية بسبب تأثير الأحداث العالمية على الساحة الوطنية.

غير أن مفهوم العولمة تطور اليوم وأصبح أكثر تعقيدا، ذلك أن هذه العملية المعقدة التي تهدف إلى إعطاء بعد كوني للإنتاج والتوزيع، أصبحت تشمل اليوم تسويق الوصفات الجاهزة في مجالات الفكر والسياسة على أنها النماذج المثلى.

ولم يعد هذا الترويج يقتصر على التبادل الحر الذي تتكافأ فيه الإرادات وإنما أصبح يعتمد الفرض بشتى الوسائل المتاحة بما في ذلك القوة.

فعولمة التبادل بطبيعتها غير متكافئة بين الدول المنتجة والمستهلكة، المالكة للتكنولوجيا والساعية للحصول عليها كما أن التدفقات العالمية للبضائع والقيم أصبحت تتجاوز وحدة الفضاء الوطني بل إنها تخلق فضاءاتها التي تفرز مناطق من الفوضى والفقر. أما دور الدولة التعديلي فإنه أصبح غير مرغوب فيه باعتباره عرقلة لآليات التبادل الحر.

لكن الملاحظ أيضا أنه في الوقت الذي تتصاعد فيه حركة العولمة، تتعالى الدعوات التأصلية بخلفياتها الوطنية والقومية والدينية والثقافية. ذلك أن العولمة ليست نتاجا لقوى مجهولة، وإنما هي من ابتداع أناس من منطقة بعينها يملكون قيما بعينها ويقدمون أنفسهم على أنهم رسل الحداثة في معناها الواسع الذي يحل العقل مكانة متميزة، وهي أيضا حداثة التقدم والديمقراطية والحرية. فهل تتأقلم هذه العولمة بسهولة مع الفضاءات الحضارية التقليدية المختلفة وهل فعلا ستنمط السلوك والثقافات؟

ذلك ما سنناقشه في الفصل الموالي الذي يعنى بالعلاقة بين الثقافة والعولمة.

3 ـ العولمة والثقافة : تكامل أم تصادم

إن شمولية الثقافة وكونيتها فكرة شائعة، ذلك أن تصورنا للآخر المختلف يجد لدينا صعوبات جمة نتج عنها مع مرور الزمن وهم رفض الآخر المختلف الذي يبرز خاصة عند التقاء ثقافتين مختلفتين. عندها عادة ما يحدث ما يمكن أن نطلق عليه «الصدمة الثقافية» لكن رغم العولمة، فإن الخصوصيات الثقافية لن تمحى، بل بالعكس، فإن الأفراد سيلجأون أمام هذه الصدمة إلى الاحتماء بخصوصياتهم التي تشكل هويتهم، ذلك أن ردة الفعل الطبيعية للإنسان الذي يحس بخطر خارجي داهم هي العود للإحتماء بالجذور.

ولبحث العلاقة المعقدة بين الثقافة والعولمة يمكن طرح ثلاث مجموعات من الأسئلة :

1 ـ هل تغني العولمة الثقافات أم تنمطها وتهمشها؟

2 ـ هل تحتفظ الدول بحرية اتخاذ الإجراءات الكفيلة (قانونية ومالية و...) لحماية ثقافتها وتطويرها أم ستترك ذلك لقوى السوق؟

3 ـ كيف يمكن تشجيع التبادل الثقافي المتوازن وتعديله وبالتالي تجنب السيطرة الثقافية ومخاطر الإنغلاق؟

لكن للتمكن من مناقشة الأفكار أعلاه، كيف تبدو المواجهة؟

تمكن المواجهة بين ثقافتين الأطراف المتصارعة من تبين أن قيمهم ومعاييرهم ليست بالنهاية إلا نتاجا اجتماعيا ينقل من جيل إلى جيل حسب اتجاه محدد خاص بكل

ثقافة. لكن ما الذي ينتقل فعليا؟

إن ما يقع تناقله بالفعل ليس الأنماط والنماذج بقدر ما يقع تناقل السياقات الثقافية الخاصة بكل بلد، ذلك أن النمط أو النموذج لا وجود له خارج دائرته المغلقة لأنه يمنع أي انتقال وحركة للتنوع بصفة تلك. كما أن السياقات المشار اليها ذات معاني أشمل وأكثر تنوعا. ومن خلالها يمكن تحديد القاعدة الأنتروبولوجية الرئيسية القائلة بأن : «الشكل لا يقل أهمية عن المضمون».

إن الإفتراض السابق بني على مبدأ تساوي الثقافات فيما بينها، ذلك أنه من الخطأ الاعتقاد بوجود ثقافة أحسن من غيرها أو أعلى مرتبة منها، لكن الملاحظ اليوم أن ما يمكن أن نطلق عليه «الثقافات القوية» (الأمريكية والأوروبية) وهي ثقافة الغالب تعتقد أنها كذلك وأنه بالتالي يجوز لها أن تفرض نفسها بالقوة لأنها الأفضل.

وكما سبقت الإشارة يلجأ الفرد الذي يستشعر الخطر إلى الاحتماء في مكان آمن، والثقافة تشكل المخبأ الأمثل لأنها الحلقة الأكثر خصوصية والأكثر تعبيرا عن الفرد. هذا المخبأ هو الذي يحفظ اليوم نوعا من التنوع في هذا العالم الذي يركع للعولمة.

فالمجتمعات لا تتخلى بسهولة عن خصوصياتها لذلك نجدها أمام غزو الثقافة الوافدة تحت غطاء العولمة ترجع إلى تلك الخصوصيات التي تبرز خاصة في الرجوع إلى بعض العادات والسلوك وفي استرجاع جملة من الفنون والقيم وفي استنهاض الإرادة في التصدي للإختراق. إلا أن هذا الموقف أصبح اليوم لا يمثل إلا الأقلية في صلب نظام بدأ يفقد أغلب العناصر المقومة لهويته.

لكن على الرغم من ذلك، فإن الخصوصية الثقافية لا يمكن أن تختفي نهائيا لأنها، وإن جمدت مؤقتا في اللاشعور الجمعي، فإنها ستبرز من جديد في الوقت المناسب أو أنها ستنتقل جغرافيا وتتحول إلى مكان آخر. فالنسيان والسكوت الذي قد يقابل الخنق الذي تفرضه الثقافة الأجنبية والعولمة سرعان ما يصل إلى طريق مسدود لأنه لا يمكن قبر القيم الثقافية بصفة نهائية، ذلك أنها تسافر عند ظهورها مع من يحملها (وفي الهجرة أحسن مثال على ذلك).

وفي الواقع، فإن تحليل ظاهرة تعايش القيم المتناقضة أو المتقابلة لا يجب أن يقتصر على اعتبارها تمثل تقابلا بين الحداثة والتقليد، بين المركزي والديمقراطي، بين الجماعي والفردي، فتلك وجهة نظر قاصرة ومتحيزة، وانما وجبت المعالجة من خلال رؤية شمولية تبرزها بصفتها لقاء بين عدد من الفاعلين في المستوى الثقافي.

وفي هذا الإطار يمكن أن تبرز «المثاقفة» كصيغة مقبولة للتفاعل بين الثقافات لا تقتصر على نقل عنصر ما من ثقافة إلى أخرى وانما ينتج عنها نقل لعناصر مختلفة تتبادلها الثقافات المتفاعلة فيما بينها، في ظل العولمة التي تطرح ثقافة بعينها بديلا لكل الثقافات.

غير أن تجربة الاتحاد الأوروبي في مجال المواجهة عندما طرح فكرة «الإستثناء الثقافي» الذي فرض نفسه كحد فاصل بين مفهومين للثقافة الأول أوروبي والثاني أمريكي يبين حجم الخطر الداهم الذي دفع مجموعة من الدول رغم قوتها واحتلالها مكانة بارزة اقتصاديا

وسياسيا وعسكريا تتخذ الإحتياطات اللازمة لحماية خصوصياتها عندما تبين لها أن الثقافة القادمة مع العولمة يمكن أن تمحي خصوصية ثقافتها.

المراجع

أ ـ المراجع العربية :

1 ـ بك، أولريش، ما هي العولمة؟، ترجمة أبو العيد دود، منشورات الجمل، الطبعة الأولى، كولونيا، المانيا 1999.

2 ـ بن عثمان، حاتم، العولمة والثقافة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت 1999.

3 ـ حرب، علي، حديث النهايات : فتوحات العالم ومآزق الهوية، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، بيروت 2000.

4 ـ فوكوياما، فرنسيس، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، ترجمة فؤاد شاهين وآخرون، مركز الإنماء العربي، بيروت 1993.

ب ـ المرجع الأجنبية :

1 - P. Moreau-Defarges, La mondialisation, vers la fin des frontières, Ed. Ifri-Dunod, 1993.

2 - Kail, Michel, Culture et Mondialisation, in La Revue Multitudes (Web) 1995.

3 - BOYER, Robert, La globalisation : Mytes et réalités.

4 - Rapport Mondial sur la Culture, UNESCO 15 - 06 - 2004

5 - D'irbane, Philipe et autres, Culture et Mondialisation, Edition Seuil "collection" " La couleur des idées". Paris 1998.

6 - BAER, Jean-Michel, L'exception culturelle "Une règle en quête de contenus in, en temps réel, cahier 11, octobre 2003.

أسئلة الثقافة وشروط المقاومة

المتوكل طه *

الثقافة بدعامتيها المادية والروحية هي في محصلة الأمر تلك المعايير التي تجابه بها الجديد والطارىء والغريب، بمعنى أن الثقافة تعطينا الميزان الذي نقيس به الصواب والخطأ، الأخلاقي وغير الأخلاقي، النافع والضار.

هذا الميزان المنصوب دائما أمام أعيننا لا يصوغه نتاج النخبة، ولا معايير أخرى مستوردة، ولا معايير مفروضة، ولا ما يستحسنه البشر. هذا الميزان هو ما يعكس روح الجماعة أو خيارها الجمعي أو ما راكمه نشاط تلك الجماعة في مكانها وزمانها، وعلاقاتها، بعضها ببعض، أو علاقاتها بغيرها من الجماعات، مضافا إلى ذلك ما يمنحه أو يفرضه أو يقبله أو يرفضه الدين. الدين نزعة حقيقية لكل جماعة، الغريزة الدينية أو الدافعية الدينية هي أحد الدوافع التي تم السكوت عنها في أبحاث السوسيولوجيين والمفكرين في خضم ثلاثة قرون من الفكر الغربي الذي استبعد كل ما لا يدخل المختبر أو يقيسه البارومتر.

الثقافة إذا، بدعامتيها الروحية والمادية، هي الأنماط الذهنية والوجدانية والسلوكية التي تم تثبيتها خلال الزمن، فصارت إلى حد ما مطلقة، نهائية، مقدسة، صارت جزءا من التكوين الروحي والنفسي والتعريف الكلي للوجود وهدفه وأسلوب ممارسة ذلك الوجود وشكله. وكلما كانت تلك الأنماط الثقافية داخلية كانت عصيّة على التغيير أو التغير أو المناقشة أو إعادة المناقشة، ولهذا يمكن للمرء أن يغير ملابسه أو أدوات منزله، ولكن من الصّعب عليه أن يغير معتقدا يؤمن به.

نقول هذا الكلام لنخلص إلى القول: إن الثقافة بمفهومها الواسع، الحضاري المدني، التاريخي العريض، هي الهوية الحقيقية للمرء وللجماعة، يواجه بها المعضلات، وتتقى بها الأزمات. وكلما كانت هذه الثقافة واسعة، مرنة، ذات منظور عميق وممتد، وتملك إجابات وردودا كافية ومقنعة وذات تأثير، استطاعت هذه الثقافة الصمود والمقاومة والصعود.

قوة الثقافة، أية ثقافة، تكمن في قدرتها على المجابهة من جهة، وقدرتها على الحوار وتقديم الإجابات والردود، وسرعة استجابتها للجديد والطارىء والغريب. الثقافة التي ماتت كانت متحجرة، مغلقة، لم تستطع أن تفهم أو تدرك ما يدور خارجها. ولن ندخل الآن في جدل عقيم حول اندغام الحضارات وتأثيرها، بعضها على البعض الآخر، فإننا قد نميل إلى حديّة شبنغلر الذي أنكر هذا تماما، وهناك حضارة تسود، وهناك حضارة تموت، والحضارات المتجاورة تتصارع فيما بينها أكثر مما تتبادل المنافع، وللدقة أكثر. هناك حضارة قوية ذات إشعاع، وهناك حضارة أقل قوة تستقبل الإشعاع. القوي يفرض أو يحاول فرض أسلوب قوته ولغة قوته وفن

* كاتب فلسطيني

قوته. كان هيغل تعبيرا عن قوة نابليون، وكان داروين تعبيرا عن استعمارية حكومة جلالتها، تماما كما هو كان رامبو السينمائي سلفستر ستالوني تعبيرا عن فظاظة الإمبريالية وشراستها، كما كان ابن عربي تعبيرا عن وصول «التأويلية» في الإسلام إلى الدرجة الأخيرة في سلم الحفر تحت معنى الألوهية، ولهذا فإن قوة الثقافة تدفعها إلى فرض رموزها وتعميقها بالإقناع والحوار، كما فعلت الحضارة العربية الإسلامية، أو بالجبر والإكراه، كما فعلت الحضارات الأخرى.

هذا الكلام النظري لا يعفينا من السؤال : ما هي مقومات ثقافتنا؟! هل يمكن الكلام عن ثقافة خاصة بنا؟! هل هناك وحدة مصطلح ووحدة مفهوم لهذه الثقافة؟! هل يمكن الحديث عن ثقافة متعددة إلى ثقافة واحدة؟! وأخيرا هل هناك ثقافة عربية إسلامية يتفق عليها الجميع؟! وفي فلسطين.. ما هي الدوافع الثقافية التي تدفعنا إلى البقاء والصمود والمقاومة؟! هذه الأسئلة لا تندفع اليها بفعل هزيمة النظام العربي فقط، فقد طرحت هذه الأسئلة، أيضا، في أوج قوة الحضارة العربية الإسلامية، ذلك أن الحضارات القوية تطرح أسئلتها دائما، ودائما هي مستثارة، ودائما هي محرضة، قادرة على مناقشة ذاتها. هذا هو قدر الحضارات العظيمة، وإذا توقفت أية ثقافة عن طرح الأسئلة فإنها تموت عمليا.

الأسئلة الآنفة الذكر، نطرحها الآن، لأن هناك شرذمة حقيقية في تعريف الوجهة الحضارية للمجتمعات العربية والشعوب الإسلامية، هناك إسلام متعدد، وهناك عروبة متعددة، وهناك تجارب علمانية مختلفة كل الاختلاف، وهناك تجارب إسلامية منغلقة كل الانغلاق، وهناك تغريب وغربة، وهناك تطرف وطرافة، إن شئت، والأهم من كل هذا، هناك تراكمات طويلة وعميقة من الرؤى والاجتهادات المختلفة والمتناقضة للإسلام الأول، بحيث أثمرت اليوم أشكالا وأحزابا وحركات قد تبدو غير مفهومة، أو تبدو تثير الاستغراب. نقول ذلك بعد أن أدى فهم معين للإسلام إلى أحضان الخيانة العلنية، وأدى فهم آخر للإسلام إلى الاشتباك مع الغرب اشتباكا غير متكافىء وهزيمة ساحقة حتى الآن، على الأقل.

ماذا عن الفلسطينيين إذا؟! هل هناك أزمة على هذا المستوى ؟! وما هي المفاعيل الثقافية التي تلعب الدور الأكبر في إذكاء نار المقاومة، والتصدي لهذا العدو الذي يشكل التقطير الأخير للفكر الغربي، مضافا اليه العقد والأوهام والأمراض التاريخية التي يجرها ويحملها شعب يعتقد أنه أفضل شعوب الأرض!

في فلسطين، تجري حقا مواجهة بين عالمين مختلفين، من جهة، هناك العرب والمسلمون الذين يمثلون ثقافة عريضة وغنية وقديمة تعودت التسامح والحوار والوضوح والتعدد، في منطقة تعودت الموزاييك العقدي والعرقي منذ فجر التاريخ، وهناك المحتل الإسرائيلي اليهودي الذي يمثل ثقافة قديمة صاغتها الهواجس والأحلام، تعودت تقديس الجماعة وروح الأسلاف، ورأت العالم مقسوما دون تساو أو تسامح، لا تعترف بالصوت الآخر إلاّ من حيث امكانية استغلاله أواستخدامه. ثقافتان مختلفتان كل الاختلاف، حتى فكرة الإله الواحد، تم الخلاف بشأنها إلى أبعد الحدود، فإذا كان اللّه في ثقافة

هذه المنطقة هو الإله الواحد المطلق، القادر، الرحيم، الذي لا يفرق بين البشر، ويغفر لجميع البشر، نجد الإله لدى المحتل اليهودي ليس إلها للجميع ولا يغفر للجميع، وينحاز إلى إنسان معين ومكان معين.

ولأسباب تاريخية وحضارية نتجاوزها الآن لضيق الوقت، فقد تم تبني المفهوم اليهودي للمسيحية في الغرب، بحيث أصبحت الليبرالية الغربية في أفضل حالاتها غير بعيدة عن ذلك المركب الغريب والخلط العجيب بين المسيحية الغربية واليهودية الشرقية، بحيث تحول اليهودي من ملعون ومطارد إلى رجل مبارك يضيف إلى العالم ما لا يستطيع أحد أن يضيفه، ومن عجب أن يخرج اليهودي من «الغيتو» في المدينة ليحكم المدينة الغربية من خلال دوائر صنع أهم القرارات فيها، إلى الدرجة التي ذكرت فيها بعض كتب التاريخ أن بابوات مشهورين جاؤوا من «الغيتو» هذا.

وعلى هذا، فإن تبني الغرب إسرائيل لم يأت، فقط، من منطلق المصالح والدور الوظيفي الذي ستلعبه إسرائيل، وهذا منطق صحيح، ولكن بسبب العقيدة، أيضا، وهذا ما يتم إخفاؤه لأسباب مختلفة لا نخوض فيها الآن.

ثقافة المحتل الإسرائيلي ومن يدعمه ثقافة أرضية، على الرغم من مشرقيتها، ثقافة تعلي من شأن كل ما يمكن وزنه وقيسه، وهي ثقافة حسيّة لا تتحدث عن العالم الآخر، وهي ثقافة كابوسية يترك فيها المرء وحده، أمام لا وعيه تماما، وهي ثقافة ماضوية الأسلاف، هم الأبطال والأحفاد، هم العصاة الذين سيحلّ عليهم غضب الربّ.

الفلسطينيون الذين طاردهم الذبح منذ ما يزيد على قرن مجبرون على المعرفة كأحد أشكال المقاومة، ومجبرون على الالتجاء إلى ما تمنحهم إياه ثقافتهم من أنماط القوة فيها، كالشهادة والتضحية والالتزام والانتماء، ومجبرون على عدم طرح الأسئلة التي تفرق، والالتفاف حول الإجابات التي تجمع، وقد يكون من دواعي الفخر أن يكون الإسلام السني في فلسطين يقدم أروع النماذج للعالم العربي والإسلامي كلّه في مقاومة الإحتلال.

والفلسطينيون مجبرون على فهم ثقافتهم من مدخلها القوي والناصع، فالنصر لا تصنعه المقولات الرخوة والغامضة، بقدر ما تصنعه المقولات التي تقدم الجزاء.

الفلسطينيون الذين يمارسون حياتهم على هذه الأرض وفي المنافي، الذين يمثلون ثقافة العرب والمسلمين في هذه الألفية الثالثة، مجبرون على مقاومة المحتلّ وثقافته بالالتجاء إلى ثقافتهم التي تمنحهم قوة الفعل وأخذ المبادرة من جهة، وتمنحهم، أيضا، الشعور بالرضى والاكتفاء بسبب ذلك الفعل. الثقافة القوية هي التي تعطي هذا الإحساس للمنتمين اليها.

بعد 11 سبتمبر 2001، من الضروري الإشارة إلى عدم الإنجرار وراء ما يطرح من أقوال باتت غير ذات ضرورة، من أمثال أن الإسلام وسطي، أو أن الإسلام يحارب الإرهاب، وأنه يتقبل الآخر ولا يرفضه، على صحة كل ذلك، ولكن لماذا لا يقال أيضا، مثلا إن الإسلام هو دين العدل وهو دين القوة. وإن العدل في الإسلام درجة يقفز منها إلى الرحمة، وإن الرحمةَ أوسع من العدل. لماذا لا يقال إن الإسلام هزم أكثر من ثلاثة قرون متوالية، وإن الشعوب العربية الإسلامية انتهكت ونهبت وشردت

وسلبت مدة قرون ثلاثة، لماذا لا يقال إن أول استعمار للبلاد العربية والإسلامية بدأ منذ أوائل القرن التاسع عشر ولم ينته حتى الآن؟ لماذا لا يقال إن الإسلام واضح كل الوضوح في القضايا الخلافية؟ ولماذا لا يقال إن الغرب يسعى دائما إلى حشر العرب والمسلمين من سلاحهم في كل مناطق التوتر؟ ولماذا لا يقال إن الغرب يسعى دائما إلى تجريد العرب والمسلمين لفهم واحد ووحيد للثقافة العربية والإسلامية؟ ولماذا لا يقال إن التجارب الأخرى التي يطلق عليها التجارب العلمانية والليبرالية لم تؤد إلى توفير الكرامة والحرية والاستقلال والتنمية للشعوب العربية والإسلامية؟ ولماذا لا يقال إن الشعوب العربية الإسلامية مهانة ومذلّة ومستلَبة على كل الأصعدة؟ ولماذا لا يقال إن الغرب يعيش ويحيا على أنقاض عالمنا العربي والإسلامي وخيراته، وإن الغرب هو مصدر الحركات الإرهابية والعنصرية، وإن الإسلام أبعد ما يكون عن ذلك؟

لماذا لا يقال إن فهمنا ثقافتنا وعروبتنا فهم منقوص وخاطىء وغيز فاعل حتى نبقى مهزومين حتى على مستوى اللغة؟ إن تصريح وزير الخارجية القطري الأخير الذي أطلقه في أمريكا، ومفاده أنه يجب أن نتوسل لأمريكا لتحل قضايانا هو التعبير الأكثر انحطاطا عن هذه الظاهرة.

الفلسطينيون هنا على هذه الأرض، يقدمون الثقافة العربية والإسلامية بأبهى صورها، كيف ذلك؟! إنهم ببساطة يعتقدون أن عناصر ثقافتهم الداخلية والخارجية من القوة، بحيث تتم التضحية بالنفس من أجل كرامة الإنسان وكرامة الأرض، وبحيث يتم ذلك بأقصى درجات الرضى والاكتفاء.

الأمر الأخير، الذي أريد أن أشير اليه، هو ذلك النتاج النخبوي الثقافي من قصة ورواية وشعر ورسم وغناء، فهو تفريغ لجذور أعمق وأعرض، وهذا النتاج النخبوي ليس كل الصورة وانما جزء منها، فقصيدة الشعر لا يتم الاعتراف بها إلا بمقدار اقترابها من ذلك الجذر العميق وفهمها إياه، ومن هنا، فإن العقلية الجمعية أسقطت من ذاكرتها ملايين قصائد الشعر التي قيلت، ولم تبق إلا قصائد قليلة واعترفت بالجذر العميق، وكانت ابنة شرعية له وبرعما صغيرا استمدت النسغ منه.

النتاج النخبوي الثقافي، الرسمي والمعارض، المقبول والمسكوت عنه، هو تفاصيل لعنوان كبير، والجماعة لا تعترف بمن يخالفها، وتسقط من حسابها من يسقطها من حسابه، ولهذا فإن مقاومة المحتل وثقافته لا تتم من خلال نتاج ثقافي غامض، مطاط، يستبدل الأدنى بالذي هو خير، أو نتاج يتنكر لما مضى بما هو حاضر، أو ذلك النتاج الذي ينبهر أو يدعي أو يتضامن أو يخضع أو يدعو إلى ما تدعو إليه الجماعة.

ثقافة أي جماعة هي آلة ماصّة تعيد كلّ نتاج إلى نمط معروف تراكم بفعل الوحي أو بفعل الزمن، فإذا كان هذا النتاج لا يقبل الأنماط المعروفة يتم رفضه إلى أبد الآبدين، وعندما ينفسح الدم في الشوارع بكل هذه الرحشية وهذه العبثية، فإن أعلى أنماط الثقافة وأصدقها وأنصعها هو ذلك الشاب المضطرم بالأنفة والجسارة والألق، الذي يرمي قلبه في كأس النار والنحاس ليستبدل به حوصلة طير أخضر.

الارهاب : مفاهيم... مضامين... وتطبيقات

نواف الزرو *

نقف اليوم على أرضية المتغيرات الدولية الاستراتيجية الجارفة الكارثية المرعبة التي أعقبت عملية التفجيرات المخططة المبيتة الشيطانية في 11 سبتمبر في واشنطن ونيويورك، لنؤكد أن الحاجة إلى طرح ومناقشة موضوع «الإرهاب» باتت أشد إلحاحا من أي فترة سابقة، وأصبحنا نحن العرب في منطقتنا العربية وفي صراعنا العربي - الإسرائيلي في بعده الدولي، أشد حاجة إلى عقد مناقشة عربية أولا ثم دولية ثانيا بالغة الأهمية لمصطلح الإرهاب بتعريفه ومفهومه وتطبيقاته على الأرض بكافة تداعياتها.

فهذا المصطلح اقتحم علينا حياتنا خلال السنوات الأخيرة القليلة الماضية، وبات يهددنا كأمة ودول وشعوب ومنظمات وحركات وجمعيات وكحضارة وثقافة ،تراث وتاريخ، ويبدو أن تداعياته وتهديداته الأكبر آتية في المستقبل القريب أو البعيد والمسألة مسألة وقت...!

وهذا المصطلح الذي انتشر في السنوات الأخيرة كالنار في الهشيم، ونجح في اقتحام الدول والشعوب والبيوت، وفي دب الرعب في النفوس وإثارة مشاعر القلق وعدم الإحساس بالأمان سواء في الحاضر أو المستقبل، يستدعي منا - من أمتنا ودولنا وأنظمتنا وشعوبنا اصطفافا قوميا خاصا متخصصا ليس فقط للتصدي لقضية «الإرهاب»، وإنما الأهم من أجل التمييز ما بين «الإرهاب» وحق شعوبنا في مقاومة الاحتلال، خاصة وإننا نواجه حملات صهيونية مكثفة تستهدف التضليل في المفاهيم والربط ما بين الانتفاضة والمقاومة الشعبية الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيلي وما بين «الإرهاب الدولي».. وما بين المقاومة العراقية المشروعة والإرهاب الدولي أيضا..؟

فما هو المفهوم الحقيقي إذن للإرهاب؟..

وكيف نشأ هذا المفهوم؟..

وماذا تقول الأمم المتحدة في «الإرهاب»؟..

وما دور الإعلام الصهيوني والغربي في تجييش العالم ضد ما يسمى بـ«الإرهاب الأصولي الإسلامي»؟..!

وكيف يعمل الاعلام الصهيوني على دمغ الانتفاضة الفلسطينية بالإرهاب؟..

وما دور الخطاب والإعلام العربي في التصدي له والتعاطي معه؟..

ثم ما المهمات الملحة والعاجلة التي على أمتنا ودولنا أن تقوم بها في المرحلة الراهنة والمنظورة؟..

«الإرهاب» - تعريف ومفهوم

لقد أصبحت مصطلحات «الإرهاب» و «الإرهاب الدولي» و «إرهاب الدولة» تعابير كثيرة وواسعة التداول مع قدر كبير متزايد من الإثارة والجدل حول ابعادها ومضامينها

السياسية والإيديولوجية، وذلك تبعا لتداخل وتقاطع المواقف والمصالح السياسية والاستراتيجية، إذ لم يعد يلتفت كثيرا إلى المعاني اللغوية أو المداولات القانونية لهذه التعابير والمصطلحات، بقدر ما أصبح ينظر لها من زاوية المصالح السياسية والاستراتيجية، شأنها في ذلك إلى حد كبير شأن مبادىء مثل «حق تقرير المصير» و «حقوق وحريات الإنسان» و «حق الدمقراطية وحرية الرأي والتعبير والانتخبا» وغيرها الكثير.

ويمكن القول بادىء ذي بدء أن «الإرهاب»، الذي نتحدث عنه هو «الإرهاب السياسي» تحديدا وهو شكل من أشكال «العنف السياسي» ويقوم بممارسته أفراد أو جماعات أو دول.

ويلتقي هذا التعريف مع أشكال أخرى من العنف السياسي كالحروب والصدامات العسكرية المكشوفة، إلا أننا هنا أمام تعبير له مضمون سلبي، حيث ينسب الإرهاب دائما إلى الآخرين، حيث تبحث الجماعة أو الدولة التي تمارس «الإرهاب» دائما عن مبررات إرهابها فتسعى إلى اتهام الآخر وتحميله مسؤولية «الإرهاب».

ويبدو الأمر واضحا جليا في هذا التجاذب حول تحديد معنى الإرهاب بين قوى الهيمنة والقهر الاستعماري، وبين قوى التحرر الوطني كما نتابع في السنوات الأخيرة في الحالات الأمريكية البريطانية والإسرائيلية في فلسطين والعراق والمنطقة العربية.

«الإرهاب» في مواثيق الأمم المتحدة..؟

لقد أوضحت الأمم المتحدة مفهومها وموقفها من قضية «الإرهاب» وميزت تماما ما بينه وبين حق الشعوب في مقاومة الاحتلال باستخدام كافة الوسائل المتوفرة لديها في سبيل نيل حقوقها التي تنص عليها المواثيق الدولية.

ففي تاريخ 1972/12/18، صدر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار رقم 3034 المتعلق بالإرهاب وأكد على: «إن الجمعية العامة تؤكد من جديد على الحق الراسخ لجميع الشعوب التي ما تزال رازحة تحت نير الأنظمة الاستعمارية أو العنصرية والأشكال الأخرى للسيطرة الأجنبية في تقرير المصير وفي الاستقلال.. وتؤيد الطابع الشرعي لنضالها، وعلى الأخص النضال الذي تخوضه حركات التحرير الوطني وفق منطوق أهداف ومبادىء الأمم المتحدة وقرارات هيئاتها بهذا الشأن».

وفي تاريخ 1974/2/14، اتخذت الأمم المتحدة قرارها رقم 3314 الذي شرّعت فيه النضال الوطني المشروع للشعوب المحتلة حيث جاء فيه: «يحق للشعوب الرازحة تحت نير الاحتلال الأجنبي أن تمارس الكفاح المسلح من أجل حريتها واستقلالها وحقها في تقرير مصيرها».

وميّزت الأمم المتحدة بذلك ما بين حق الشعوب في المقاومة والكفاح المسلح المشروع، وما بين ممارسات واعتداءات وأعمال العنف التي تمارسها سلطات الاحتلال الأجنبي أينما كانت، وكذلك ما بين حق حركات التحرير الوطني في النضال واستخدام كافة الأساليب والوسائل المتاحة لديها من أجل نيل الحرية والاستقلال، وما بين أعمال العنف والإرهاب التي تقوم بها جماعات أو دول أو يقوم بها أفراد.

وبذلك تتضح الخطوط والمعالم الحقيقية لـ «الإرهاب» والخطوط والمعاني الحقيقية لـ «حق الشعوب في

مقاومة الاحتلال».

وتصبح بالتالي الشعوب الخاضعة للاحتلال الأجنبي متمتعة بـ «الحق المعنوي والاخلاقي والإنساني والحقوقي في مقاومة الاحتلال».

ما ينسحب تماما على حالتنا في الصراع العربي ـ الإسرائيلي.

وما ينسحب أيضا على حالتنا في العراق العربي المحتل.

ولكن ما الذي يحدث في حالتنا تحديدا..؟ وما دور الإعلام الصهيوني والغربي في تشويه الحقائق؟..

«الإرهاب» في الإعلام الصهيوني والغربي

المتابعة الحثيثة لدور وتعاطي الإعلام الغربي أولا ثم الإعلام الصهيوني ثانيا مع ما يسمى بـ الإرهاب الإسلامي الأصولي»، تبين لنا «ان الأصولي الإسلامي كظاهرة والإسلام السياسي كتيار كانتا أحد أبرز العناوين التي شدت انتباه الواجهات السياسية والإعلامية والأكاديمية في الغرب على مدى العقدين الماضيين».

سعت وسائل الإعلام الغربية والصهيونية إلى تشويه حقيقة الإسلام السياسي، ووصفه بـ الإرهاب» وتحويله إلى «فزاعة» مصطنعة لاتخاذها ذريعة للعداء والعدوان على دول وشعوب ومنظمات وحركات عربية وإسلامية.

ولقد لعب الإعلام الغربي ومعه الصهيوني دورا هائلا في تشويه وتزييف الحقائق وقلبها رأسا على عقب، وتحويل الحق إلى باطل والباطل إلى حق، والضحية إلى مجرم والمجرم إلى ضحية.

وبغية الصاق تهمة «الإرهاب» بـ «العرب والمسلمين كثف الإعلام الغربي المتصهين حملاته التشويهية مستعينا بذلك بنظريات تتحدث عن صراع الحضارات والأديان مثل نظرية العالم الأمريكي / اليهودي صمويل هنتنغتون الذي يقول ان صراع الحضارات بين الشرق والغرب، وان الصراع الآن بين الإسلام والحضارة الغربية وهو الصراع الذي سيشهد في العصر القادم (الحالي) صراعا رهيبا».

وجاء الرئيس الأمريكي بوش الإبن ليجسد نظرية هنتنغتون عمليا ...

وفي هذا السياق اصبحت وسائل الاعلام الغربية الأداة الرئيسة في تحريض وتجييش الرأي العام الغربي ضد «الإرهاب» العربي والفلسطيني أو الإسلامي المزعوم، وبتنا اليوم في هذه المرحلة الجديدة أمام مخططات تآمرية مبيتة تهدف ليس فقط إلى تهيئة الرأي العام والمناخ الدولي ضد هذا «الإرهاب»، وانما بالأساس إلى «إضفاء» الشرعية الدولية على الحملة أو الحملات الأمريكية / الغربية / الصهيونية الراهنة والقادمة المتوقعة ضد أهداف عربية وإسلامية.

أما عن الإعلام الصهيوني ودوره في هذه الحملات فحدث بلا حدود..؟!

فقد حرص الإعلام الصهيوني الذي يسيطر وفق مقتضيات غربية على وسائل الإعلام الغربية على جعل «الإرهاب» يرتدي ثربا عربيا وإسلاميا، كما سعى ذلك الإعلام إلى صنع «إرهاب» يرتدي ثوبا فلسطينيا خالصا، في محاولة بائسة من جانب دولة الاحتلال الرسرائيلي لتجريم الفلسطينيين بـ «الإرهاب وأعمال العنف» من جهة، ولاضفاء الشرعية الدولية على الحرب العدوانية

والجرائم التي تقترفها قوات الاحتلال ضد أبناء الشعب العربي الفلسطيني من جهة ثانية.

ويتلاقى الاعلامان الغربي والصهيوني في الحملات التحريضية ضد العرب والمسلمين، وفي تشويه الحقائق، وتحويل الحق إلى باطل والباطل إلى حق والضحية إلى إرهابي والإرهابي إلى ضحية.

في هذا الصدد كان تشارلز يوست ممثل الولايات المتحدة في الأمم المتحدة سابقا قد صرح قائلا: «ما هو القصف الجوي؟ حينما قام النازيون بقصف وارسو وروتردام وكوفنتري أسميناه قصفا إرهابيا، اما حينما نقوم بقصف شمالي فيتنام أو جنوبه فاننا نسميه رد فعل وقائيا أو دفاعا عن النفس، رغم اننا نقتل في قصفنا عددا أكبر من الناس..».

وأضاف يوست: «أنه يوجد قدر كبير من النفاق بشأن موضوع الإرهاب، فنحن «الاخيار» ندين الإرهاب حينما يقوم به «الأشرار»، أما حينما نقوم به نحن «الصالحون» ضد «الطالحين» أو عندما يقوم اصدقاؤنا «الخيرون» عندئذ نسميه دفاعا عن العالم الحر أو تحريرا أو شرفا وطنيا، فالإرهاب هو ما يفعله خصومنا».

لقد استثمرت ماكينة الإعلام الإسرائيلي/الصهيوني هذه المصطلحات والمفردات المضللة وتمادت وتمادت وتوسعت في هذه الانتفائية التحريضية، فاصبحت كافة مصطلحات ومفردات القاموس السياسي والإعلامي / الإسرائيلي/الصهيوني لا تتحدث عن الانتفاضة الفلسطينية وأنشطة المقاومة والاحتجاجات الفلسطينية على اختلافها ضد قوات ومستعمري الاحتلال إلا بوصفها «أعمال عنف وإرهاب»، بل ان عددا من أبرز قادة الكيان الإسرائيلي مثل شارون وموفاز ويعلون أعلنوا الحرب على الشعب الفلسطيني كله بوصفه «كيانا ارهابيا يجب القضاء عليه».

ونتساءل أين دور الإعلام العربي من كل ذلك...؟!

بينما تثبت المعطيات والوقائع حقيقة كبيرة ملموسة تتمثل في «ان الماكينة الإعلامية الغربية تسيطر عليها اللوبيات التي تتغلغل في كافة وسائل الإعلام الغربية، وعلى وجه خاص في الولايات المتحدة، وهناك دراسات كثيرة ظهرت أبرزها كتاب «الخداع» لبول فندلي يتحدث فيه عن سيطرة ايباك داخل الولايات المتحدة وعن الهيمنة على الماكينة الإعلامية الخطيرة... وبينما نتابع كيف تستطيع دولة الاحتلال الإسرائيلي تجنيد الإعلام الغربي إلى حد كبير مذهل وراءها ووراء حملاتها الموجهة ضد «الإرهاب العربي» أو «الإرهاب الإسلامي» أو «الإرهاب الفلسطيني»، نرى ان الاعلام الرسمي العربي يغيب الى حد كبير في هذا الإطار، ما يدفعنا للتساؤل حول أهم ملامح الدور الإعلامي العربي في التعاطي مع والتصدي لعملية الخلط المبرمجة ما بين مفاهيم ومضامين وأبعاد «الإرهاب»..؟ خاصة ونحن نواجه في هذه المرحلة حربا إسرائيلية شاملة إبادية سياسية ضد الفلسطينيين وتشويه انتفاضتهم وتجريمهم بتهمة «الإرهاب»؟!!.

لعلنا نثبت أولا وقبل كل شيء في مناقشتنا لدور وسائل الإعلام العربية في التصدي لقضية الإرهاب، إن الإعلام العربي لا يشكل وحدة متسقة متناسقة، ولا يوجد إطار عام يجمع وينسق ما بين وسائل الإعلام العربية، كما

تغيب وتغييب الخطة الإعلامية العربية الاستراتيجية واضحة الخطوط والمعالم والأهداف...

علاوة على ان الإعلام العربي لا يجمعه خطاب إعلامي واحد، وان كان ذلك متعذرا فذلك لان هذا الإعلام «يتأثر كثيرا بنمط الدولة وخطابها ويتأثر كثيرا بوكالات الأنباء الأجنبية التي تغمره على مدار الساعة بكم هائل من المعلومات المدججة بالسموم، لدرجة اننا أحيانا نترجم الأمور بشكل حرفي ونشتم أنفسنا دون أن ندري ونتكلم عن أنفسنا بصورة ليست كريمة نتيجة سوء الترجمة أو سوء اختيار الأخبار».

ما يجعلنا نستنتج ان الإعلام العربي إلى حد كبير إلى تدخلات الدولة وسياساتها الرسمية وغير قادر على نقل الأحداث وتحليلها بصورة مهنية واستقلالية.. فهو امتداد للدولة، فطالما ان الدولة لها خطابها وشروطها والتزاماتها، فان إعلامها أيضا يكون ملتزما بكل ذلك، والحديث عن الإعلام في دولنا العربية لا ينفصل عن الحديث عن السياسات الرسمية العربية.

أما ونحن اليوم نواجه مرحلة عصيبة وانعطافية وخطيرة، وربما تكون الأخطر في تاريخ الأمة والصراع العربي ـ الإسرائيلي، وطالما أن العنوان الكبير لهذه المرحلة، هو الحرب على «الإرهاب الدولي»، وطالما أننا نشهد محاولات إسرائيلية/صهيونية محمومة لاتهام الفلسطينيين والانتفاضة بـ «الإرهاب»، فإنه يتوجب على إعلامنا العربي على أقل تقدير ان يقوم بواجباته ومسؤولياته القومية الملحة في التصدي لعملية الخلط المنهجية، ما بين الانتفاضة وفصائل المقاومة الفلسطينية، والمقاومة العراقية وغيرها، وما بين الإرهاب الدولي، ولعل في مقدمة المهمات العربية العاجلة : المطالبة الملحة بعقد مؤتمر دولي لمعالجة قضية «الإرهاب» معالجة شاملة، يتم في إطارها تعريف مصطلح «الإرهاب» وتحديد مفهومة، مضامينه وترجماته على الأرض، كما يتم وهذا الأهم التصدي لعملية الخلط بين «الإرهاب» وحق الشعوب العربية في التصدي للاحتلالين الإسرائيلي/الصهيوني والأمريكي في فلسطين والعراق.

وفق المؤشرات الدولية المتعلقة بالحملة الحربية الأمريكية/الغربية/الدولية ضد «الإرهاب العالمي» ووفق تصريحات واشارات عدد من المسؤولين الأمريكيين، وحسب استنتاجات جملة لا بأس بها من التحليلات والتقديرات، فان هذه الحملة تستهدف منطقتنا العربية فقط، وتستهدف عناوين فلسطينية وعربية وإسلامية بتهمة «الإرهاب»، بل ان هناك محافل فلسطينية وعربية كثيرة كانت قد وضعت أياديها على قلوبها، وأبدت تخوفات من احتمالية أن تقترف دولة الاحتلال الإسرائيلي جرائم حرب إرهابية مروعة ضد الفلسطينيين، بهدف القضاء على الانتفاضة والطموحات الوطنية الاستقلالية الفلسطينية، تحت مظلة تصنيف حركات فلسطينية بقائمة «الإرهاب»، وتحت ذريعة ان من حق إسرائيل الدفاع عن نفسها أمام الإرهاب الفلسطيني، وهذا ما حدث ويحدث عمليا على الأرض الفلسطينية.

تطبيقات ـ في فلسطين والعراق

وانتقالا من النظرية إلى التطبيقات على الإرض في

فلسطين والعراق نتابع المشهد التالي :

على الطريقة الإسرائيلية مع الفلسطينيين تماما، تتبنى الإدارة الأمريكية خطابا إعلاميا ـ سياسيا تضليليا تجاه العارق، فكما تشن الدولة الإسرائيلية حربا شاملة لا هوادة فيها، ترمي إلى خلط الأوراق والحقائق وقلبها رأسا على عقب، وتحويل النضال والانتفاضة الفلسطينية إلى «إرهاب» و «عنف» يبرر ويسوغ «حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها» والقضاء على «الإرهاب» الفلسطيني على طريق تحقيق هدفهم الاستراتيجي الكبير بالاجهاز على المشروع الوطني الاستقلالي الفلسطيني والغاء الآخر ـ الشعب الفلسطيني ـ سياسيا وحقوقيا، كذلك تستلحم الإدارة الأمريكية موظفة كافة أسلحتها وأجهزتها ونفوذها وبلطجتها وسماسرتها في الداخل العراقي والعربي وخارجه بغية تزييف الحقائق وتغيير مسار الأمور، وتحويل المقاومة والانتفاضة الشعبية العراقية العارمة في وجه الاحتلال إلى «إرهاب» و«قاعدة» و «خروج على القانون» وأي قانون..؟

وكما في الملف الفلسطيني احتدم الجدال الفلسطيني والإسرائيلي والعربي والدولي حول الانتفاضة والمقاومة، كذلك في الملف العراقي تسعى الإدارة الإمريكية إلى تجنيد أكبر حشد وتأييد عربي ودولي ممكن وراء مزاعمها وأكاذيبها بشأن المقاومة العراقية التي تسعى إلى إلباسها ثوب الإرهاب والقاعدة والزرقاوي...

فإذا كانت تلك الإدارة حسب تقرير «معهد كارنغي الأمريكي» قد لجأت إلى الخداع والتضليل في قضية أسلحة الدمار الشامل العراقية، وإذا كانت «الحرب على العراق وأجهزة ولجان وهيئات البيت الأبيض» قد تحولت بهذا الشأن إلى مصنع للأكاذيب ـ كما جاء في تقرير أمريكي شامل ...

وإذ كان حتى الرئيس بوش نفسه قد اعترف قائلا : «الأسلحة التي ظننا إنها في العراق لم نعثر عليها» فان عملية ضخ الاكاذيب والتلفيقات وتزييف الحقائق بشأن المقاومة والانتفاضة العراقية تأخذ مسارا أوسع نطاقا وأشد خطرا على العراق والعرب والإسلام.

فالحملة الأمريكية المسعوره لتحويل العراق الى «قاعدة ومنطلق للإرهاب» و «تحويل المقاومة والانتفاضة العراقية إلى «زعران» وعصابات ومافيا رمتسللين إرهابيين» و «خارجين» على القانون تحمل في أحشائها مخططات أمريكية وصهيونية معا ترمي إلى اغتيال الوطن والاستقلال العراقي اغتيالا استراتيجيا إلى أبد الآبدين (وان كانت هذه المخططاتوتحقيقها ليست قدرا محتما لا راد له).

فعندما أعلن بوش أمام جنوده في بغداد خلال الزيارة الارسين لوبينية التي قام بها يوم 2003/11/27 قائلا : لم نغز العراق ، لم ندفع ثمنا باهظا في الأرواح ولم نهزم الطاغية لنحرر 25 مليون عراقي، فقط للانسحاب من وجه الزعران إنما كان يقصد ان يقول في الجوهر والمضمون: إننا قد جئنا بسبب أسلحة الدمار الشامل وسنبقى بسبب الإرهاب.

وكما قال معلق إسرائيلي في هذا الشأن: إن هذا الشعار الذي سعت إليه إسرائيل جاهدة من اجل تكريسه قد تحول إلى سياسة عند بوش، ولكن ليس بالنسبة للعراق

فقط ، إذ أن الرئيس الأمريكي يتبنى القاموس الإسرائيلي في عملية السلام المحلية تسفى بارئيل – هآرتس 2003/11/30.

وهذا ليس صدفة او عبثا على الإطلاق، فهناك صهاينة ينظمون فريق التخطيط الأمريكي في هذا الصدد ومنهم هارولد رودو وولفويتز وبيرل وفيث وغيرهم، وهناك عملية شورنة للسياسة الأمريكية تجاه المنطقة حسب شهادة إسرائيلية في هآرتس 2004/4/8 لدرجة ان بوش أصبح يبيت في سرير شارون حسب الرئيس الأسبق كارتر ولدرجة انه تبنى أساليب شارون – موفاز – يعلون كما جاء في شهادة هآرتس ولدرجة ان الجيش الأمريكي مثلا أصبح يعمل في العراق كجيش إنقاذ لإسرائيل – و يفكك تدريجيا التهديدات العسكرية المحيطة بإسرائيل ويقدم لها ركيزة استراتيجية لم يسبق لها مثيل.

ولذلك ليس عبثا ان هذه الانتفاضة العراقية الأخيرة أخذت تقلق المؤسسة الأمنية والاستراتيجية الإسرائيلية، فقد اجمع كبار الجنرالات والباحثون الاستراتيجيون ونخبة المحللين في الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية على إن نتائج المعركة الدائرة في العراق ستؤثر على إسرائيل وعلى منسوب الأمن في المنطقة خلال السنوات القادمة.

غير أن الدولة الصهيونية لا تكتفي بطبيعة الحال والمصلحة بالمشاركة العملية في غزو العراق والتغلغل في مؤسساته، بل إنها تساهم أولا وقبل كل شيئ في بث الأكاذيب وتزييف الحقائق والتنظير الخبيث للحملة على الإرهاب المزعوم.

ولعل ما ادلى به جنرال الحرب شاؤول موفاز في لقاء له مع صحيفة يديعوت احرونوت، انما يكثف في الحقيقة مفاهيم ونظريات وابعاد الإستراتيجية الإسرائيلية تجاه العراق فقد تمنى موفاز النجاح للأمريكيين في العراق لان نجاحهم حيوي للسلام في العالم وأضاف ان أميركا قوية وستتمكن من إحباط أي محاولة لتحويل العراق الى دولة ارهابية وحذر مؤكدا تصوروا إذا اضطر الأمريكيون لمغادرة العراق تحت ضغط الارهاب فسيقام نموذج عربي جديد وخطير وسيظهر مجددا محور الشر وسيكون قادرا على تعريض السلام العالمي للخطر.

وكان كتاب أسلحة الخداع الشامل لمؤلفيه شيلدون رامبتون و جون ستاوبر الذي أحدث ضجة كبيرة قد فضح هذه المضامين والنوايا الأمريكية– الإسرائيلية الشريرة حينما أشار إلى ذلك المخطط الشيطاني الرامي إلى تحويل العراق إلى قاعدة للقاعدة والإهاب الدولي كي تصبح مهمة بناء العراق مهمة صعبة وطويلة ومفتوحة في ظل التهديد الإرهابي المستمر ، ولعل الأخطر في هذا السياق أيضا هو ذلك المخطط الشيطاني الرامي إلى إثارة وتع ميم مشاعر الخوف والفزع لدى الرأي العام الأمريكي والأروبي و العالي من الإرهاب العربي والإسلامي الأمر الدي قد يحول – ليس المقاومة العراقية فقط – بل كل عربي و كل مسلم إلى مشروع إرهابي كما يبيتون.

امبراطورية الخداع والإرهاب وجرائم الحرب

ونقول في سياق هذه القراءة المكثفة : ها نحن اليوم أمام الولايات المتحدة العظمى التي تحولت بامتياز وبالاجماع

العربي والدولي إلى حد كبير من «فائدة المحور الخير» المزعوم، إلى «قائد لمحور الشر والإجرام»، وغدت بجدارة عالية جدا امبراطورية الخداع والكذب والتضليل... وامبراطورية الغطرسة العسكرية والنووية... وامبراطورية الإرهاب الشامل المرعب : إرهاب الولايات المتحدة العظمى المدججة بترسانة أسلحة التدمير الشامل والإبادة الجماعية... وامبراطورية القتل والفتك والدم والدمار والمجازر الجماعية والفردية وجرائم الحرب الشاملة المتنوعة المستمرة التي الحقت وتلحق الأذى والخراب والدمار بكل مدينة وقرية عراقية.. وبكل بيت وعائلة عراقية... ناهيك عن التدمير والتفكيك والإلغاء الشامل مع سبق التخطيط والتبييت والرصرر الإجرامي لكافة البنى التحتية والفوقية التي تشكل الدولة العراقية... تتحول الولايات المتحدة بذلك إلى ثلاث امبراطوريات في امبراطوية واحدة.

أولا : امبراطورية الخداع الشامل

فعلى صعيد الخداع الشامل بمضامينه وعناصره الثابتة مثل الكذب والتضليل والتلفيق وتزييف الحقائق وقلب الأمور وتحويل الحق إلى باطل والباطل إلى حق فإن الادارة المريكية الحالية تفوز بالمرتبة الأولى على المستوى الدولي وبجدارة عالية لا نظير ولا منافس لها.

ففي الجوهر والمضمون والأداء، لم يشهد تاريخ الحروب البشرية على الاطلاق حربا عدوانية استعمارية طاغية مدججة بكم هائل من الأكاذيب والذرائع المقبركة الملفقة التضليلية كما الحرب الاستعمارية الامريكية على العراق. بل يمكن القول ان هذه الحرب كانت منذ بداياتها الأولى عبر مسارها الطويل وتفاصيل الغزيرة... وصولا إلى نتائجها الإجرامية... واستمرار إلى تداعياتها الراهنة والمحتملة عبارة عن خداع شامل للعالم كله...

ويمكن الذهاب ابعد من ذلك بالاستنتاج الموثق إلى حد كبير، إلى ان كل قصة الإرهاب الدولي وتدمير الأبراج الأمريكية وصولا إلى التفجيرات الإرهابية ضد المؤسسات المدنية في العراق وتركيا ومدريد وغيرها هي أيضا مدبرة بأحكام مذهل من قبل الموساد والمخابرات الأمريكية حتى وان كانت أداة التنفيذ عربية وإسلامية وذلك بغية تجريم الفلسطينيين والعرب والإسلام بالإرهاب الدولي.

ولعل من أهم واخطر فصول أسلحة الخداع الشامل هو ذلك المخطط الشيطاني المرعب الرامي إلى إثارة مشاعر الخوف والفزع من الإرهاب العربي والإسلامي تمهيدا لتحويل كل عربي وكل مسلم إلى مشروع إرهابي لدى الرأي العام الأمريكي والعربي والدولي، من أجل تحقيق الهدف الاستراتيجي الأمريكي الكبير في المنطقة وهو: الإغتيال الاستراتيجي الشامل لأمة والدول العربية ... وضربها وتفكيكها وتدجينها بغية إعادة صياغتها وتشكيلها في إطار مشروع الشرق الأوسط الكبير أو الاكبر تكريسا للهيمنة والمصالح الاسترتيجية الأمريكية والإسرائيلية معا.

لقد أوغلت الإدارة الأمريكية بصورة مرعبة في خداعها الشامل واكاذيبها وتلفيقاتها اتجاه العراق وفي قصة أسلحة الدمار الشامل تحديدا فتحولت حربها الاستعمارية العدوانية على العراق من أجل تحرير الشعب

العراقي، ونشر الديمقراطية في العاق لتكشف نموذجا لشعوب العرب والشرق الأوسط.

وتصل الإدارة الامريكية ذروة خداعها وكذبها في هذه الأيام بالادعاء بأن هذه الانتفاضة الشعبية العراقية المسلحة ضد الاحتلال انما هي عبارة عن مجموعات من االرهابيين والمتسللين الذين «لن تسمح لهم الولايات المتحدة بان يحبطوا الديمقراطية والحرية الأمريكية في العراق» كما أعلن بوش نفسه قبل أيام.

ثانيا : امبراطورية الإرهاب

... وترتقي الولايات المتحدة أيضا ـ إلى جانب الدولة الصهيونية إلى مستوى «امبراطورية الإرهاب رقم 1 على وجه الكرة الأرضية» وإلى «الدولة الأخطر على السلام والأمن العالمي» والى «الدولة الخارجة على كل القوانين والمواثيق الدولية رقم 1 على صعيد الدول والأمم».

فليس هناك عمليا على امتداد المساحة الأممية / الدولية دولة تتجاوز كافة المواثيق والأعراف الدولية وتعتبر نفسهل فوق المساءلة والمحاسبة وفوق القوانين الدولية سوى الولايات المتحدة العظمى (والى جانبها «إسرائيل» العظمى)».

وليس هناك أيضا من دولة تمارس الإرهاب الشمولي وإرهاب الدولة على أرسع وأشرس نطاق سوى الإمبراطورية الأمريكية العظمى...

فمنذ أن أعلن الرئيس بوش «ان ليس من معنا فهو ضدنا» و «ان ليس مع محور الخير فهو مع محور الشر» و «ان استراتيجية واشنطن ستهدف الى منع تنفيذ مخاطر الإرهاب الدولي، من خلال إطلاق ضربات وقائية ضد أعدائها المحتملين لاحظوا...».

وهؤلاء الأعداء تجمعوا واختزلوا بقدرة قادر في العراق وبعض الدول العربية... فيا للعجب... ويا للذهول.

تتمادى الامبراطورية الأعظم والأقوى على وجه الكرة الأرضية فياستخدام ذروة القوة وكا مل في ترسانة أسلحة التدمير الشامل لديها ضد العراق الوطن والدولة والنظام قبل عام من أجل تحرير العراق والشعب العراقي، وتتمادى اليوم أكثر من عام على احتلال العراق الذي جاءت من وراء البحار لتمريره ودمقرطته، في استخدام أسلحة التدمير الشامل والقتل الجماعي نفسيها ولكن هذه المرة ضد نساء وأطفال وشيوخ الشعب العراقي... تصوروا؟!

وكل ذلك تطبيقا مكثفا بالغ الاجرامية لإرهاب الأقوياء «إنها ستيريا الإرهاب الأمريكي تنطلق في هذه الزيام بلا أية كوابح أو روادع أو أخلاق أو قوانين أو مواثيق أو أعراف دولية..

ثالثا : امبراطورية الإبادة الجماعية وجرائم الحرب

... وفي هذه الأيام تطلق القيادة العسكرية الأمريكية على عملياتها الحربية في قلب المدن العراقية وخارجها مصطلحات عجيبة غريبة تبدأ بـ «الإعصار 1» ثم «الإعصار 2» ثم «الحل الحذر في الفلوجة» فـ «العدالة الحديدية».

فإذا كان «الحل الحذر» في الفلوجة يعني استخدام كل الأسلحة الخفيفة والمتوسطة والثقيلة الأمريكية ضد النساء والأطفال والشيوخ والمصانع والمنشآت والجوامع والبيوت لتدمر على رؤوس ساكنيها كما شاهدوا العالم كله، فما هي المضامين الحقيقية إذن لكل

المصطلحات الحربية الأخرى، وخاصة، وهنا نضع خطوط مشددة تحت «العدالة الحديدية»؟!

كي لا يتوهم أو يتوه أحد عن المعنى الحقيقي للعدالة الحديدية الأمريكية والعمليات الحربية المرعبة من أجل التحرير والحرية والديمقراطية العراقية، فإن «العدالة الحديدية» لا علاقة لها على الإطلاق بكل مضامين الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، ذلك ان الترجمة العملية لهذه العدالة هي تلك القذائف والصواريخ الثقيلة ذات التدمير الشامل والإبادة الجماعية التي تنهال على رؤوس العراقيين على مدار الساعة وبالبث الحي والمباشر... انها العدالة التي تترجم على أرض بغداد والفلوجة وتكريت ويعقوبة والرمادي.. وعلى أرض الصدر والنجف والكوفة والكوت، بتلك العمليات والاجتياحات الحربية الآتية من كل الجهات.. وتترجم بهذه المجازر الجماعية التي تقترف ضد الأطفال والنساء قبل الرجال بلا رحمة وبلا روادع... وتترجم كذلك بالعقوبات الجماعية التنكيلية المجنونة بحق كل العراقيين وكل المدن والقرى والأحياء والبيوت، وحتى الشجر والحجر لم تسلم منها...!

ان ما يجري على أرض العراق باسم العدالة الحديدية والحرية والديمقراطية إنما هو تدمير شامل لكل مقومات الدولة العراقية، واغتيال شامل لمعالم الوطن العراقي، وذبح جماعي لأبناء الشعب العراقي.

ان ما يجري على أر ض بلاد ما بين النهرين إنما هو «هولوكست عراقي مكثف» يفوق كل حدث عبر التاريخ من مجازر وإبادات جماعية للدول والشعوب.

والطامة الكبرى الرهيبة.. والجريمة ربما الأكبر والأخطر ان هذا «الهولوكوست العراقي الرهيب»يقترف بالبث الحي والمباشر دون أن يتحرك المجتمع الدولي، ودون أن تتحرك المنظمة الدولية... ودون أن يرف لأحد جفن..

والأخطر من كل ذلك.. ان هذا «الهولوكوست العراقي المرعب» يقترف على مرأى من الدول والأنظمة والقيادات والشعوب العربية دون أن يتداعى الجسم العربي لإنقاذ العراق، بل ان الأمور وصلت إلى مستوى الفرجة واللامبالاة الكارثية الحزينة المخجلة...

ان الشعب العراقي يسطر ملاحم بطولية عظيمة ويقول في هذه الأيام كلمته ويسمع صوته عاليا ضد امبراطورية الخداع والكذب والإرهاب وجرائم الحرب.. بانتظار أن تقول الدول والأنظمة والشعوب العربية كلمتها، وأن تعلن لاءاتها لهذا الإرهاب والطغيان الأمريكي...

فليس هناك عمليا ما يمكن أن يوقف بلدوزر «العدالة الحديدية» الأمريكية الطافحة بالإرهاب والمجازر الجماعية وجرائم الحرب البشعة... وليس هناك ما يحبطها سوى عدالة المقاومة وحق أهلنا في العراق وفلسطين في اللجوء اليها على أوسع نطاق ممكن وبدعم وتضامن وتلاحم عربي قومي وإسلامي حقيقي وجاد ومسؤول وعلى أوسع نطاق ممكن أيضا..

جوقة الإرهاب في العراق

وفي الآونة الأخيرة تحت فزاعة «الإرهاب الدولي الذي أخذ يتجمع في العراق على حد تصريح بوش فان هذا الذي تقوم به قوات الاحتلال هناك إنما هو «بالتعبير المكثف» عملية اغتيال استراتيجي شامل للوطن العربي.

فبعد ان جاءت قوات الغزو إلى أرض العراق من وراء

البحار تحت شعارات كبيرة مخادعة مثل «أسلحة الدمار الشامل» و «تحرير العراق والشعب العراقي» و «جعل العالم أكثر أمنا» وغيرها فان مؤسسة الاحتلال اليوم تعلن صباح مساء ان قوات التحالف ستبقى على أرض العراق حتى يتم القضاء على «الإرهاب الدولي» الذي يتجمع ويحتشد في العراق تصوروا..؟

ولكن هذا «الإرهاب الدولي» كما هو واضح ملموس هلامي متحرك لا يمكن حصره ومحاصرته والإجهاز عليه، وليس هناك بالأصل مثل هذا «الإرهاب» هناك على أرض العراق، وحتى لو وجد فليس هناك نوايا حقيقية لدى قوات الغزو لاجتثاثه، فهذا «الإرهاب» هو الفزاعة وهو المبرر الدائم المتجدد لبقاء تلك القوات.

وهناك جوقة كاملة متكاملة تمتد من البيت الأبيض وتمر عبر تل أبيب، لتتجمع وتتكثف في بغداد، يمكن أن نطلق عليها ان جازت التسمية «جوقة الإرهاب» التي تقوم بنشر وتسويق قصص «الإرهاب» و «المتسللين الأجانب» و «الجماعات الإسلامية» و «خلايا القاعدة» مع التركيز المكثف المنهجي في الآونة الأخيرة على تلك الفزاعة الوهمية التي يطلق عليها «أبو مصعب الزرقاوي» الذي ينتشر انتشارا هلاميا في الفلوجة وكل أنحاء العراق، والذي تنسب اليه كل العمليات التفجيرية ضد المدنيين العراقيين والأهداف المدنية الدولية الأخرى، وكذلك عمليات قطع الرؤوس للرهائن ثن تصر «جوقة الإرهاب» تلك اصرارا غريبا عجيبا على تغذية ونشر صورة الإرهاب الزرقاوي وعلى وصم المقاومة العراقية المشروعة بـ «الإرهاب الزرقاوي» أيضا ونعتقد انها - أي الجوقة - ستبقى تعزف على هذه النغمة حتى لو انخرط الشعب العراقي كله على امتداد مساحة العراق في المقاومة، وحتى لو انتقلت أرض العراق كلها تحت زقدام الاحتلال.

فعندما تصر الإدارة الأمريكية على «الربط بين نظام صدام حسين والقاعة» وعلى الربط أيضا بين المقاومة العراقية و «الإرهاب الزرقاوي» وعلى «ان قوات الاحتلال ستبقى على أرضالعراق إلى أن يتم القضاء على الإرهاب» فان خطوط المعادلة تغدو واضحة تماما.

أعلنت اللجنة الأمريكية المستقلة التي تحقق في احداث سبتمبر 2001 «انه لا يوجد دليل يدعم مزاعم وجود علاقة عمل بين صدام والقاعدة ولكن رغم ذلك يسارع كولن باول الى الإعلان «ان النظام العراقي السابق كان على علاقة بتنظيم القاعدة خلافا لما اعلنته لجنة التنسيق الأمريكية» ولتتبعه كوندوليزا رايس ايضا مؤكدة «انها مقتنعة بان الرئيس العراقي السابق كان مرتبطا بشبكة الإرهاب الدولية» ثم ليأتي بعدها بوش ليعلن ويصر على «ان الرئيس العراقي المخلوع صدام حسين كانت له صلات مع تنظيم القاعدة».

في هذا السياق دائما هناك أصابع إسرائيلية/موسادية ضالعة متورطة إلى أبعد الحدود، فها هي مصادر عسكرية إسرائيلية رفيعة تؤكد قس صحيفة معاريف العبرية مثلا «أن القوات الأمريكية في العراق تواجه القاعدة التي حولت العراق إلى ساحة المواجهة الرئيسية ضد الولايات المتحدة وتواجه أوساطا إرهابية أخرى موالية للرئيس العراقي السابق صدام حسين وأوساطا إيرانية تعد بنى تحتية، للإرهاب، كما تمكن سوريا حزب

الله من المساهمة الناشطة بالعمليات في العراق».

غير أن الأشد خطورة حسب المؤشرات العلاوية قادم، حيث طلب علاوي من وزارة الدفاع إعداد خطة محكمة لدخول الفلوجة.

واعتبرت اللجنة الأمنية للحكومة العراقية «أن الأمن لن يستتب في العراق، ما لم يجر تطهير الفلوجة من عناصر تنظيم القاعدة بزعامة أبو مصعب الزرقاوي».

عجزت الحملة الحربية الأمريكية الأخيرة قبل أشهر والمدججة بترسانة أسلحة التدمير الشامل عن إخضاع المقاومة الشعبية فيالفلوجة، لتأتي الحكومة المعنية لتعلن اليوم عن خطتها «تطهير الفلوجة من تنظيم الزرقاوي» وهذه المرة بأيد عراقية؟!!

فهل هناك سقوط أشد خزيا وعارا وهوانا من ذلك؟!!

غير أن الزرقاوي كما ثبت حتى الآن هلامي ومنتشر في المدن العراقية كلها وسيبقى كذلك طالما هناك حاجة أمريكية لذلك، ولن يقتصر التطهير على الفلوجة.

فتحت فزاعة القاعدة والزرقاوي، وتحت ستار العمليات الإرهابية وسياسة قطع رؤوس الرهائن الأجانب ستواصل جوقة الإرهاب تسويق الحرب والجرائم الأمريكية في العراق.

إلى أن يأتي يوم الهزيمة الشاملة للمشروع الاستعماري الأمريكي في العراق والمنطقة.

ولذلك.. وفي ضوء معطيات المشهد المشار اليه، نستخلص بمنتهى الوضوح أن هذه الحملة الأمريكية المسعورة تحت شعارات «الديمقراطية» و «حقوق الانسان» و «الحريات العامة» و «تحرير الشعب العراقي» وغيرها، إنما هي كليشيهات كاذبة ومخادعة وتضليلية..

وأن كل قصة الإرهاب الدولي، و «القاعدة» و «جماعة أبو مصعب الزرقاوي في العراق» إنما هي أيضا «فزاعات» كاذبة يراد من ورائها خداع الرأي العالم كله، وتسويق الخطاب الأمريكي الاستعماري بأن قوات التحالف ستستمر في العراق لمحاربة الإرهاب الدولي الذي أخذ يتجمع هناك على أرض العراق...

وما الغارات التدميرية الأمريكية على منازل في الفلوجة تحت ذريعة أن عناصر من جماعة أبو مصعب الزرقاوي تتجمع هناك، تلك الغارات التي أسفرت عن مجازر دموية جماعية/بالجملة/سوى نموذجا على ذلك/

ما يستدعي في الاستخلاص وقفة مراجعة تقييمية حقيقية وجادة لدى المثقفين والإعلاميين على نحو خاص جدا لاعادة صياغة الخطاب العربي والأولويات العربية الحقيقية والمنطقية في قصة «الإرهاب» من بداياتها إلى نهاياتها.

وما يستدعي من الأمة والدول والأنظمة العربية يقظة ونهضة جديدة في مواجهة ما هو آت على الأمة؟!!.

المراجع :

1 ـ عبد الحسين شعبان، إشكالية الإرهاب في العلاقات الدولية بين النظرية والتطبيق، مجلة العلاقات الدولية، العدد 20.

2 ـ أسامة الغزالي : الإرهاب الدولي، مشكلات التحرير والثورة في العالم الثالث.

3 ـ عبد الله سليمان، الإرهاب والقانون على الصعيد الدولي، مجلة الفيصل، مجلد 13، العدد 154.

4ـ كتاب: الإرهاب الدولي، للدكتور عبد العزيز مخيمر عبد الهادي، القاهرة.

5ـ كتاب: «إرهاب إسرائيل المقدس»، تأليف ليفيا روكاخ.

6ـ ملف الدستور السياسي، تاريخ 1996/5/5،

7 ـ البروفيسور يسرائيل شاحك «الأهداف المستمرة للسياسات الإسرائيلية في الشرق الأوسط، صحيفة الرأي الاردنية، 8، 9، 10//1996/7 وكذلك كتاب «التاريخ اليهودي والديانة اليهودية».

8ـ كتاب: «الثورة» لمناحيم بيغن.

9 ـ كتاب: آين بلاك وبني مورس: «حروب إسرائيل السرية».

10 ـ كتاب: د. حنا عيسى، صحيفة القدس المقدسية، 1996/5//1.

11 ـ كتاب: شيلدون رامبتون وجون ستاوبر «أسلحة الخداع الشامل».

12ـ الصحف العبرية كما هو وارد في البحث.

*** كاتب وباحث سوري في شؤون الصراع العربي الإسرائيلي.**

المقاومة والمشروع النهضوي العربي

زهير توفيق

تفترض هذه المقالة أن المشروع النهضوي العربي وجد نفسه من حيث المبدأ محاطا بالأعداء في الداخل والخارج، وما كان عليه إلا أن يصد الجبهتين و «ينتصر» عليهما كشرط أولي لتحقيق ذاته والتحول من عالم الوجود إلى عالم الفعل، لهذا لم يتعرف العرب على مشروعهم إلا مشروعا مقاوما بغض النظر عن مستوى المقاومة وأدواتها ووسائلها وقواها المحركة، فالانتصار واحتواء القوى المعيقة والمضادة للمشروع كانت وما زالت بمثابة شرط التحقق والإنجاز.

وبهذا اكتسب المشروع بالعوائق والعقبات قيمة ومعنى لولاها لبقي مشروعا مجانيا يتحرك في فضاء المطلق والتجريد ويتحقق تلقائيا إذا قيض له التحقق والتحول بعد فوات الأوان.

الغرب ومشاريع النهضة العربية

نجح المشروع الحضاري الغربي في تحقيق ذاته بدءا من عصر النهضة الأوروبية وحتى العولمة الراهنة في عصر ما بعد الحداثة، وكان السبب الحقيقي لانتصاره وتحققه واندفاعه الخطي هو التحرك في فضاء حضاري وسياسي بلا عوائق ولا عقبات، أي من دون أعداء أو انداد سياسيين يصطنعون تحديا يفوق قدرة الغرب واستجابته، خاصة بعد انكفاء العالم العربي الإسلامي على ذاته بعد الحروب الصليبية إبان الهيمنة العثمانية والمملوكية، وتحوله بالخراب السياسي والاقتصادي إلى تركه وموضوع ستتدبر أوروبا القوية العقلانية اخضاعه وقولبته وفي اللحظة المناسبة التي أملت فيها الضرورة الاستعمارية شروطها على الغرب، تحول هذا الأخير إلى قوة غاشمة لاحتلال ونهب البلدان العربية واستعبادها.

ولم يستسلم الغرب لقدره في مواجهة المشاريع النهضوية العربية في العصر الحديث، بل قاومها وعمل على احتوائها وتفريغها من مضمونها وحاصرها وشل حركتها وانتشارها، وحافظ على مصالحه وتفوقه ونفوذه، وأوغل في التدخل والهيمنة من خلال إعادة تركيب هياكلنا السياسية والاقتصادية التابعة، ولم ينجح مشروع النهضة في إرساء خطواته الأولى بحشد القوى اللازمة، وتحقيق إجماع وطني وقومي في القرنين التاسع عشر والعشرين إلا بالمقاومة بما فيها المقاومة السلبية والسلمية التي مورست على نطاق واسع، قبل وبعد المقاومة الوطنية المسلحة، لقد كانت المقاومة هوية المشروع الحضاري قديما وحديثا، وما الدعوات الراهنة لإعادة تأسيس المشروع بالتصالح مع الغرب على قاعدة توازن المصالح وحوار الحضارات إلا دعوات تضليل صادرة عن طبقات اجتماعية استنفذت قدراتها الذاتية وعجزت عن مواصلة التحدي والمقاومة بعد

الهزائم والضربات التي كالتها لها القوى الإمبريالية والصهيونية والرجعية، وهي في أحسن الأحوال صادرة عن فئات ليبرالية مسالمة تتمثل الليبرالية في براءتها ومثاليتها في عصر التنوير، نخبوية الطابع، بعيدة كل البعد عن الجماهير، خزان المقاومة الذي لا ينفذ في كل زمان ومكان.

أما التلقائية والعفوية والمراهنة على الزمن والقنبلة السكانية لحسم الصراعات القومية مع الغرب والصهيونية فمردّها عقلية ليبرالية تتمثل جوهر الليبرالية الكلاسيكية القانون الطبيعي، فكل ما هو مناف للعقل والطبيعة مصيره الزوال ولو بعد حين، لأنه مناف لطبيعة الأشياء، ناهيك عن النزعات الأخروية والمهدوية التي تعلق التغيير على كاهل قوى مفارقة للإنسان، وتنتظر إلى أبد الآبدين، ولم تؤت نفعا تلك الحركات والنزعات، وأفادت المسالمة والمهادنة المشروع الإمبريالي والصهيونية وقوى الاستبداد والرجعية، خاصة بعد أن خانت القوى الليبرالية والطبقات الوسطى مشروعها الليبرالي وتخلت عن الجماهير، وأصبحت فريسة السلفية والأصولية التي انقضّت على الحداثة والليبرالية والعلمانية، أهم أبعاد المشروع الحضاري، ودفعت قواه لاتخاذ مواقف دفاعية للحفاظ على ذاتها وعلى مكتسباتها.

ورغم ذلك بقيت المقاومة قابلة للأحياء والاستئناف بكافة الوسائل والأساليب، وهذا ما عبرت عنه الحركات الوطنية المناضلة في الأقطار العربية لتحرير أقطارها، وهذا ما أعطى المقاومة سماتها وقسماتها الخاصة بشروطها المحلية أولا واستجابة للشروط الإقليمية والدولية بقدرتها على ترجمة وتحويل تلك الشروط إلى عوامل مساعدة ضد الإستبداد والاستعمار ثانيا. فكل مقاومة شعبية أو نخبوية تنبع من ذاتها أي من شعبها وتؤصل أساليبها ووسائلها في امواجهة المستمرة، أما أهدافها فتحدد بما تستطيع أن تحققه وبما تحشده من قوى بالاضافة لقواها الذاتية، ولذلك فكثيرا ما تنحرف الغايات عن الأهاف والتطلعات وتتوقف في منتصف الطريق تحت وطأة الحلول الوسط والانتهازية والتردد.

ان استئناف المشروع النهضوي يعني استنهاض قواه الفاعلة على قاعدة المقاومة والنضال ضد الاستسلام والرجعية والأصولية التي تبدو اليوم متنافرة متناقضة، في حين أنها تعالقت وحملت بعضها البعض ضد الثورة والمقاومة والتقدم إبان الحرب الباردة.

أهداف المشروع

تتمثل أهداف المشروع الحضاري العربي بالتقدم واللحاق بمستويات التطور الراهنة في أقصر مدة ممكنة والتحرر من التبعية الإمبريالية باستكمال مشروع التحرر والاستقلال الذي توقف عند المنجز السياسي، وضمان ممارسة ديمقراطية حقيقية بتداول السلطة وتحقيق الحريات السياسية والاجتماعية، وتفجير طاقات الجماهير في التصدي ومجابهة المشروع الصهيوني، وإحقاق حقوق ومصالح الشعب العربي الفلسطيني، ورفع مستوى الجماهير وتلبية حاجاتها وانتشالها من الفقر والسلبية على قاعدة العلم والعقلانية.

هوية المقاومة في الخطاب النهضوي

بقي الخطاب النهضوي في مجمله اصلاحيا طيلة القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، واستبعد لمقاومة الجذرية، أي الثورة ووقف منها موقفا سلبيا فدعا للتدرج والمراحل والإصلاح الشامل، فتبنى مقدمات الثورة الفرنسية والثورات اللاحقة كالتنوير والعقلانية، ورفض نتائجها ووسائل تحقيقها وفي ذهنه شبح العنف الدموي المدمر الذي اغرق الثورات والكومونة، ومن جهة أخرى لم تبرر المقاومة الجذرية ذاتها في المشروع النهضوي فلا توجد طبقات متباينة تخوض صراعا طبقيا واضح المعالم يستدعي الثورة والانقلاب، وتغيير علاقات الانتاج، فالبرجوازية العربية خرجت في مجملها من رحم الإقطاع، وسادت بسيادته، ولم تقطع معه لا معرفيا ولا ماديا، وبقي الإصلاح سيد المرحلة ولم تستوعب النخب العربية جوهر المقاومة كعملية تطهير للانا والآخر، وبقي العنف السافر الوجه السلبي للمقاومة ماثلا للعيان، ولم تدرك المقاومة أن منجزات الإصلاح الليبرالي تتطلب في مراحل معينة المقاومة للحفاظ على مكتسباته وتعميقها لمصلحة الجماهير.

ومع انحسار القومية العربية نظرية وممارسة أعيد الاعتبار للمشروع النهضوي كمشروع حضاري يتجاوز بعده السياسي الشعبوي وتغيير هياكل السلطة العليا والأنظمة دون المساس بالبنى التحتية القارة في عمق الثقافة العربية اجتماعيا وسياسيا.

وتشابكت وقائع الاستعمار في الوعي الذاتي، لواقع التأخر والتباين بين شرق متأخر وغرب متقدم، وتحول وعي المفارقة إلى وعي جدلي حاول استنباط العلاقة الجدلية ما بين الوحدة والتقدم من جهة وما بين التفكك والتأخر والاستعمار من جهة أخرى، وحاول تكوين منظومة فكرية سياسية للتحرر والمقاومة من مخزونه الثقافي، بما أتاح له الفضاء الاستعماري أو مستوى المثاقفة أن يأخذ منه، فناضل في سبيل الإصلاح والحرية، وهذا يعني أن هناك قوى مادية لها مصالح وعقائد مع الاستبداد والتفكك والتأخر وقفت حجر عثرة في وجه النهضة والتقدم، والقاء على التأخر والاستبداد يعني القضاء على تلك القوى في الداخل والخارج.

ورغم البطولات والتضحيات وا لمقاومة المستمرة والمتقطعة هنا وهناك إلا أن المشروع النهضوي فشل في صد القوى المعيقة الداخلية والخارجية لعدم قدرة قواه المادية السلفية والحداثية على الرد بقدراتها الذاتية، ولعدم اتفاقها على برنامج الحد الأدنى المشترك لتحديد الأخطار والأولويات قديما وحديثا بالاضافة لديناميكية المشروع الإمبريالي وتفوقه وقدرته على احتواء المقاومة المتقطعة المحلية المعزولة بدمجه وتفريغه من مختواه بالاستقلال والحرية والتقدم والوحدة، فحلّت التبعية بعد الاستقلال السياسي، وتراجعت الحريات وأجلت ونشأت الدولة القطرية كمحصلة نهائية للمقاومة وليست محطة أولية للتوحد والحرية كما يفترض أن يكون.

أثر المقاومة في المشروع النهضوي

غيرت المقاومة في المشروع الهضوي وعقلنت أهدافه وزحزحت ثوابته المطلقة، وجعلته أكثر واقعية من خلال إعادة النظر بالأهداف والغايات القصوى التي ناضل من

أجلها المقاومون الأوائل، فقد فرضت المقاومة على الذات العربية أن تكون وجها لوجه مع الآخر الذي بصورته المزدوجة فرض على المقاوم والمقاومة كمنظومة فكرية وممارسة فعلية (براكسيس) أن تفكك التلازم المفتعل بين مكوّناتها الايجابية الحرية والعقلانية وما بين حمولتها الاستعمارية السلبية القهر والاستغلال والعنصرية.

كما واجهت نفسها وتخلصت من مثاليتها واستلابها ورومانسيتها الثورية، فعدلت الكثير من تصوراتها وأزالت الصور النمطية عن نفسها وعن الآخر، وخاصة الأحكام المانوية، وفي استنادها على التاريخ لتبرير شرعية المقاومة وهي أصلا مبرر ذاتها في وجه الاستعمار والطغيان كما صعّدت البطولة والشهادة، وتخلصت من القدرية والصوفية السلبية والانعزالية، وأحيت الذاكرة الشعبية بمخزونها الثوري بالجهاد والنضال ضد التعسف والاستبداد، وأعادت التنويه بالهوية التاريخية لتبرير شرعية المقاومة وهي أصلا مبرر ذاتها في وجه الاستعمار والطغيان كما صعّدت البطولة والشهادة، وتخلصت من القدرية و الصوفية السلبية والانعزالية، وأحيت الذاكرة الشعبية بمخزونها الثوري بالجهاد والنضال ضد التعس والاستبداد، وأعادت التنويه بالهوية التاريخية المغايرة لهوية الاخر ونقيضها ، وعلى صعيد آخر فقد غيرت المقاومة ماهية المشروع الحضاري من مشروع تطوري إلى مشروع إرادي ثوري يستهدف تغيير البنى المادية والفكرية بأقصى سرعة ممكنة من خلال الإصلاح السياسي مفتاح التغيير و التقدم في المجالات الأخخرى، كما كشفت المقاومة أن الغرب ليس مطلقا على مستوى الغايات والمعايير، فقد توصل المقاومون إلى أن آفاق التحول والتقدم يمكن أن تكون مغايرة لنموذج الغرب الرأسمالي كما كشفت أن الغرب قد تحول بدخول المقاومة مراحل متقدمة حيث تراجع وغيّر من أساليبه ووسائله لمواجهة التحدي المتواصل من العرب والعالم الثالث.

فالمشروع النهضوي ليس مشروعا إجرائيا يحتاج للبرامج والخطط، بل هو المقاومة والثورة في أعماق معانيها : كرؤية كلية وتحيط به وتسيطر عليه، مؤسسات وأجهزة فاعلة فالمقاومة ليست عنفا مضادا أو وسيلة لرد الفعل بل هي أكثر من ذلك وءجهزة فاعلة. فالمقاومة ليست عنفا مضادا أو وسيلة لرد الفعل بل هي أكثر من ذلك فهي الرؤية الاستراتيجية لفكفكة بقايا الإستعمار والتخلف في البنى الاجتماعية، وهي السلطة الرمزية المهابة التي تفرض السلم الأهلي على الطبقات الاجتماعية في مرحلة التحرر الوطني، وهي المؤسسة التي تفرض قانونها وسلطتها، وجهاز التحكم والدمج في مراحل التحول من الاستقلال السياسي إلى البناء، وهي الضمانة الاخيرة للقوى والطبقات لحماية نفسها من السقوط والتراجع إلى بنى تقليدية تجاوزتها في مرحلة النهوض والمقاومة فعلى المقاومة أن تجسد المشروع النهضوي و على هذا الأخير أن يمثلها لتحقيق ذاته، فهو عملية مركبة طويلة النفس، ويحتاج لتراكم نضالي لا ينقطع من المقاومة التي تراكم عملية البنء وفقا للمتغيرات والشروط الموضوعية.

فالمقاومة بطبيعتها وعلاقاتها ترسى طبيعة المشروع النهضوي، أما محتواه وماهيته فتحددها طبيعة المقاومة ومستواها وأبعادها في الحاضر والمستقبل.

المقاومة وتجارب المشروع النهضوي

1- مشروع محمد علي باشا

حاول محمد علي باشا إدامة دولته القوية المزدهرة في مصر والمشرق العربي لتحقيق النهضة الحضارية، وقاوم بلا هوادة كل القوى المناوئة لمشروع الدولة الوطنية المستقلة عن الأتراك والمماليك والقوى الاستعمارية عن خلافاتها وخطمت أحلامه وكبرياءه ،شروعه النهضوي، وكان على خلفته الرجعى عباس باشا تصفية ما تبق من حداثة وتحديث دون مقاومة تذكر من المتضررين، جماهير الشعب المصري، وليس من اجله كما كان المشروع على حساب المجتمع لمصلحة الدولة، فلم يتغير حال العمال والمستخدمين في المعامل والمصانع الحديثة، ولم يشعر الفلاح بمردوده الإصلاح، وبهذا فقد بقيت اجراءاته الثورية إصلاحات فوقية تمنح الإمتيازات لجمهور الشعب، ولم يفسح المجال لأي مشاركة شعبية. بل عمل على تحطيمها، ولهذا فقد افتقدت المقاومة الحضارية والوطنية ضد الارتداد والرجعية إلى الجماهير الشعبية التي غيِّبت في مرحلة البناء، وغابت في مرحلة الهدم.

والسؤال : ماذا لو لم يتورط محمد علي باشا بمغامراته العسكرية خارج مصر، واستثمر فائض القوة في بناء المشروع النهضوي على قاعدة المشاركة الشعبية والعلم والعقلانية

2- تجربة الحركة القومية العربية

خاض رواد الحركة القومية في مطلع القرن العشرين تجربة نضال من أجل الوحدة والاستقلال، والتحرر من الهيمنة التركية والغربية، وبناء الدولة العربية الواحدة. فقد بدت مطالب العرب من العثمانيين متواضعة إلى حد كبير، وتتعلق بالإصلاح والحكم الذاتي في إطار الوطن العثماني، إلا أن وصول القوميين الأتراك إلى سدة الحكم حوّل مشروع الإصلاح إلى مشروع مقاومة وثورة ضد التتريك، لم تؤت أكلها بسبب دخول الغرب كمتغير أساسي دفع رواد الحركة القومية لإبطاء وتيرة المقاومة ضد الأتراك خوفا من الأطماع الاستعمارية الغربية، فتراجع الخطاب القومي إلى مواقعه الإصلاحية، ودعا صلاح الدين القاسمي ورفيق العظم وعبد الحميد الزهراوي وغيرهم إلى الجامعة العثمانية، الذين ايقنوا أن المشروع الغربي أخطر من الهيمنة التركية والتتريك، لكن لم يستطع هذا الخطاب حل الإشكال القومي وتركيب !المهام السياسية والتحالفات، فعاد دمج الغرب في مشروعه القومي ضد الهيمنة التركية.

3ـ مشروع عبد الناصر والمقاومة

شكلت مصر عبد الناصر رأس حربة ضد الاستعمار والامبريالية والرجعية والصهيونية، وأصبحت عامل استقطاب والهام للمقاومة في البلاد العربية وأفريقيا ومجمل دول العالم الثالث، في صراعها وبنائها لذاتها وأدواتها وأهدافها، فكانت الثورة والمقاومة المستمرة عنوان المرحلة وهويتها القومية، ففي جهودها الحثيثة لتحديث المجتمع وبناء الاقتصاد الوطني خاضت الثورة

معركة الإصلاح الزراعي ضد الإقطاع والإقطاعيين، وانتزعت منهم الأرض ووزعتها على الفقراء، وانتقلت إلى معارك التصنيع والتأميم وبناء السد العالي، وهي كبرى المعارك الوطنية التي خاضتها الناصرية ضد أعداء الداخل والخارج، واكتشف عبد الناصر في المقاومة أن تحرير الأرض والعقل والاقتصاد المصري كل لا يتجزأ، وان المقاومة معركة لا تنتهي ما دامت القوى المعادية حية قادرة على الرد والعدوان، وان المقاومة تحتاج لأقصى درجات الوعي واليقظة الثورية والتعبئة الشعبية.

وخاضت الناصرية صراعا داخليا للحفاظ على نفسها ثورة وطنية تقدمية تتجاذبها التيارات السياسية يمينا ويسارا ، وكشفت لها المقاومة مكوناتها الطبقية وحدودها وآفاق تطورها وحسمت خياراتها العقائدية.

وردا على اتساع دائرة الأعداء وسّعت الناصرية دائرة الأصدقاء، وامتدت دائرتها من الجماهير الشعبية العربية إلى حركات التحرر في العالم الثالث، إلى الدول الاشتراكية، والقوى الديمقراطية في الغرب، فحشد عبد الناصر القوى في كل مكان، وأشعل المقاومة الوطنية، ولم يتردد بمد يد المساعدة لكل حركات التحرر والمقاومة العربية وغير العربية، وتحملت مصر ما هو أكثر من طاقتها وقدراتها، وتوسعت دائرة الأمن القومي المصري ليتماهى بالأمن القومي العربي، ودول العالم الثالث، وكيفت المقاومة الأجندة الوطنية حسب التحديات، وليس الأولويات، ووحدت المقاومة العرب ومشاعرهم بالمصير المشترك، وعززت الكبرياء والكرامة الوطنية.

إلا أن سجل الناصرية الوطني لم يغفر لها هزائمها وأخطائها وخاصة الهزيمة الكبرى في حزيران 1967 وتعليق الديمقراطية السياسية.

ولكن ما يهمنا هو استنتاج الناصرية فيما بعد أن المقاومة ليست ردود أفعال عنيفة أو ضربات موجعة لمواقع الاستعمار والرجعية وإسرائيل، بل هي منهج وطني ومؤسسة بحد ذاتها تحتاج لما هو أكثر من التجريب واختبار النظريات الأيديولوجية، وبقيت الناصرية تنوس ما بين الاشتراكية العلمية والرأسمالية الوطنية، ولم يتجاوز عبد الناصر خياراته الاشتراكة الحقيقية إلا بعد فوات الأوان، أي بعد أن استنفذت المقاومة الناصرية قدراتها على الاستمرار والمضي قدما بنفس الزخم السابق.

وفي ظل الظروف والمتغيرات الراهنة فان المشروع النهضوي يحتاج لأكثر من المقاومة الناصرية، وما استعادتها بمواصفاتها نفسها إلا نوستالوجيا فرضتها أثقال الحاضر الكئيب.

ورغم المبادىء والايديولوجيا الواردة في كراسات الناصرية مثل فلسفة الثورة والميثاق أو الصادرة عن العاملين في أجهزة الإعلام والتوعية والإرشاد في الاتحاد الاشتراكي، إلا أنها بقيت في جوهرها ممارسة بلا مبادىء واستبقت تجربتها المقاومة نظريتها السياسية، وتفجرت نظريا قبل تفجرها العملي، فكثيرا ما تهربت من تناقضاتها النظرية بالحل الوسط أو بإلغاء التناقض، واكتفت بالعلاقة الصوفية بين القائد والشعب دون توسط جهاز سياسي أو مؤسسة ديمقراطية حقيقية.

وهذا ما حولها بسرعة إلى موضوع قابل للنقد والمراجعة

والنقض، بعد أن كانت ذاتا فاعلية ومحور حركة التقدم والنضال.

استئناف النهضة

تدعو الأوساط الفكرية العربية لاستئناف مشروع النهضة من جديد، وتسوغ ذلك بأن مفردات المشروع ما زالت راهنة، ولم تستنفذ أو تختبر على حقيقتها بالممارسة والتطبيق، أما الحاضر الغائب فهو استلهام النموذج والوسائل الكفيلة بتحقيقه، فهل يتحقق بالتنمية المستقلة في عالم تضيق فيه الفرص والخيارات أمام العرب، هل يمكن تحييد الغرب؟ هل يمكن تحقيقه في إطار التبعية الراهنة بمعني آخر؟ هل يمكن تحقيق المشروع في نطاق الرأسمالية الليبرالية كخيار وحيد مهيمن في العلاقات الدولية؟ وهل يمكن كسر اختيار الغرب الرأسمالي؟

ويمكن اختزال تلك الاختيارات والفرضيات بحلين، أما الشمروع بالنهضة برضى الغرب أي بمواصفاته وبأفقه الرأسمالي، وهذا يعني باستنهاض القوى والطبقات التي كانت أصلا سبب التأخر والكارثة، وستقودنا حتما إلى مزيد من الازدهار السياحي والتبعية، ولن تحقق فتحا تاريخيا جديدا، وأما الخيار الثاني ويتطلب مقدمات لابد منها لفكفكة بقايا الاستعمار والإمبريالية وتحقيق ثورة وطنية ديمقراطية لمأسسة الحقوق والمكتسبات، وتحويل البنى الاقتصادية والفكرية، وهذا يتطلب أولا وقبل كل شيء المقاومة في الداخل ضد أعداء التقدم والنهضة، وفي الخارج ضد الإمبريالية والصهيونية على قاعدة العقلانية والديمقراطية والتصنيع.

وفي هذا المنطق يكتسب الصراع الفكري والمقاومة الأيديولوجية أهمية بالغة في تمهيد الطريق لتأسيس مادي للمشروع، فقد ترددت في الآونة الأخيرة عدة أفكار تنطوي على هدف مشترك يتمثل بتفريغ النهضة من الصراع والمقاومة وإسقاطها في نزعة سلمية تدعّي العقلانية وتتعالى على الصراعات والتيارات الفكرية بحجة الموضوعية والرؤية الشاملة.

وأهم هذه الأفكار الرائجة ـ ومعظمها مستوحى من الزمن الرأسمالي الإمبريالي ـ :

1 ـ ضرورة تحول الأحزاب العقائدية إلى أحزاب برامجية.

2 ـ مقولة انهيار الطبقة الوسطى وتحول المجتمع إلى طبقتين، طبقة الفقراء وشريحة طبقية عليا من كبا ر الرأسماليين والبيروقراطيين.

وسأعلق باختصار شديد على هذه الأفكار وما تنطوي عليه من إيديولوجيا رغم ظاهرها الموضوعي المجرد.

تعكس الايديولوجيا وهي منظومة فكرية سياسية وجهات نظر الوحدات الاجتماعية الكبرى في المجتمعات الحديثة التي تخوض صراعا طبقيا بين وحداتها، أي بين الطبقات الاجتماعية التي وصلت مرحلة متقدمة من النضوج أهلها لكشف مطالبها ومصالحها في الإنتاج والسلطة تعبر عنه التي هي بمثابة أدواتها وأجهزتها التعبيرية المناضلة وتحمل رؤية كلية شاملة كبديل للسلطة والنظام القائمين تتضمن «الكلية» المبادىء والتصورات والمعايير لما هو قائم، والبدائل الممكنة والمحتملة، فلا يمكن إنجاح ممارسة سياسية تحمل أعباء التاريخ بدون منهج ونظرية، أما الأحزاب البرامجية التي

يروج لها البعض، أي تشكيل حركات سياسية بدون منظومات فكرية معيارية، فمصيرها الفشل والتفتت لعدم وجود قاعدة فكرية معيارية، والدليل على ذلك انفجار وتشظي الأحزاب الوسطية البرامجية التي قامت على أسس إجرائية مرحلية مطعمة بالمثاليات للتحلل من النقد والمسؤولية وتبرير ذاتها كأحزاب سياسية تحمل فكرا.

أما أحزاب اليسار التي تخلت عن ذاتها كأحزاب عقائدية مقاومة (ثورية) وتاهت في دوامة البحث عن الذات والهوية، فقد تقهقرت ولم تحظ بالهيبة والاحترام والحظوة الجماهيرية التي كانت تتمناها، وتماهت مع اليسار التقليدي الذي لم يجد مسوغا للتغيير، ولم يتحسس الجديد في عالم اليوم وبقي معزولا متحجرا، وكلاهما خان الثورة والمقاومة وخذل الجماهير، ودفعها لأحضان الأصولية الراديكالية والسلفية الشعبوية.

إن الحديث عن أحزاب برامجية بهذه الحدة يعني تفتيت الوحدات الاجتماعية الكبرى، وتحويل الطبقات إلى شرائح اجتماعية مجهرية لا تحتاج لناظم كلي يعبر عنها ويوجهها، أي لا تستحق حزبا سياسيا حقيقيا، بل تحتاج لمنظمات وهيئات مهنية ثقافية نخبوية للتعبير عنها في المجتمع السياسي والمدني.

أما التضليل الآخر ومفاده تحول المجتمع إلى طبقتين، فيفتقر لتعريف وتوصيف دقيق، ويصادر هذا التصنيف قيام أحزاب وطنية وسطية حقيقية، أو إمداد الأحزاب الشعبية بمفكرين ومقفين منحدرين من الطبقات الوسطى، فعصب العمل السياسي والحزبي هو الطبقة الوسطى، وهي المؤهلة لقيام كتلة شعبية، وإقامة توازن طبقي، وإبقاء الصراع تحت السيطرة حتى اللحظة الثورية التي تنحاز لها الكتلة الشعبية.

الثقافة العربية بين وهمي التراث والحداثة

محمد خالد الشياب*

هيمن على الفكر العربي، منذ النهضة العربية التي بدأت منذ القرن التاسع عشر ثلاث محاولات:

الاولى: محاولة الانتظام في تراث الغرب، وهذه المحاولة نظرت الى أزمة المجتمع العربي أو أزمة التطور الحضاري بوصفها أزمة البرجوازية في تكونها التبعي الي لا يمكنها القيام بدور تقدمي على غرار البرجوازية الغربية. ولتبرير العجز المزمن لهذه البرجوازية عن إحداث التغير المطلوب، فقد اتهمت التراث بأنه سبب التخلف الراهن. وهناك اتجاه آخر في هذه المحاولة يعتبر نفسه يمثل الفكر التقدمي (الماركسي) ووريث الاتجاهات العقلانية أو المادية في التاريخ العربي، حيث يفسر التراث بالصراع الطبقي ويعتبر التراث عمقا أصيلا لها.

والمحاولة الثانية: هي التي تنتظم بالتراث باسترجاعه، وفي هذه المحاولة، بعودتها الى التراث، هناك من يعود الى عهد الرسول (محمد) ومن ثم يعود الى عهد الصحابة، كـ «سيد قطب»، وأحيانا الى عهد عبد الملك بن مروان، أي أن هناك مدى تاريخيا يمتد عبر قرون قد يصل أحيانا عهد ابن تيمية، فكأنما العودة الى التراث تتم بوصفه شيئا خارج التاريخ.

أما المحاولة الثالثة: فهي المحاولة النقدية والتي نظرت إلى إشكالية التراث بوصفها إشكالية نظرية يرقى استقلالها عن الواقع بشكل تام، وان تجاوز هذه الاشكالية لا يتم الا نظريا باعتبار أن هذه المسالة ليست جزءا ولا مظهرا من مظاهر الصراع الايديولوجي والطبقي. وقد ارتبطت هذه المحاولة بفترة السبعينات والثمانينات التي تلت حرب حزيران وكرست الاخفاق العربي حيث بدأت مراجعة جديدة أكثر غزارة وأكثر شمولا لجميع جوانب الحياة العربية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والفكرية.

لقد بدا التراث في الفكر العربي، الاشكالية الاساسية، في فترة السبعينات وما بعدها، حيث أن معظم المفكرين العرب، على مختلف اتجاهاتهم، متفقون على أن الدين هو موضوعيا أحد الثوابت في تكوين شخصية الأفراد والجماعات في المجتمع العربي. ففي المجتمعات العربية، كما يقول النويهي «لا يزال الاعتبار الديني يغلب على كل اعتبار»(1) وهي مجتمعات ثيوقراطية، إذا قمنا بتحليل المضمون لجملة البنى الذهنية التي تتحكم في سلوك الكم الأكبر من الطبقات أو الفئات أو الشرائح الاجتماعية»(2) حسب غالي شكري. ويرى صادق جلال العظم أن الفكر الديني «يسيطر إلى حد بعيد على الحياة العقلية والشعورية للإنسان العربي، إن كان ذلك بصورة صريحة وجلية أو بصورة ضمنية لا واعية»(3).

أما محمد أركون فإنه ذهب إلى القول أنه في حين انجزت الأمم الغربية وحدتها السياسية بتوطيد الاتجاه العلماني

* كاتب سوري

الوطني، فإن الشعوب العربية بقيت متشبثة بالتقاليد المحلية والعقائد الدينية الخاصة»(4). وهكذا فإن إعادة اكتشاف ان الاسلام ما زال يشكل القسم الأكبر من لا وعينا الجمعي، وان الدين هو أحد الثوابت في تكوين الشخصية القومية لا يجوز الاقتراب منه وملامسته، ربما كانطباع يتركه التاريخ الاجتماعي العربي الحديث والمعاصر، وعلى الأخص في العقدين الأخيرين، أخذ يدفع الكثير من المفكرين وحتى الفعاليات السياسية إلى مراجعة خطاباتها. إن هذه النظرة إلى التراث والهروب الى الدين ومهادنته، في الفكر العربي المعاصر يعد تراجعا ونكوصا في سيرورته. إذ بعد ان كان الفكر العربي في عصر النهضة يحاول إعمال العقل في الاسلام ويقولب قراءته وفقا لمقتضيات التنوير والعقل ولحاجات العصر والتقدم، نراه اليوم في خطابه العقلاني والتحديثي والماركسي، أي بعد أكثر من قرن يمارس العكس، فيقولب ويعدل خطابه، التحديثي، العقلاني والماركسي، وفقا لحاجات التدين والاسلام. وهذا ما يعتبر في نظر التراثيين نجاحا لهم، وجر للفكر التحديثي التقدمي إلى الوراء وإلى صراع وهمي بعيد عن المهمات الملحة والمسائل الاساسية الراهنة(5)، كما أنه يعد تراجعا للفكر العربي بتخلفه عن طروحات مضى عليها أكثر من قرن ونصف. ويذهب محمد أركون إلى أبعد من ذلك حيث يشير إلى «تقهقر الفكر العربي في جو العروبة والاسلام، ففي الستينات والسبعينات، بالنسبة إلى الاقدام العقلاني الذي نجده عند أمثال الجاحظ وأبي حيان وابن سينا وابن رشد وابن حزم وابن خلدون وغيرهم» ويعزو ذلك الى تفضيل ايديولوجيا الكفاح، وتفضيل الشعارات الدافعة الى الجهاد في سبيل التحرر على حساب «احداث الوعي التاريخي العلمي الايجابي الذي تطمح اليه العقلنة الحديثة»(6).

وعلى هذا الأساس نجد أن التراث أصبح نقطة استقطاب للفكر العربي، كما أنه غدا سلاحا من زسلحة إيديولوجيا الكفاح أكثر منه مفهوما ثقافيا ذا أبعاد تاريخية معرفية(7). والتراث بما هو كذلك ليس نسقا أو منظومة أو منطقا ثابتا مغلقا ومكتفيا باته، إنما هو منفتح وخاضع لمقتضيات العصر والاهواء السياسية والإيديولوجية. ولقد اعتبرت التوفيقية هي النزعة الأكثر انتشارا في التعامل مع التراث، كما هو الأمر عند زكي نجيب محمود، بحيث نأخذ ما يناسبنا من التراث ونترك ما عداه. وهكذا نفعل تجاه العصر أيضا، نأخذ من ثقافة المعاصرين، ما ينفعنا في معاشنا ويفيد تطور مجتمعنا ولكأن المسألة تحل بأن نريد ما نرغب أن يكون فيكون ما نرغب، وبمعزل عن الشروط الاجتماعية القائمة.

ان النزعة التوفيقية غالبا ما ترد، سياسيا وايديولوجيا وثقافيا، إلى الفئات أو «الطبقات الوسطى». ولكن لما كان التعامل مع التراث يخضع لمقتضيات العمل السياسي والإيديولوجي، فإن هذه النزعة تسود الآن عند مختلف الاتجاهات والقوى الاجتماعية السياسية، وان باشكال مختلفة ولغايات نفعية أساسا. فحتى في الاتجاهات الماركسية، أو العلمانية بشكل عام، التي كانت وما زالت تعلن رفضها للتوفيق والانتقاء، باعتباره تلفيقا وإصلاحا ونفعية، أخذنا نجد هذه النزعة بصورة ما، رغم المناهج

وطرق البحث العلمية الجديدة التي تستخدمها، وألا فماذا يعني البحث عن العناصر «المنتشلة» من التراث وبين قضايا التقدم والتحديث والمعاصرة»(8).

إذا الموقف من التراث يفترض ضمنا أو صراحة موقفا من الحداثة. وإلا ما موقع أو فائدة الطروحات التراثية المختلفة في الواقع الاجتماعي الراهن، وفي ضوء التحولات الاجتماعية الاقتصادية والسياسية الفعلية ونزعتها الثقافية؟

ان الدعوة الانتقائية التي نحن بصددها ليس سوى وهم شعور - إنها من الممكن أن تكون جذابة! - ذلك أن الواقع الاجتماعي والاقتصادي القائم بمؤسساته وعلاقاته التي تغير حياتنا، وهي مؤسسات تكاد تكون غربية بالكامل وتزداد تغربا، إنما تتشكل في سياق التبعية للغرب. لقد أكد التاريخ الاجتماعي لمنطقتنا العربية منذ ما سمي بعصر النهضة حتى الآن ان الانتقائية كانت مجرد كلام. فمعظم المفكرين العرب منذ ذلك التاريخ ولغاية الآن تصوروا، مثلا، أن على العرب الأخذ بالعناصر والنتائج المادية للحضارة الغربية، دون مصاحباتها الثقافية والقيمية والسلوكية، فماذا كانت النتيجة؟

الواقع ان الذي حدث كان أقرب إلى العكس دائما، أي مزيدا من التغرب في الاخلاق والسلوك، ذلك لأن الأمر لم يكن يتعلق باختيار الفكرين وإرادتهم، إنما بالدرجة الأولى بالنظام السياسي والنخب المسيطرة، واتجاه التحولات التحتية المفتوحة على الغرب: لقد استحضرت مجتمعاتنا كل شيء من الغرب، من أسوأ نتائج حضارته وتناقضاته وصراعاته الاجتماعية حتى اعقد مبتكرات التكنولوجيا مع العجز الواضح عن تمثل أو حتى استحضار، تقاليد العلم والعقل العلمي الفعال المنتج. أما ما بقي فينا ومعنا من الماضي فعلا، فهو ما ورثناه من عصور الانحطاط والتعصب وإقالة العقل»(9).

هكذا وجدنا أنفسنا في واقع فعلي، لم يتح لنا الخيار بين القبوله او رفضه، فنحن لم نختر التحديث كما لم نختر ما بقي معنا وفينا من افكار وقيم الماضي، ان مظاهر التحديث فرضت علينا كنموذج خضاري عالمي، وبمواجهات عديدة كانت فيها مجتمعاتنا دائما الطرف السلبي المتلقي، منذ اول احتكاك باللغرب حتى السيطرة الاعلامية والثقافية والأيديولوجية الراخنة، انها فرضت علينا، بقوة الاختراق الرأسمالي الاستعمارب وبالقوى الاجتماعية المحلية المرتبطة به عضويا، وبذلك فان مظاهر التحديث كانت اقوى من كل الارادات والخيارات النظرية المجربية والحلول الاخلاقية، لان هذه المظاهر انما تتشكل في لقاء غير متكافئ، وبتأثر نماذج اجتماعية اقتصادية وثقافية اكثر قوة وتطورا اصبح الانغلاق دونها مستحيلا.

ففي ظل اقحام مجتمعاتنا في سيرورة العالم المعاصر، وفي حدود التفوق الغربي الحالي وتدفقه على مجتمعاتنا اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، فان النزعة باتجاه التغريب لا ريب فيها. وهل كان بالامكان ان يحدث غير ذلك في حدود الضعف والتشتت والتخلف العربي الراهن.

ان حل مشكلة التراث والحداثة (المعاصرة) يتطلب قبل كل شيئ الخروج من مأزق الحياة الاجتماعية الاقتصادية والسياسية. اما التعامل مع التراث فهو بالسبة لكل

الاتجاهات سواء التراثية منها أم التحديثية ، صراع ايديولوجي على جبهة الفكر. ولكنه على الاغلب لن يكون رذ جدوى ما لم يتراق مع العمل في الواقع، واقع الحياة الاجتماعية الفعلية.

الفكر العربي ومعاينة الواقع

عند تناولنا الواقع، فانه ينبغي علينا ان نأخذ بعين الاعتبار ان الواقع متشابك معقد، وتدخل فيه الكثير من العناصر المكونة له، والتراث لا يشكرل الا مكونا واحدا من هذه العناصر. ففي هذا الواقع تدخل سلسلة المفاهيم والعقائد والفلسفات التي دخلت الى العالم العربي من مصادر اجنبية، وتدخل فيه سلسلة الصراعات السياسية و الطبقية والاجتماعية التي تطبع الحياة العربية اليوم بطابعها ، وتدخل فيه ظاهرة طغيان السلوك الاستهلاكي في المجتمع العربي التي اصبحت تطبع حياة هذا المجتمع بخيث يمكن القول انها مشكلة اصبحت اكثر اهمية من مشكلة التراث اذ صار لها تأثير ها العملي على الواقع العربي المعاصر، و غلى اعطائه خصائصه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الان. من هنا فان الفكر العربي المعاصر مناط به اذا ما اراد ان ينهض ان ينطلق من الواقع العربي المعاصر لا استنادا الى صورتنا الحضارية في ماثورنا او في مخيالنا الاجتماعي / السياسي التي فقدت جل تاريخها لان الفكر العربي لا يمكنه ترجيعا لاصداء ميتة في ماضينا. فهذا الانشغال بالتراث والماضي ظاهرة مرضية لا توجد في الثقافة المتكاملة المتجانسة الناضجة الواحدة، ففي مثل هذه الثقافة ينظر الى التراث بووصفه النتاج الحضاري المتكامل الموحد المتصل في الزمان حتى اللحظة الحاضرة ، ام عندنا نحن في فكرنا العربي المعاصر فاننا حين نقول التراث وكما هو عليه الحال فاننا نقصد بذلك الماضي النائي المتشكل في كتلة قائمة بذاتها وتضع هذا التراث مقابلا للواقع العربي، وكأن هناك شيئا اسمه التراث العربي و شيئا اسمه الواقع العربي، وهذه الاطروحة الاساسية، وهي تجسيد لفشل الفكر العربي في معاينة الواقع لان التراث لس الا مكونا من مكونات هذا الواقع

وعلى هذا الأساس فان الخروج من هذه الازمة واعادة التوازن للفكر العربي ليس معناه تجاوز ظاهرة التراثية ، فالقول بأو الفكر غير متوازن في تعامله مع الواقع، وبأنه غير متوازن في تعامله مع التراث انما يعني القول بأن اعادة التوازن يكون بتطوير مناهجنا الفكرية لاننا ما نزال غير ممتوازن في تعامله مع التراث انما يعني القول بأن اعادة التوازن يكون بتطوير مناهجنا الفككرية ، لاننا ما نزال نكتب ونفكر ونعمل في غياب شبه مطلق لادنى مستويات المنهجية في تعاملنا مع الواقع وحين يتم هذ التطوير، نستطيع أن نعاين التراث بوصفه مكونا – فحسب – من مكونات الواقع مهما كان الحجم المكافئ الذي يشغله من هذا الواقع وبذلك نموضع التراث ضمن بنية كلية للحياة العربية لا ان نجعل بنية الحياة العربية كلها.

جملة القول ان الازمة التي نواجهها، تتعلق بقصور الفكر العربي وعجزه عن طرح الواقع وعدم ترسيخ الفكر التحديثي : الليبرالي او الماركسي، ثم سقوط النموذجين

معا، وخلو لظهور النموذج التراثي الخلية الشرعية لهذين النموذجين الذين لم ينجحا تاريخيا في حل مشاكل الوطن العربي.

من هنا ، فان المؤشر الحقيقي للابداع في الفكر العربي، وهو الطرح الصحيح لقضايا المجتمع وتقديم الحلول الاصلية التي يستطيع الفكر العربي ان يصل اليها في مواجهة هذه القضايا، لقد قصر الفكر العربي المعاصر في طرح القضايا الحقيقية وتوصيفها الحقيقي بعدم اخذه البنية الكلية المشكلة للحياة العربية.

وعليه فلا ينبغي القول بان التراث يشكل مشكلة تشغل المجتمع العربي ثم نحاول ان نحل المشكلة .، فهذا قلب للحقائق ذ انه ينظر الى التراث بوصفه بنية قائمة بذاتها، في حين اننا لو نظرنا إليه بوصفه مكونا من مكونات الواقع فإنا نستطيع الوصول الى الفوض والتصورات التي من خلالها ندرك العلاقات القائمة بين التراث والمكونات الاخرى في البنية الكلية للواقع، ومن ثم يمكننا مواجهتها ومحاولة تطويرها بحيث تحل المشكلة والغاية مهنا من تلك كما هو واضح ليس نفي التراث او رفضه وانما الغاية ان تصبح القضية كينونة عربية كاملة قضية مجتمع متجانس متبنين أي له بنية واضحة تجمع كل مكوناته وتكشف كل العلاقات القائمة بين هذه المكونات.

وعلى هذا الأساس، فإن الخصائص التالية هي التي تبرز في الفكر العربي المعاصر :

1 ـ انه فكر عقائدي، ففي كل النماذج والمحاولات التي قامت، هناك صيغ عقائدية هي التي تحدد في النهاية طبيعة الفكر وطبيعة تعامله مع الواقع، وهذا التوظيف العقائدي اللامعقول لا يعني سوى جعل الحاضر العربي في حالة تبعية عمياء للماضي، وبالتالي شكل كل قدراته العقلية وامكاناته المادية عن طريق زجها في مشاكل وقضايا مزيفة أي قضايا اريد لها أصلا أن تنوب عن المشاكل الحقيقية التي تنخر الحاضر، مشكلة التجزئة والتخلف(12)، ومسألة العدالة، كيف تتحقق، وكيف نقلل من الفوارق بين الطبقات، ومسألة الديمقراطية، وشكل النظام، وديكتاتورية الدولة الأمنية في العالم العربي، والنظم الاستبدادية وكيف يمكن ان نوجهها، لأنها معوقات تحقق المشروع الحضاري. من هنا يتضح ان الخطاب العربي المعاصر يخفي أو يحاول أن يخفي ضعفه المعرفي وثغراته بواسطة المضامين الايديولوجية التي ينقلها من هذه الجهة أو تلك. ذلك أن «وظيفة الايديولوجية في خطاب ما هي تعويض النقص المعرفي فيه، وأية معارضة أو اعتراض على الاطروحات التي يدفع عنها ستقابل من طرفه، لا بالاحتكام الى الواقع بل بالمزيد من التمسك الايديولوجي بالاليديولوجيا، أي بالمزيد من الامعان في التمويه الايديولوجي(13).

2 ـ فكر تجزيئي على كل المستويات، فعند الرغبة في دراسة أية ظاهرة، فانه يقوم بعزلها عزلا كليا عن البنى الكلية بمختلف اشكالها، وينسى ان هذه الظاهرة كانت في الاصل جزءا منها، ويغوص في هذه الظاهرة وكأنها هي البنية الخاضعة للتحليل.

3 ـ ان الفكر العربي غير تاريخي، فحضور الماضي على مستويات معينة في الوجود العربي هو حضور لا تاريخي

بصورة مطلقة. حضور يكاد يلغي طبيعته التاريخية، حيث يلاحظ ان هناك «تداخل بين البدايات (العصور) الثقافية في الفكر العربي المعاصر، مما يجعلها ذات زمن ثقافي واحد يعيشه المثقف العربي في أي جهة من الوطن العربي... والنتيجة هي انه عندما ينتقل أحد بفكره من العصر الجاهلي إلى العصر الاسلامي، أو من العصر الاسلامي إلى عصر النهضة لا يشعر انه ينتقل من زمن إلى زمن آخر مغاير، بل يشعر فقط انه يتحول بين عدد من الأمكنة بين شعاب مكة وأسواق بغداد ومساجد قرطبة(14). بل نكاد نلحظ أن هناك تناقضا أساسيا ومفارقة أساسية تتمثل في تصوّر الماضي وكأنه حاضر حضورا كليا، وفي الرغبة في التعامل معه - في الوقت نفسه - وكأنه كتلة ماضية مشكلة قائما بذاته، كما ذكرنا سابقا. تأسيسا على ما تقدم نلحظ أن التحديات التي تواجه الثقافة والفكر العربي هي الآتي:

1- وهم الحداثة وواحدية الحضارة:

لقد سار الكثير من مفكرينا على الدعوى الغربية، بان الحضارة هي واحدة، وان هذه الحضارة هي حضارة غربية، ولكي ندخل عصر الحضارة، فلا بد لنا من السير على طريقة الغرب والذوبان فيه، منذ ان بشر «أحمد لطفي السيد» بأن الأوروبيين هم أساتذتنا وعلينا أن نتتلمذ عليهم، وكذلك عندما اعتبر طه حسين ان علينا أن نتبع الغرب في رؤيته ومنهجه اذا ما أردنا أن نقيم بناءنا الحديث.

إن هذا القول، يؤدي بنا ان «البشرية» فيها البشر سواء، وان هناك عقلا واحدا، هوالعقل الغربي وهذا وهم وخداع، لأن ذلك يترتب عليه أن نأخذ، ليس مجرد أدوات الحضارة الغربية، من مصانع وسلاح ووسائل، بل كذلك وبالضرورة أفكار هذه الحضارة وقيمها وهذا هو المحال، لأنه لا يمكن لثقافة أن تحاكي ثقافة أخرى إلا بأن تموت. وحتى مع هذا الشرط فهي لن تستطيع أن تقلد الثقافة الغربية لأنها الثقافة الأضعف والمغلوبة.

إذن لا إمكان لنا أن نكون «مثل» الغرب في كل شيء. أما الحديث عن «العصر الواحد» واننا أبناء هذا العصر، فهو حديث وهم أيضا. ذلك لأن لا عصر الا في إطار الحضارة الواحدة، وما يكون بين حضارتين ليس إلا تآنيا وليس «تعاصرا» ذلك ان واحدية العصر تعني الانتماء بالضرورةإلى الحضارة نفسها، والا فلا تعاصر ولا معاصرة، ولذلك فالقول «بالحضارة الواحدة» هي دعوة غربية، لأنها تحقق مصلحته. فتاريخ البشرية لم يعرف مطلقا الحضارة الواحدة التي تسود أطراف الأرض، وكذلك الحال اليوم، مع الفارق الكبير، إن هذه الأيّام شهدت ظاهرة فريدة تحدث لأول مرة، هي سيطرة حضارة واحدة على بقية الحضارات في مختلف أرجاء الأرض. إن القول بواحدية الحضارة، باسم الحداثة يبقى وهم. ذلك ان الحضارة ليست واحدة، وليس هناك عصر واحد، لأن العصر لا يكون إلا في إطار الثقافة، والثقافة لا يمكن أن تنقل ويبقى القول بـ «واحدية الحضارة» هو بهدف السيطرة علينا(18). ففلسفتنا العربية التي كبتها السلطان ثم السقوط المديد الذي أصابها، يحاول الاستعمار المعاصر أن يكتبها، ولكن باسلوبه هو: بفرضه هويته الثقافية علينا، كشرط لدمجنا في ما يدعي

لنفسه من «منظومة دولية جديدة» وهذا الشرط يعني تغريبنا عن موروثنا التاريخي ومثالاته العينية (الروحية الفلسفية / العلمية) وتجريدنا من كل هوية حرة(19).

ولهذا فاننا نجد ان من جملة عوائق نهضتنا انها نهضة ارادت ان تنهض بعقل غيرها، وان تنتظم في تراث آخر هو التراث الغربي في مرحلة معينة من مراحله.

ان المظهر الفلسفي لهذا القول «وحدة الحضارة» و«وحدة العصر» هو القول بأن العقل الانساني واحد وانه يتطور، مظاهره مختلفة، ولكنه هو هو، ومن ثم فان منتجاته عند قوم تصلح لقوم آخر حتما.

ان ذلك يقود ان القول بوجود عقل واحد لدى جميع البشر، وهذا هو الخداع، لأن القول بالعقل الواحد معناه قيام حضارة واحدة وثقافة واحدة لكل البشر.

ان العقل هو تعبير عن الثقافة، فلا عقل إلا في إطار الحضارة، ولذلك فليس هناك عقل واحد، ولا بشرية واحدة، ولا يمكن لأحد أن ينقل نتائج حضارة أخرى، إلا اذا أراد أن يصبح جزءا منها في مقابل اعدام الذات، وهو حتى في هذا لن يستطيع، حيث سيكون في المؤخرة مستهلكا لمنتجات هذه الحضارة، ولن يستطيع حتى المشاركة مع الانتاج الثقافي.

ان حضارة الغرب حضارة مختلفة، عدوانية، استعلائية، ونحن حضارة وليدة بسبيل التكون. ولهذا فقد أدت المبالغة في التغرب، في وطننا العربي، الى الانشغال الكبير بالتراث وصحوة غربية نحوه في الفكر العربي المعاصر، أي التراث «الخصوصية التاريخية» المعبرة عن التكوينات التاريخية العميقة لحضارات الوطن العربي التي سبقت الاسلام. ولذلك فالثقافة الغربية لا يمكن غرسها في الوطن العربي، كما لا يمكن أن نقول هناك ثقافة عربية اذا كانت هذه الثقافة مستوردة من حضارة أخرى، ذلك أن مثل هذه الثقافة لا يمكن استنباطها من أصوليات فقدت أصولها الحضارية منذ زمن بعيد، ولا حتى من أثريات مشتركة، فلكي نبدع ثقافيا (فكريا وفلسفيا) علينا أن نغامر وأن نخاطر «في ابتكار نماذج ومعارف عينية تجعل الاندراج التحضري العربي ممكنا وقابلا للحوار مع الحضارات الانسانية القائمة التي تناقضنا على حد سواء (20).

المطلوب إذن، في المشروع الحضاري العربي، كما يقول خليل أحمد خليل، هو إبداع ذاتية حضارية عربية من ذات الواقع الحاضر لأجل الاندراج في مسألة التحضر العالمي المقبل، فبدلا من سؤال كيف كنا منذ كذا تسأل الفلسفة لعربية الراهنة، كيف نولد الآن حضاريا في ظروف العالم الجديد؟ وبدلا من سؤال ما هوية اسلافنا، تسأل هذا الفلسفة : ما هوية عرب هؤلاء الأسلاف بعدما شهدت حضاراتهم ميتات وحيوات لا تعد ولا تحصى(21).

2ـ الوعي بالذات وعدم الضياع في التراث

وهو يقابل الشكل الأول والذي هو «وهم الحداثة»، وهو رد عليه، لكننا نجد أن ذلك وهم أيضا. الحضارة الاسلامية قد اكتملت دورة نموها وأقفلت دائرتها بتبدد السلطة العثمانية عام 1923. فالقول بامكانية قيام حضارة اسلامية جديدة، بمعنى تنظيم شامل اجتماعي وسياسي واقتصادي وثقافي يقوم على أساس ديني، برأينا، لا يمكن أن يحدث نظرا لضرورات مفهوم الحضارة أن

«تعيد» كل الحضارة الاسلامية نفسها. ومن هنا فان «التراث» أي مجموع الانتاج الثقافي الذي أنتجه البشر المسلمون، لا يمكن بحكم التعريف ذاته إلا أن يكون ذا طبيعة «تاريخية» أي على صلة بالماضي وحسب، ومن ثم فلا وظيفة له، لا في وضعنا الحاضر ولا حتى في حالة قيام حضارة إسلامية جديدة. وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن التراث التاريخي الاسلامي انما هو مجرد تاريخ وليس إطارا «مرجعيا» لنا. واعتباره كذلك انما هو من الأسباب لحالة الضياع الثقافي العربي. فرواسب الثقافة الاسلامية التقليدية والتي لا تزال فاعلة من خلال تعلقها بأذيال التدين الاسلامي ساهمت في الابتعاد عن الفعل الحضاري. إنه منذ القرن السادس الهجري وبعد هجوم أبي حامد الغزالي على الفلسفة والفلاسفة أصبح الاتجاه العام في الثقافة العربية يسير في خط إدانة الفلسفة والعقل الناقد. ولذلك عندما نتحدث عن الثقافة، علينا أن نعي اننا نتحدث عن ثقافة تعكس واقعا تاريخيا لم نصنعه نحن ولم نصنع ثقافته، وانما فرضت علينا، علينا أن ننقدها وأن نكتشفها وأن نكون على وعي بذاتنا، والوعي بالذات يكون على مستويين : مستوى وعي الأمة بذاتها، والمستوى الثاني وعي المفكر فردا برسالته وقدراته والمقصود هنا هو المستوى الأول (وعي الأمة بذاتها) واذا كانت لكل أمة فلسفة تعبر عن رؤيتها المتميزة للإنسان والمجتمع والكون وموقفها من ذلك، وإن هذه الفلسفة لا يمكنها أل تكون إلا في إطار ثقافة ليست متميزة عن غيرها وحسب، بل تعي هذا التميز (ونقصد به محض الغيرية، بلا إضافات من استعلاء أو غيره). فإن الموقف الثقافي العربي ينبغي أن يبدأ من الوعي بالذات المباشرة.

وإذا كان العالم اليوم تسوده معرفتين، معرفة تقنية ومعرفة سياسية، وهاتان المعرفتان يتوسلهما الغرب للسيطرة علينا، فبماذا نقاومه؟ هل نقاومه بأصوليات دينية علموية / فقهوية؟ أم بفلسفة عربية، علمية ابداعية، سياسية، تتمثل المأثور بأصالة وحرية، ونتعلم من الآخر بكل حرية واستقلالية(22).

ان المطلوب لكي نحيا ونبقى، هو أن نبدع «ذاتنا العربية من الذات لمحلية ومن الذات الإنسانية الشمولية معا». إننا بعد فلسفة التحرير التأملية التي شهدها الوطن العربي منذ مطلع القرن العشرين حتى اليوم، بحاجة إلى فلسفة تحرير نشطة، فعالة، مشاركة في فهم الواقع الحي وتغييره، فبينما الأصوليات المحلية والغربية تسعى إلى إعادة كبت الفيلسوف الأكثر جدلا والأكثر سؤال وتساؤلا. فإننا من الزاوية القومية مطالبون بتحديد ونقد ما هو سائد ثقافيا وفكريا في المجتمع العربي المعاصر، وذلك تمهيدا لتعيين دورنا في العالم المعاصر حضاريا وثقافيا.

ولهذه الغاية فإننا بحاجة الى مفكرين، بلا أقنعة، إلى مفكرين أصيلين، لا يبدلون جلودهم وأسماؤهم، وأقلامهم كلما اقتضت الحاجة أو المصلحة السلطوية، غير المتصلة حقا بروح الأمة أي بمعنى وجودها في عصرها فالمفكرون العرب الأحرار هم وحدهم الذين يمكنهم المشاركة تاريخيا في إنتاج رؤية فكرية نقدية من أجل إنتاج رؤية تاسيسية لمباني الثقافة العربية في هذا

القرن.

3ـ رؤية المستقبل

ان ضرورة رفض واحدية الحضارة ووحدة العصر، ووحدة العقل، وكذلك رفض الخضوع للغرب يستلزم منا الاهتمام بتعدي الواقع الغث الذي نعيش فيه، وبمشكلات الدفاع عن الذات التي تلجئنا الحضارة الغربية اليها لالهائنا عن إبداع مشروعنا الحضاري بهدف إدراك مشكلات المستقبل الكبرى، حتى نستطيع ملاقاته على نحو ايجابي، ومن أهمها نتائج الثورات العلمية والتكنولوجية الهائلة، ونضعها بصفة عامة في إطار «الإنسان والآلة» والآثار السلبية الخطيرة الناتجة عن سيطرة الحضارة العدوانية (على الطبيعة وعلى الآخرين بل على ذاتها)، بما يمكن أن يؤدي الى جنون «الانسانية» المستقبلية إذا استمرت سيادة الحضارة الغربية. إن الحضارة الغربية، بوصفها حضارة استعمارية استعبادية، وتسعى لقهرنا، ومنعنا من بلورة مشروعنا الحضاري المستقل، إنما هي حضارة أمم سيدة نفسها وحرة في بلادها، بل وفي بلادنا أيضا، سلاحها في ذلك العلم والمعرفة العلمية اللذان تحولا مؤخرا إلى أصولية علمية أو علموية.

ومن هنا، فاذا ما أردنا ثقافة عربية هادفة الى أداء دور فاعل في مشروع حضاري عربي حر ومستقل ورؤية واضحة، فإنه لابد من متابعة العلوم في أحدث ما توصلت اليه، ونقد هذه العلوم وتطورها، واستنباطها لتكون صالحة للتمثل في ذاكرتنا الحية، والتوظيف في فاكرتنا العقلانية، كمعارف علمية قابلة للتطبيق، وهذا يستدعي من ثقافتنا تجاوز التصور اللاهرتي واللاعقلاني، وأن تستفيد من المناهج المعاصرة، وأن تنفتح للعقل، وأن نتغلب على الانفصام القائم في الشخصية العربية والثقافة العربية فيالوقت الحاضر، ما بين تراثي مغلق في حقبة تاريخية معينة، يعيد إنتاج نفسه من خلالها باستمرار، وحداثي يعتقد ان الحداثة هي لوك؛ وسبنسر وهيجل وغيرهم من فلاسفة الغرب، فيعيد إنتاج «حداثة مزورة».

4ـ الاستقلال والحرية الفكرية والسياسية

ونعني بالاستقلال هو استقلال المبدع المفكر إزاء أساتذته وإزاء التراث وعلى الأخص بإزاء الفكر الأجنبي، ووسيلة الاستقلال هي إرادة الاستقلال، وهذه تتطلب استعدادا شخصيا ومناخا عاما يؤكد الاستقلال، وإلا فلا استقلال ولا حرية فكرية في مناخ يعلن فيه ان الحضارة واحدة، وان الأوروبيين أساتذتنا، ولا في مناخ يراد فيه فرض فكرة العصر الواحد، وان الغرب هو موجة العصر، والعلم علمه، والفكر فكره... ولا في مناخ سياسي واقتصادي نخضع فيه للتعليمات التي تصدر من الغرب ومؤسساته المالية والاقتصادية.

ان توافر المناخ الاجتماعي السياسي، القائم على الحرية واحترام الفكر، واحترام حق الاختلاف في الرأي، وعدم ممارسة الارهاب من أي مصدر كان هي الشروط الموضوعية الأساسية للمفكر. فالموقف الذي يذهب اليه السياسيون الحاكمون، والقائل بعدم اتساع السياسة للفكر، ولأن بامكان السياسة الاستغناء عن عقل المفكر، هو موقف مرفوض، على المفكر العربي مجابهته، لأنه لا

جدل التحرر في علاقة الأنا بالآخر

د. رفقة محمد دودين

شكّل موضوع اللقاء الحضاري مع الغرب في صورة علاقة الأنا الفردية والجدل بالآخر المتفوق الغالب المهيمن قيمة أساسية من قيم الفكر العربي، حيث انصبت سجالاته على مناقشة هذه المسألة ورصد أبعادها المعرفية والاجتماعية والفنية، خاصة وأن الحضارة الغربية تشكل مركزية مستقطبة لا يمكن لأي أمة أو دولة أن تكون بمنأى عن هذا الاستقطاب، مما نوع وعدد صور العلاقات المنعكسة في الإرث الفكري فبدت في بعض الاحيان في صورة الصراع مع الغرب، وفي أحيان أخرى في صورة اللقاء الحضاري المؤطر بعلاقات المثاقفة في صورتها الكولونيالية، حيث يسير المغلوب في أثر غالبه محاولا تمثل حضارته وتقدمه، وهنا يكون اللقاء على محك الاختبار بين حضارة وثقافة تفرض الإندحار أو النفي ودائرة في فلك المركز المهيمن. وهنا يكون السجال الحضاري بشكل عام على أشده في المتخيلات الروائية مثلا بوصفها حاملا معرفيا على أدبيتها وأثرها الجمالي.

والأدب من أهم الأعمال التي تمثلت هذا الموضوع وساجلته واختبرت رسالته الحضارية بردود الأفعال المتباينة ليكون سؤال التوفيقية بين ثنائيات هذا اللقاء أحد الآثار المعرفية لهذا المنتج الفكري وصولا إلى مرحلة التقويض لهذه الثنائيات والتي تساوقت مع فتوح المدارس الفكرية والنقدية وبحوث مرحلة ما بعد الكولونيالية والتي وضعت العلاقة بين الأنا والآخر على محكات جديدة تبتعد عن فكرة المجاورة والاضافة الكمية إلى فكرة الاختلاف والمغايرة ونقض الخطاب العالمي المهيمن من داخله، من داخل تناقضاته التي ابتنى بالاستناد اليها فكرا وممارسة ترتكن إلى هذا التفوق، وإلى هذه المركزية وصيغها الديمقراطية والجماهيرية كونها المحطة الأخيرة، وهي التي استندت إلى دراسات ومقالات كمقالة فرانسيس فوكوياما «نهاية التاريخ» والتي قصد بها نهاية مرحلة وبداية أخرى جديدة هي مرحلة الاستمرار مع الديمقراطية الغربية بوصفها النموذج القدوة التي أثبتت انتصارها في الصراع، وبالدعوة الى ضرورة إعادة بنائها في الدول الأخرى بوصفها جسر العبور للانتماء إلى الغرب أو الشمال في المنظور الاقتصادي التنموي بالنسبة إلى أهل الجنوب القديم الجديد، وفي الإطار نفسه أيضا يجري الإعلاء من شأن الاصطدام الحضاري كما نظّر له هنتنغتون في مقولاته حول صراع الحضارات(1).

إن مرحلة ما بعد الكولونيالية في العلاقة بالآخر المتقدم والمتفوق تشهد مناخ ثورة معرفية عارمة في المجال التكنولوجي والاتصالات متزامنة مع دعوة إلى مفهوم العولمة الداعي إلى ثقافة عالمية لها مفاهيمها

ومعاييرها بهدف ضبط سلوك الدول والشعوب من خلال بناء العلاقات الاجتماعية التاريخية والحضارية والثقافية للشعوب.

لذلك فإن المواقف من اللقاء الحضاري مع الغرب والتي سبقت دراسات ما بعد الكولونيالية، قد باتت مواقف مشكوكا في إمكانية بقائها فاعلة في ضوء المتغيرات الحديثة ودعوات ما بعد الحداثة، حيث أصبح الموقف الرافض للغرب والمستعدي له الذي يشعر بنفي الذات والخصوصية الحضارية أمامه، والموقف الذي يرى بتمثل النموذج الغربي تمثلا كاملا والثالث المتمثل في رد فعل نقدي توفيقي يقول بأخذ ما يتلائم مع خصوصية الثقافة والتركيبة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات العربية، وإطراح ما يتنافى ويتعارض مع الثقافة المخصوصة مواقف يشك فيها لاسحالةرفض الغرب والاحتماء بالأنا أمام تنوعه وتعدده والذي يبدو كإعصار لا يمكن الوقوف أمامه أو تجاهله بالثنائيات المعتادة والقائمة على أن الشرق شرق والغرب غرب مما يستدعي تفويض هذه هذه الثنائيات واختبار الأبعاد المعرفية الجديدة للصراع مع الغرب من خلال المحتوى الإتداعي وفقا لمستنجدات الفكر وعدّته المفاهيمية من أدب ونقد التي حررت الثقافة في دراسات ما بعد الحداثة من منطلق الشبيه الحداثي مقابل منطق المختلف ما بعد الحداثي، ومقابل دعوات علم الجمال الجديد الذي يتضمن انكارا لمبدأ السلبية والمعنى التقليدي، و تشجيعا لفن لا يهف إلى غاية محددة، ففي علم جمال ما بعد الحداثة لم بعد الانسان هو المعيار الذي تقاس به الأشياء من حوله، ولم يعد مركز الكون، ولهذا يدعى إلى الاستمتاع بإحساسنا بالأشياء كما هو، وهذه الدعوة تبناها المفكر ليونارد ماير، كما أن الدعوة التي جاء بها ليزلي فيدلر في حديثه عن ولادة فن ديمقراطي جديد يستطيع رأب الصدع بين الثقافة الرفيعة وثقافة الجماهير. ويستطيع تفكيك الاستقلالية النخبوية للحداثة، فن غير شفاف يقاوم الاستهلاك والتأويل، فن يخرق الإجماع بدلا من الإجماع، ويمارس الحرية بسمات تعددية ومن خلال ديمقراطية الحصول على المعرفة، كما أن الدعوة إلى سياسيات الرغبة القائلة بأن العقلانية قد فشلت، ومن ثم ينبغي العودة إلى الجسد وهي ترد على انهيار ما يسميه فرانسوا ليوتار بالحكايات أو السرديات الكبرى.

إن جدل التحرر بين الوطن في خاصة وعامه وبين الغرب، ومن خلال علاقة الأنا بالآخر قد شكلت في الرواية العربية ثيمة إشكالية، فخلفية التلاقي والتجاذب بين حاجات المجتمع العربي في التقدم والتحضر ممثلة بالأنموذج الحضاري الغربي الناجح تظلّ مقتحمة بالوجه الاستعماري المنفر مما أدى إلى تأسيس خطاب مثير حول حقوق الإنسان المختلفة وحول تراتيب القمع في المجتمعات العربية و حول المجتمع الحر والمواطن الحر القادر على المواجهة خلافا للمجتمع المكبل الذي سيظلّ هشاً قابلا للتداعي ثم الاستنكار إزاء أول صدمة من هنا برزت فكرة الاختماء بالغرب وتمجيده والاستهتار بالسلطة من أجل مقاومة القهر والموت والاستبداد والدعوة إلى حياة ليبرالية تحترم حرية الفرد ولا تعامله كترس في مؤسسة القبيلة وكذلك الدعوة إلى ديمقراطية

ترفض الاستبداد وتدعو إلى أشكال التراضي الحرّ بين أناس أحرار كونها سلطة الشعب معبرا عنها بواسطة مؤسسات يتم انتخابها بشكل عادل وهي تشكل ضرورة من أجل النهوض ومن أجل الحفاظ على الكيان العربي ذاته.

لقد توقف الخطاب العربي أمام سؤال الهوية بصفته سؤالا رئيسا يفرضه التساؤل عن الذات وبعثها كجزء من بعث الأمة، وهو سؤال الهوية يتمثل فيه حضور الآخر الغربي بما يترتب على هذاالحضور من مساس قوي بالهوية العربية حيث أن هذا المفهوم التاريخ كأساس معرفي، وبوصفه يكرس العناصر الثابتة المتراكمة عبر العصو والتي تشكل درعا للحقيقة حقيقة الأنا والآخر في عبورهما التاريخي للمتغير، وحيث يقتسم الأنا والآخر قدرا متساويا من مشاعر الخوف من بعضهما بعضا بعد أن تمتع الآخر الغربي طوال حقبة المدّ الاستعماري بامتياز تقويض الآخر بدائيا كان أم شرقيا أم جنوبيا.

لقد تعرض مفهوم الهوية ذاته إلى تشكيكات معرفية وفلسفية، جعلته مفهوما يمكن استبعاده بوصفة ليس بالمبدأ الفطري، ولأنه ينبثق من نزوع طبيعي في العقل إلى أن يكتسب ثباتا واستمرارية يعني توحيدا أدمج به ما هو متعدد وسمي بمبدأ الهوية أو مبدأ الذاتية، فالذاتية أو الهوية هي ثبات الشيء على حال واحدة، خلال تغير مفروض في لحظات الزمن، وهي في الفكر العربي مشكله تتصل بهوية المعنى من هنا اقترح الفكر الغربي وخاصة جاك دريدا الانتقالية من فلسلفية الهوية إلى فلسفة الاختلاف ثذرثقثببهي ذلك أنها كأصل والأصل مثلوم دائما، والهوية وتاريخ كل أمة عموما، إن هما إلا نتيجة استبعادات عديدة ونتيجة تهميش للإسهامة الممكنة أو الفعلية للآخر بل لأكثر من آخر فالغرب يهمش الشرق ويرعى التكافل ما بين السلطة والمعرفة من هنا فإن دريدا يرى أنّمجمل الثنائيات التي استمد منها الغرب انطلاقة وقوة ثنائيات المركز والأطراف، المتن والحاشية، الكتابة والكلام، الغرب والشرق تحتاج إلى تجاوز وتقويض، أو على الأقل إلى فضح تكافل المعرفة والسلطة فيها، ودفع العملية النقدية إلى أقصاها، أي تنمية معرفة النقد ونقد المعرفة، ذلك أن الغرب الأوروبي هو الذي منح التميزية المرتكزة إلى هذه الثنائيات صفة مؤسسية وحولها إلى عنصرية دولة (10).

إن إعمال النظر الفكري في علاقة الأنا بالأخر لابد وأن يقودنا إلى الحديث عن الخطاب الاستعماري كما طرحه ادوارد سعيد، وهو خطاب تلتحم فيه القوة السياسية المهيمنة بالمعرفة والإنتاج الثقافي(11)، وهذا سلط الضوء على الدراسات ما بعد الاستعمارية والتي تقول إن الثقافات التي عانت من الاستعمار أو من الحالة ما بعد الاستعمارية تعيش حالة من الهجينية تجعلها خليطا من المحلي والأجنبي، مما يجعلها تقبل نوعا من التعددية الثقافية والانطلاق منها في العمل الثقافي وخاصة الترجمة(12).

لقد كان للمفكرين الأوروبيين الدور الهام في كشف الخطابات الاستعمارية وما بعد الاستعمارية والتي دعت المفكرين العرب أمثال حسن حنفي إلى طرح فكرة الاستغراب مقابل الاستشراق وهي الفكرة التي نادت بفك

عقدة النقص التاريخية في علاقة الأنا بالآخر(13) عقدة النقص هذه التي جلاها الفكر الغربي مرسيا نظرة نقدية صارمة نحو الاستعمار الأوروبي في تعاطف شديد مع الدول المستعمرة التي خرّب حاضرها وماضيها، وخاصة كتاب فرانتز فانون الذي نشر عام 1961 بعنوان «المعذبون في الأرض» وفيه مقالته الشهيرة حول الثقافة الوطنية للشعوب المستعمرة(14) حيث أن الآخر لا يمكن أن يتقبلك إلا بعد ذوبان هويتك الثقافية وتحولك إلى صورة مما يود أن يراك عليه، لذلك يجب على المثقف العربي مثلا أن لا يكون رد فعل لنظرة الآخر له(15).

لقد كشف فرانز فانون عن طبيعة العلاقات الثقافية التي تربط بين المثقف المستعمر والغرب مفترضا أنها تتم على مراحل تبدأ بمرحلة لتماثل الكامل، وفي هذه المرحلة يسعى المستعمر لاستيعاب ثقافة الآخر الغربي ساعيا إلى مرحلة تماثل كامل(16) وهذه المرحلة مرحلة هيمنة عنصرية وتنميطات تمييزية قائمة على أساس ثنائية الفوقية والدونية، وفيها يتم زرع صورة القاهر في المستورات الأعمق من الثقافة الأصل(17) والمرحلة الثانية مرحلة محاولة استعادة الهوية الخاصة(18) وتتميز هذه المرحلة بكونها مرحلة يقظة وتثمينا للذات، وهي مرحلة خصبة تمتد إلى الماضي كي يلهب الحاضر ويعيد تأطيره(19) أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة الإنتاج الثوري وهي مرحلة المعركة التي يتحول فيها المثقف إلى موقظ للشعب، يدفعه للوعي ولبناء وتأكيد الشخصية الوطنية، وأحياء الثقافة الأصلية بتأسيس قاعدة ثقافية متينة، وفي هذه المرحلة فقد يحل نظام استبدادي محل آخر وطاغية محل آخر، ولا يمنع توقف هذه الدائرة القاتلة سوى التوازن الثقافي الوطني التعددي حيث يقع على الأمم في مرحلة ما بعد الكولونيالية تحويل الهوية الثورية إلى هوية ديمقراطية(20).

إن دراسة منطق الغرب الانتصاري القائم على ليبرالية السوق والديسمقراطية الانتخابية كنظام عالمي نهائي ووحيد هو في خاتمة المطاف نهاية للتاريخ؟ تتوهم الرأسمالية أنها قامت بتحقيقها، هو أحد دوافع إعلاء معقل الهوية الوطنية ذلك أن الآخر المتفوق يعتبر مفهوم الهوية لاغيا في نظره للذات وللآخر(21).

إن هذا المشروع الذي ينهض على إضاءة ثم تجسيد الفصل بين المستعمر والمستعمر بهدف ايضاح الزائف والوحشي والمحتوم تاريخيا في العلاقة بينهما، وبهدف تحفيز الفعل والمضي به إلى مرحلة إسقاط الاستعمار ذاته، ومناقشة مفهوم الثقافة الوطنية والتعدد الثقافي والأصالة، وكذلك دراسة علاقات القهر والتحرر والثورة مثلما في رصد مآلات العنف والتمرد والاحتجاج والعنصرية عبر جدل القهر والقاهر، واستلاب الهوية، يصف علاقات الخضوع للغالب وآليات القهر ومنها الاعتلال النفسي الناجم عن سيرورات الاستعمار والشعور بالاغتراب الذي اعتبره فانون تجربة فردية وجمعية حين تمتد إلى تبديد وتعطيل ثقافات عاشت آلاف السنين في نفوس أبنائها، حيث أن حيوية الثقافة وقدرتها على مقاومة الإفناء مرهونة أساسا بشرط أبنائها لماهية ذواتهم وماهية هويتهم، المفترض أن تقف أمام إحلال أساطير الدونية الثقافية Inferiority لتتغلب

على عقدة الذنب الأبدية حيث تبدأ العافية النفسية من مرحلة تجريد القاهر من صورته المبهمة، وكشف الأوليات الحقيقية التي تسير مجتمعه(22).

من هنا فإن مفهوم الأنا في علاقته بالآخر ويرتكز هنا على تبني المعيار القومي، حيث أن الفكر القومي وليس قيم العدالة الذي يحول الأرض إلى أرض سياسية ، ثم يربط بين الحق على الأرض وبين وجود الأمة(23) قد تجاوز الموقف الرافض والتوفيقي والمتعاون حين أصبح الآخر ببعده السياسي وليس الثقافي عنصرا من عناصر مشروع الهوية الجديد(24) والقائم على نفي الخصومة واستبدال مفهوم الهوية بتعددية متلاحقة أو متزامنة لهويات مختلفة في ظلّ طوباوية المسعى إلى مساواة لا يمكن أن تتحقق إلا عبر فرضها، وليس استجداءها فلا يمكن أن ينظر إليك كند دون أن تفرض أنت على الآخر علاقة الندية(25)، وبما أن التركيز في المنظومة الأبوية يجب أن يكون على أشكال الممارسة الفعلية في المجتمع وخاصة آليات الاستبعاد والنفي للآخر والتي ناقشها فوكو عندما تحدث عن تضافر السلطة والمعرفة المنتجة للخطاب، والتي تجعل إنتاج الخطاب إنتاجا منتقى، ويخضع للمراقبة والتنظيم وإعادة التوزيع من خلال عدد من الإجراءات التي يكون دورها الحد من سلطاته ومخاطره والتحكم في حدوثه المحتمل من خلال إجراءات المنع والنفي، فإن دراسات ما بعد الحداثة حين تناقش قضية الفكر الوطني وفكر علاقة الأنا بالآخر تفترض تجاوز الاضافة الكمية أو التعددية الثقافية بمعنى المحاصرة، بل تهدف إلى تكريس خطابات مغايرة تحترق جدار الخطابالمهيمن، للوصول إلى شكل المغايرة طبقا لجدلية هيغل والتي تتضمن مرحلة الفهم، فهم الخطاب الزبوي واستيعابه، ومرحلة العقل الجدلي أو السلبي بابراز تناقضاته وخاصة بين الفكر والممارسة الواقعية، ثم مرحلة العقل الايجابي الموصل إلى رؤية جديدة تشمل المرحلتين السابقتين من أجل توفير أرضية لبنى بديلة(26). ومن هذه البنى البديلة النفترضة دمج الخاص بالعام، لأن استمرار فصل الخاص عن العام فيما يتعلق بالمرأة مثلا يعني الحفاظ على الوضع القائم المستند إلى تقسيم الأدوار وفقا لمفهوم الجندر، ذلك أن المرأة عندما تكتب الوطن لا يمكن أن تنفصل عن الخاص، بل إنها تسعى إلى التحرر من محدوديته عبر هدم الحواجز، الوهمية المقامة بين الخاص والعام، وعبر كتابة تستجيب للشروط الجمالية المؤسسية وتضوب بقوة الرؤية المعرفية السائدة، مما يؤدي إلى خلخلة الخطاب الأبوي المهيمن، ومنبع هذه الخلخلة هو التصور الدائم الخالد لمفهوم الوطن، وبالتالي فإن كل ما يغاير هذا المفهوم ويخرج عليه هو بمثابة تهديد للسيادة المطلقة التي يتمتع بها الخطاب الأبوي، ذلك أن الاعتراف المؤسسي بمشروعية الكتابة وقبولها يكون بقدر ما يتوافق التخيل النصيّ مع التخيل المجتمعي(27).

إن وضع الحدود بين الخاص والعام في المجتمع ليس من باب المصادفة أو عفو الخاطر، فالحدود لا توضع مجانا والمجتمع لا يتلاعب بالتقسيم لمجرد رغبته في تجزئة العالم الاجتماعي، وإنما لأن الحدود الموضوعية تجسّد غالبا توزيعا غير عادل للسلطة يربط بين مجموعة وأخرى

في إطار علاقة تراتيبية محدودة ودائبة التكرار بنفس الصيغة(28) لذلك فإن من المهم اختيار الطرح السائد والخطاب السياسي أيضا الذي يبدو متماسكا ورافضا لكل ما من شأنه تعكير صفو تجانسه وتراتبه في المجتمع، وفي الاستحقاقات التي يقدمها هذا الخطاب المعرفي في سبيل خلخلة تجذره وعدم قبوله بالآخر إلا وفق اشتراطات خاصة، رغم أنه تشكل اجتماعي مهدورة طاقاته، ويتميز بطبيعته الانتقالية وبدروب شتى من التخلف والتبعية، وهذا كله متجسد في تنظيمه السياسي والاجتماعي والثقافي، وهو تشكل غير مستقر تنسخه التناقضات والنزاعات الداخلية كما يرى هشام شرابي في حديثة عن أبوية المجتمع العربي(29).

لقد شهدت المرحلة التي سميت ما بعد الكولونيالية التقليدية اجتياحا ثقافيا غربيا للشرق العربي ممثلا بانثيال ثقافي أوجد مصطلح الغرب مدمجا بمفهوم الحداثة، مما أدى إلى توحيد الصلة بين مفهوم الحداثة والتقدم في مقابل ربط مفهوم التقليدية بالتخلف، ذلك أن التباعد الزمني بين الشعوب الغربية والشرقية الذي أوجد هوة هائلة في مجالات التقدم المختلفة وخاصة التفاتة منها دفع علماء الأنثروبولوجيا لدراسة هذا التباعد وعلى رأسهم جوهانس فقيان الذي أطلق صرخة «إنكار المعاصرة»(30) التي تفضي بعدم ثبات المفاهيم التي تدور حول ضرورة التناقض بين الشرق والغرب، وبعيدا عن نظريات ايجاد الأشباه في العلاقات التي تربط بينهما بوصف أن كل إضافة في معرفة الآخر هي إضافة مهمة لمعرفة الذات، ذلك أن العلاقات التاريخية بين الشرق والغرب حتى في المرحلة التي شكلت فيها الحضارة العربية الإسلامية مركزية حضارية انتجت وعيا مشتركا وثقافة تمحورت حول علاقة الذات بالآخر وأن أية ذوات لن تكون إلا بالتعالق مع الآخر.

وهذا قد جعل البحث عن ذات الآخر أحد الجوانب المهمة في البحث عن الذات التي يكون التعدد حقيقيا والحوارية قابلة لأن تختبر اطروحاتها الأخلاقية والإنسانية، وهذا ما اقتضى ضرورة النظر إلى الغرب على قاعدة التعدد والاختلاف أيضا، فالغرب ليس عالما متجانسا ولذلك فعندما ننظر اليه كوحدة وليس تعددا فإنها تقع في أحد موقفين : إما العداء المطلق للغرب، وإما الارتماء الكامل فيه(31) مع ملاحظة أن العلاقة بالغرب ارتهنت دائما لثقل الراهن العربي وما يفيض به من أزمات ومن تطلعات نحو مجاوزة هذه الأزمات، وخاصة على صعيد القضايا الوطنية المرتهنة لغلبة السياسي فيها والثقافي والتنموي، كقضية فلسطين مثلا التي تشكل مركزية قارة ترتبط بتجلياتها وتفاعلاتها مختلف جوانب العلاقة مع الغرب بوجهه الحضاري ووجهه الكولونيالي المرتبط الإسرائيلي، وخاصة الانتهاكات في مجال حقوق الإنسان مما جعل العداوة لهذا الغرب صورة تكمن في المتخيل الشعبي العربي كما أوجد مظهرا لعداوة كمنت في المتخيل الشعبي الأمريكي مثلا كما يرى ادوارد سعيد تجاه العرب، في واقع موضوعي اتسم بغياب فهم الغرب من قبل العرب أيضا(32) لتصبح العلاقة على حد التأرجح بين امكانية التعاطي مع هذا الغرب المهيمن المتفوق في حقول الثقافة والمعرفة في الوقت الذي تجري فيه

محاربة ومجابهة تسلطه العسكري والسياسي.

إن النظرة إلى الغرب وصور تمثلاتها في الفكر العربي لم تكن واحدة من قبل الكاتب العربي فقد ارتبطت المعالجات الكتابية بالمراحل التاريخية والشروط الموضوعية التي انتجتها منجزات تراكمية تساجل العلاقة بين الآنا والآخر، في الصورة المنمطة للآنا، والصورة المنمطة للآخر أيضا متأثرة بالظروف السياسية التي ما انفكت تفرض ظلالها وتفاعلاتها فارضة الطابع الصراعي أحيانا والطابع الإنساني في أجيان أخر، ووفق آليات تمثل المغايرة والاختلاف خاصة فيما يتعلق بإسباغ صفة الرومانسية على الشرق والمادية على الغرب دون مساءلة لهذه الثنائية الضدية التي تنقض ذاتها باعتبار أن لا الشرق كله مشتملا على الرومانسية ولا الغرب على المادية باطلاق، فهذه من الصور الجامدة التي بنتها الذات عن الآخر، وهي هينة التقض إذا ما تم سؤال الإيديولوجية المؤسطرة والتي نسجها الشرق عن الغرب، ونسجها حول نفسه أيضا، مع أن صورة الآخر قد تعددت وتغيرت تبعا للمراحل التاريخية ومفارقها السياسية، وكان لها في كل مرحلة طابع يختلف عنه في مرحلة أخرى مع تفهمنا لمسالة أن مرحلة نهاية القرن العشرين، قد اتسمت بمراجعة الأحكام المسبقة المتعلقة بالغرب وباعادة النظر في المقولات السابقة في حدودها التي شهدت وتأثرت أيضا بمرحلة خفوت صوت الإيديولوجيا، وضعف العقائد السياسية والميل المعرفي إلى النقد ومراجعة البديهيات، وقلب المنظور في دراسة القضايا التاريخية والثقافية وخاصة مراجعة التصورات المقولبة والمقولب هو الفكرة المكونة سلفا المكتسبة دون خبرة ولا تتمتع بمسوغ محدد، تفرض نفسها على أعضاء مجموعة ما ولها امكانيات إعادة انتاج نفسها دون تغيير(33).

إن مرحلة ما يمكن أن يسمى بما بعد الأيديولوجيات والسرديات الكبرى والتي قال فرانسوا ليوتار بانهيارها بوصفها تستثير المبادىء والأفكار الكبرى التي تسمى بالسرديات الكبرى، وتتكىء على أسس اجتماعية وسياسية وخلقية يتعامل معها بوصفها ثوابت من ثوابت المجتمع، وضوابط من ضوابط الأمان المجتمعي فيه، في عصر معرفي يتسم الابداع فيه والفكر بتقويض هذه السرديات الكبرى، والأسس النظرية التي تنطلق منها لصالح كتابة على غير مثال ترى الحياة وتكتسبها كما هي واقعة بالفعل باستراتيجيات متصلة بسياق التجربة ذاتها(34) لا تعني خلو سجال الغرب والشرق من أية رؤية أيديولوجية، فالغرب دائم الحضور في نطاق الفكر العربي وهذا الحضور مسألة راسخة لأن علاقة العالم الثالث عموما بالغرب تتم في إطار شمولي له علاقة بالتطور الإنساني العام، وهو يجسد الاستلاب والتحرر معا(35).

على أننا نستطيع القول بأن تمثلات صورة الغربي في المخيال العربي تتمثل بتقاطع أنظمتها الفكرية والأيديولوجية مع الفكر الغربي ومنجزه العلمي، لم يكن تكرارا متماثلا ولم يكن انتاجا متطابقا لنموذجه خاصة وقد تحركت الحدود السياسية والاقتصادية والمعرفية مزعزعة البنية الثنائية التضادية لكون العلاقة على حدي العدو والمثال(36) ذلك أن الغرب قد تكرس كحضارة

غالبة ومسيطرة تحمل في ذاتها أسباب جبروتها ويؤول اليها حمل هذا الإرث الحضاري في ظل رؤية الغرب ليس حضارة كسواه من الحضارات، إنما هو حضارة الإنسان التي بلغت الكلية والشمول، فحققت العقل والسلم الدائم والازدهار والعالة(37).

ولما كان الغرب في الكتابة العربية الراهنة مقولة تؤسس تعالقا بين مكونين، الكتابة العربية والغرب، وتعني انتقال واقع الكتابة العربية من مكان بداهة وجود الذات والاعتراف و هنا تبرز طوباوية النظرة حين يسعى إلى مساواة لا يمكن أن تتحقق إلا عبر فرضها وليس استجداءها فلا يمكن أن ينظر إليك كند دون أن تفرض أنت على الآخر علاقة الندية، ذلك الاستعمار لا يسعى لتحضير البلاد المستعمرة إلا بالقدر الذي يمكنه من السيطرة على مقدرات تلك الدول وحماية مصالحه على أن معرفة الآخر ضرورة لإنتاج وعي ومعرفة يسايران العلاقة بين الأنا واللآخر وخاصة في مرحلة بناء الذات الوطنية حين يؤول ميراثها إليها.

إن الكثير من دراسات ما بعد الاستعمار قد وجّهت للمستعمر ومن أهمها ما قدمه فرانز فانون في كتابة معذبو الأرض محللا آليات القاصر في اقتلاع أدمغة المقهورين ووضعهم في وضعية التجريد المنظم من الهوية الإنسانية والتي تؤدي إلى بروز ردود فعل مضادة تتخذ أشكالا عدة من المقاومة الثقافية تتصدى لتدميرات الاستعمار وخاصة تدميرات اللغة الأم، مما يجعل الحاجة ملحة إلى سلسلة واجتماعية وثقافية للتطهر من تشويه مرحلة الاستعمار، والاستعداد لمرحلة ما بعد الكولونيالية والمنوط بها تحقيق العدالة والديمقراطية والكرامة ولتحويل الجماعات المنصهرة المنفعلة إلى جماعات مواطنة تنعم بالحرية والديمقراطية والمساواة والحياة اللّيبرالية.

لقد حولت جدلية لوكاتش حول الذات الموضوع في دراسات ما بعد الاستعمار وخاصة جهود فانون إلى ثنائية يدخل فيها البعد الوطني المفتقد بحيث تصبح هذه الثنائية عند فانون ثنائية الذات وجدلها بالموضوع ثنائية تمثل المستعمر والمستعمَر، فهي ثنائية جدل الأوروبي بغير الأوروبي ، ليصبح تأويل هذا الثنائية ذات الأصل الهيغلي في صيغة التناحر بين أمتين تهيمن إحداهما على الأخرى، وبالتالي تعرقل إحداهما الآخرى في صعودها إلى مصاف الأمم.

لقد كان كشف التحيز الحضاري في مرحلة ما بعد الكولونيالية من أهم معطيات نقد الخطاب ما بعد الاستعماري، فالفوارق الحضارية والتصورات الماقبلية في قراءة الآخر تنعكس على الدراسات المتعلقة بالفروق المعرفية في السياقات الحضارية وخاصة في مفاهيم كالتنوير والتدين والتي تتعرف في سياق الانفتاح على الآخر الأوروبي.

وهذه المسألة تستدعى وتستوجب النظر في موقع المرأة العربية من هذه السجالات ومن هذه التحيزات في الخطاب الذي يقترن عادة وكما نظر فوكو بالسلطة التي تشكل مركزي مهيمنة إذا ما أردنا أن نجعلل منطلقات التحرر في العلاقة بالآخر منطلقات إنسانية ترتكز إلى ذات حرة لا تقيم تراتبا قمعيًا حتى في ظلّ الشعار الوذني

الكبير تعترف بالمرأة وبحقّها ودورها في محكات التحرر الوطني ولا تظل مؤطرة لها بأفكار ومعرفة جاهزة عن ترسيمات وتعريفات وتكبيلات الذكورة والأنوثة ذلك أن تجاور محور الجنس سيقود إلى آفاق جديدة رحبة من الفاعلية تتجاوز هذا المكون وتدخل في شراكة حقيقية مع الآخر بامتلاك أدوات التعاطي والتفاعل من زاوية معرفية وعقلانية لإنتاج وعي مواز ومتبادل لا يروم إلى القطع والانفصال، تبرز قضية المرأة من حيث تقهقر قضاياها وعدم ارتباطها بقضية التحرر الوطني ابتداءا لترتبط بوعي الذات من جديد عبر جدلية ماتني تعيد بناء جدلها، وتعني أن وعي الذات وحقيقتها الإنسانية الفردية لا يمكن حدوثه في النسق الفحولي، ولكنه يحدث في النسق الحر الذي يسمح للتعبير عن الذات وإنكساراتها بدخوله مقموعا وهامشا ويوميا إلى حيز القضايا التي تشكل المتن كالقضية الوطنية.

إن الليبرالية الجديدة والمعتمدة على حرية السوق وعلى عالمية الثقافة وعالمية المنتج تعني تغير المحيط ورجّ التوازنات المعتادة، مما سيشعر بالخلل وصولا إلى توازنات جديدة وبيئية منطقية متماسكة، وهذا يعني أن الخطاب الجماهيري العام الذي يعتمد الشعارات الكبيرة ينحسر لصالح خطاب منتديات متخصصة، ونحن بحاجة إلى خضات لنخلق فرص التغيير النوعي المرغوب الذي ينتقل بخطابنا إلى صيغ عصرية تراعي المصالح الوطنية العليا وتلبي المستجدات وترسخ مفاهيم المشاركة وتعزز الهوية والشعور بالكبرياء الوطني والوطن كمكان محوري هو أساس الاعتزاز، اعتزاز الإنسان بذاتيته القومية، وهويته الوطنية، وإننا بحاجة إلى الاهتمام بقوة الخطاب، وأنّ خطابنا خطاب أقوياء يجعلنا نتجاوز مرحلة أننا لا نصلح للجنة ولا نقوى على الجحيم.

الهوامش

1 - فايز رشيد، الدولة والأمة والهوية في عصر العولمة، أفكار، ع 148، ديسمبر، 2000، ص 7

2 - نفسه، ص 8

3 - فخري صالح، الأسس لنظرية لما بعد الحداثة، أفكار، ع 146، أكتوبر، 2002، ص 14

4 - جورج طرابيشي، شرق وغرب، رجولة وأنوثة، ص 15

5 - رزان محمود ابراهيم، خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة، دار الشروق، ط 1، 2003، صص118 - 125

6 - نفسه، ص 118 - 125

7 - نفسه ص 226

8 - سلمى مبارك، قراءة في تاريخية الأنا/الآخر، فصول، ع 62، ربيع وصيف، 2003، ص 258

9 - يوسف سلامة، مشكلة الهوية في الفلسفة الغربية، الكرمل، ع 50، شتاء 1997، ص 82

10 - كاظم جهاد، من الهوية إلى الاختلاف، الكرمل، ع 50، شتاء 1997، ص 65

11 - ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط3، 2000، ص 158

12 - نفسه ص 146

12 - نفسه ص 159

13 - نفسه، ص 159

14 - ضياء حسني، حسن يلقي الماضي ضلاله على الحاضر، فصول، ع 62، ربيع وصيف، 2003، ص 275

15 - رزان محمود ابراهيم، خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة، ص 226

16 ـ صبحي حديدي، بنى العنف، مسيح الثقافات المقهورة، شاعر العالم، الكرمل، ع 50 شتاء 1997، ص 58
17 ـ رزان محمود ابراهيم، خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة، ص 226
18 ـ صبحي حديدي، بنى العنف، مسيح الثقافات المقهورة، شاعر العالم، الكرمل، ص 58
19 ـ نفسه، ص 59
20 ـ نفسه، ص 54 ـ 58
21 ـ نفسه ص 57
22 ـ عزمي بشارة، في الذاكرة والتاريخ، الكرمل، ع 50، 1997، ص 49
23 ـ سلمى مبارك، قراءة في تاريخية الأنا/الآخر، فصول، ع 62، 2003، ص 264
24 ـ ضياء حسني، حين يلقي الماضي ضلاله على الحضار، ص 273
25 ـ شيرين أبو النجا، مفهوم الوطن في فكر الكتابة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2003، ص 16
26 ـ نفسه، ص 19
27 ـ فاطمة المرنيسي، الجنس كهندسة اجتماعية ترجمة فاطمة الزهراء أزريول، المركز الثقافي العربي، ط2، ص 120
28 ـ هشام شرابي، النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي، ترجمة محمود شريح، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2993، ص 22
29 ـ أسامة المقدسي، سجناء القرن التاسع عشر، باحثات، الكتاب الخامس، 1998،
30 ـ لحمداني حميد، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، ص 308
31 ـ ادوارد سعيد، العرب والغرب، ميراث الماضي، باحثات، الكتاب الخامس، 1998، 1999 ص 680
32 ـ نهى بيومي، هويات، هيئات، حدود خطاب الأصل والحاجات العيش، باحثات، الكتاب الخامس، 1998 ـ 1999، ص 40
33 ـ ميجان الرويلي، سعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، ص 68
34 ـ لحمداني حميد، الرواية المغربيةورؤية الواقع الاجتماعي، دار الثقافة، 1985، ص 308
35 ـ نهى بيومي، هويات، هيئات، حدود خطاب الأصل والحاجات العيش، باحثات، ص 41
36 ـ نفسه، ص 36
37 ـ نمر فريحة، صورة الغرب في الكتب المدرسية اللبنانية، باحثات، الكتاب الخامس، 1998، 1999، ص 207
38 ـ نجلاء حمادة، العربي الناظر إلى الغرب، باحثات، الكتاب الخامس، 2998 ـ 1999، ص 272
39 ـ الطاهر لبيب، الآخر في ثقافة مقهورة، باحثات، الكتاب الخامس، 1998 ـ 1999، ص 268
40 ـ أدونيس، وطن ليس وطنا، باحثات، العدد الخامس، 1998 ـ 1999، ص 53
41 ـ العربي الناظر إلى الغرب، ص 272
42 ـ نهى بيومي، هويات، هيئات، حدود خطاب الأصل والحاجات العيش، ص
43 ـ ضياء حسني، حين يلقي الماضي ضلاله، على الحاضر
44 ـ صبحي حديدي، بنى العنف، مسيح الثقافات المقهورة، شاعر العالم
45 ـ نفسه، ص 63
46 ـ ميجان الرويلي، سعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، ص 105
47 ـ عبد الله الغذامي، قراءة القصيدة الحرية، الأقلام، ع 5، 1992، ص 17
48 ـ نفسه، ص 19.

مقاومة العولمة : خيار، واجب أم ضرورة ؟

ابراهيم صحراوي*

يمثل مصطلح العولمة باعتباره دالا على «الاشارة إلى ظاهرة توحيد العالم(1)» أو «حركة تدويل الاقتصادات والمجتمعات التي فرضها تطور المبادلات في العالم.. واتساع رقعة المبادلات وحجمها ومجالاتها»(2) أحدث تسميات وأشكال الهيمنة الغربية على العالم اليوم. وهو من هذا المنظور يلخص جوانب كثيرة من العلاقة بين الشرق والغرب، لذا فهو من أكثر المصطلحات تواترا في الفضاءات الفكرية العربية بتجلياتها المختلفة سياسيا واقتصاديا وثقافيا واجتماعيا في الآونة الأخيرة. وإذا كان ظاهر دلالة المصطلح اقتصاديا تجاريا، فإن خلفياته وآثاره وأهدافه ونتائجه تتجاوز هذا الظاهر إلى أمور أخرى كثيرة، لأن «العولمة عملية معقدة وشاملة تنطوي على مجموعة متشابكة من العناصر المتنوعة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية إضافة إلى أنها «لا تحصل بمعزل عن انتاج فكري لتبريرها.

والعلاقة بين الشرق والغرب علاقة تكتنفها التناقضات ويسودها كثير من سوء الفهم والريبة لدى الطرفين في مستويات متعددة. لذا فالحديث عنها مشوب دائما بالحساسية فيما بينهما وفيما بين مكونات كل منهما. ولأننا ـ نحن العرب ومن في حكمهم من الجماعات أو الأعراق الأخرى التي تعيش في الحيز المعروف بـ (الوطن)؟ أو العالم العربي ـ باعتبارنا جزءا من الشرق (العالم الإسلامي)، الحلقة الأضعف في الثنائية المتضادة : الشرق/الغرب، والحلقة الأضعف كذلك ضمن مكونات العالم الإسلامي، تبدو مشروعية قرن العولمة بالمقاومة. وتظهر كذلك منطقية التساؤل عمَ إذا كانت هذه المقاومة خيارا أو واجبا أم ضرورة.

1 ـ لقد كانت العلاقة بين الشرق والغرب على مرّ العصور علاقة صراع وتصادم. صراع بين منظومتين مختلفتين (بل متناقضتين) من القيم لم تخفت حدته إلا على امتداد فترة قصيرة هي تلك التي اعقبت انتهاء الحروب الصليبية وقيام الدولة العثمانية ومباشرتها فتوحاتها وتوسعاتها في أوروبا.

وإذا كان الصراع في البداية صراعا دينيا روحيا بحتا تجسّد عبر الفتوحات الإسلامية الأولى وحروب الدولتين الأموية والعباسية والحروب الصليبية وبعض حروب الدويلات العربية الأخرى هنا وهناك حتى سقوط غرناطة، فانه اتخذ فيما بعد طابعا آخر يتناسب والوضع الجديد. الوضع الذي شهدته أوروبا مع نهضتها وبروز مجتمعاتها الحديثة. قام هذا الوضع أساسا على فكر حداثي انجز قطائع جذرية مع سابقه وبلور أسسا تختلف اختلافا جذريا عن الأسس السابقة (فصل الدين عن الدولة مثلا فيما يعرف بالحداثة). فاوصلت الغرب (بكل أطيافه والوانه الثقافة وتنويعاته الجغرافية) إلى ما

* كاتب جزائري

هو عليه اليوم من تقدم وتفوق في كل المجالات رغم بعض تناقضات بعض قيم الحداثة المسؤولة عن جزء من مشاكل الغرب الداخلية هنا وهناك(3).

أما من الناحية المقابلة فقد امتاز الوضع الجديد بخروج الريادة (الخلافة) من العنصر العربي، ودخول العالم العربي الذي هو أحد أهم مك،نات الشرق في ليل طويل من التخلف والانحدار والتدهور متعدد الأوجه لم تفلح النخب الحاكمة ومن والاها حتى ذلك الحين (إن في القسطنطينية، أو في غيرها) في منعه أو الحد منه على الأقل. بل لم تفلح هذه النخب عند أفول قوتها في منع انتقال العالم العربي من سيطرتها إلى سيطرة الغرب المباشرة هنا وغير المباشرة هناك.

كان التوسع الاستعماري الغربي إحدى نتائج الوضع الجديد. اضاف هذا التوسع للصراع بين الشرق والغرب بعدا جديدا. بعدا ماديا بحتا هو الطابع الاقتصادي التجاري في حمّى التنافس المحموم على الأسواق ومصادر المواد الأولية الضرورية للصناعات الناشئة في الغرب.

1.1 - طغيان العامل المادي الاقتصادي التجاري على الصراع دفع العامل الروحي الديني (من وجهة النظر الغربية) الى المرتبة الثانية. غير أن ذلك لم يخفف من حدة الصراع بل أجّجه وزاد من توسيع الهوة وتعميق «الصدوع الثقافية» بتعبير هنتنجتون(4) بين الشرق والغرب، الذي لم يخف قادته ومنظّروه في بدايات الاستعمار أن قوة السلاح لن تكون وحدها أداة التعامل مع شعوب الشرق والسيطرة عليها، خصوصا في ظل صفة «المزاييك» التي تطبع مكوناتها عرقيا وثقافيا واختلاف درجات استجابة هذه المكونات تبعا لذلك، بل أنه سيعوّل في هذا كثيرا على الفنون وأنماط العيش كذلك: «طبيعي أن ترويض أشخاص كهؤلاء يتم بفنوننا وليس باسلحتنا»(5). اضافة إلى أن كثيرا من رموز الغرب وقادته (ساسة أو مفكرين) كانوا (وما زالوا) يرون أن الاستعمار كان ذا وظيفة تمدينية (؟) فكانت أوصاف الهمجية والبربرية والتخلّف ملازمة في أغلب الأحيان لحديثهم عن الشرق وشعوبه. لذلك فإن تغير شكل الصراع وغلبة الصبغة المدنية عليه لم يغيّر طبيعته وجوهره وأهدافه النهائية. إذ بقيت أهداف القادة والنخب الجديدة التي ورثت قيادة الغرب (إن في السياسة أو في الاقتصاد أو في ميادين الفكر المختلفة الأخرى) هي نفسها أهداف أسلافهم من رجال السياسة والأكليروس. ذلك أن نظرة الغربيين للشرق بقيت هي هي، بل ازدادت حدّتها عن ذي قبل، رغم وجود شرائح من المثقفين وبعض الساسة ومناضلي النقابات والجمعيات مما يعرف بالمجتمع المدني، ممن كانت نظرتهم الى الشرق مختلفة إلى حدّ ما عن النظرة السائدة وتتسم بشيء من التفهم لبعض قضايا العرب والمسلمين في مجالات التحرر أو في مجالات حقوق الإنسان، إلا أن هؤلاء يبقون استثناء لا يؤثر في القاعدة. ومن ثمّ فإن منظومة القيم والمبادىء المنظمة للحياة الشرقية ظلّت هي المستهدفة وظلّ تغييرها أو تحويرها على الأقل هو الهدف النهائي للصراع. بمعنى إن وراثة الغرب الحديث لأهداف الصراع وغائيته من وراثته لنظرة أسلافه، ذلك أن

النظرة إلى الآخر تبقى دائما وأبدا متحكمة في الخلف إلى حدّ يصعب معه التخلص منها أو تعديلها بسهولة(6) لانها نتائج عقود من تراكمات وترسبات التعامل مع هذا الآخر والملاحظات المستخلصة(7). وهو حال النظرة الغربية إلى الشرق التي لا فرق في جوهرها ومضمونها لدى المكونات المختلفة للغرب لاتينية كانت أم أنجلوسكسونية أو جرمانية أو سلافية... أم خلاف ذلك. تماما مثلما هو الحال بالنسبة للهيمنة الغربية التي لم يختلف جوهرها ومضمونها (فضلا عن أهدافها) رغم التغير الدوري لمركزها : أوروبية في البداية (إسبانية برتغالية، فرنسية انجليزية) ثم أوروبية أمريكية (الاتحاد السوفياتي، الولايات المتحدة الأمريكية) ثم أمريكية خالصة... مما يترتب عنه في كل مرة تعديل طفيف في شكل العلاقة مع الشرق، وتطور في النظرة الى كيفيات التعامل معه. سواء أتعلق الأمر بالمكيافيلية والدهاء الأوروبي أم تعلق بالقوة الأمريكية الاندفاعية الهوجاء. ومثال ذلك الموقف الفرنسي ومن يدعمه من التعامل مع الازمة العراقية المختلف (شكلا) عن الموقف الأمريكي في الموضوع نفسه. وهذا الاختلاف في كل حالاته هو أثر من آثار الصراع بين أبناء العمومة الثقافية. صراع غربي - غربي يطبعه التنافس على تزعم العالم والاستئثار بخيراته مثلما كان عليه الأمر أيام الحرب الباردة حينما كان الغرب برأسين : رأسمالي وشيوعي.. مما وفّر حينها لدول الشرق ونخبه هامشا للمناورة..

طبيعي إذن أن هذه النظرة كانت وما زالت الأساس الذي تنبني عليه سياسات الغرب تجه الشرق ومواقفه من قضاياه، المواقف التي يطبعها التحيز الى غير الشرقي في كل الحالات وليس أدلّ على ذلك من المواقف المتعلقة بالقضية الفلسطينية.

2. انزياح البعد الديني عن المرتبة الأولى في مصف دوافع الصراع في الغرب كان مرادفا لبداية مرحلة ثانية من هذا الصراع تزامنت مع بداية التحول في المجتمعات الغربية ضمن ما يعرف بالنهضة الأوروبية وآثارها في أوروبا والعالم في مختلف المجالات. من هذه الاثار الحضور المباشر للغرب في الشرق عبر الإرساليات التبشيرية والبعثات التعليمية والممثليات الديبلوماسية والتجارية في موانىء الشرق وحواضره الكبرى اضافة الى الباحثين والرحالة والسواح والمغامرين من الفنانين والأساتذة وعلماء الآثار وغيرهم من ذوي المهن المرتبطة بعالم الفكر والثقافة مما يندرج ضمن الأطر التقليدية للإستشراق(8). لنصل في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر إلى الغزو العسكري وما تلاه من استعمار لأقطار الشرق مغربا ومشرقا، (استعمارا خالصا مباشرا - احتلال) ام (حماية وانتدابا). ومن ثمّ نشوء وتكون مصالح حيوية للغرب سياسية وثقافية واقتصادية على امتداد أقطار الشرق.

1.2 وبدوره دشن الشرق مع بداية هذه المرحلة مسارا جديدا أعطى للعلاقة بالآخر شكلا آخر، نتيجة لحضور هذا الآخر فوق أراضيه وما نتج عن هذا الحضور من احتكاك ولّد لدى النخب بكل أنواعها (سياسية، دينية، فكرية ثقافية أدبية، اقتصادية...) الدهشة والانبهار والرغبة في الأخذ والتقليد والإقتباس، وأدى (ضمن

أسباب أخرى) إلى ما يعرف عندنا بالنهضة العربية الحديثة التي أخذنا فيها عن الغرب الكثير وفي كل المجالات.

ومثلما حصل في الغرب حدثت في الشرق أيضا قطائع كاملة في بعض المجالات وجزئية في بعضها الآخر مع ممارسات سابقة، انتجت تحولات كبيرة وتغييرات كثيرة بدرجات متفاوتة هنا وهناك (بحسب الجهة وبحسب المجال) في مختلف مجالات الحياة وميادين النشاط، مسّت الفكر والثقافة والأدب والسياسة والاجتماع والعمران وأنظمة المأكل والملبس والمسكن والتعامل والعلاقات العامة وغير ذلك، فضلا عن الاستعانة بكل ما تيسّر الوصول اليه من الاختراعات والتطبيقات التقنية والآلية الغربية. فاصبحت المجعيات العلمية والفكرية الغربية هي التي تنظّم حياة المجتمعات الشرقية، فيما يبدو مفارقة واضحة : واقع شرقي يقرأ ويسيِّر بادوات غربية. أدوات وضعت أساسا لواقع آخر مختلف في أكثر من مستوى. وهذا سبب الخلل ومكمنه. كان التحول في المجتمعات الشرقية يتم بتعاكس طردي. إذ بقدر ما مانت دائرة التأثر بالغرب اسع وتكتسب مزيدا من التوسع ممارسة واعتقادا، بقدر ما كانت دائرة التمسك بالقيم التقليدية الموروثة تضيق وتنحصر وتتراجع الى مجالات بعينها ممارسة واعتقادا أيضا.فاصبح الشرق صورة مشوهّة للغرب وصورة غير مطابقة للأل. قائمة على التقليد الأعمى والتبعية المطلقة لدى البعض. أو التقليد الحذر لدى البعض الآخر، أو البحث لدى آخرين عن صيغ توفيقية تلفيقية قدر الامكان لا تحلّ الاشكالية بقدر ما تخفّف من حدتها. أو قائمة أخيرا على الرفض المطلق لدى آخرين. سبب هذا ونتيجته في الوقت نفسه أن أصبح لكل ما ينتجه الغرب - فكرا أو سلوكا - صدى في الشرق، فكثرت المذاهب والاتجاهات والتيارات والجماعات على امتداده من جاكرتا شرقا إلى طنجة غربا (بتعبير مالك بن نبي)، لكل منها رأي في الغرب وموقف منه ومن حضارته، فتعددت تسميات هذه الجماعات واختلفت صفاتها وتصنيفاتها تبعا لذلك. فرأينا ظهور مصطلحات التقدم والتخلف والمحافظة والحداثة والأصالة والمعاصرة والماضوية والتقدمية والرجعية والانجراف والتقليد والانسلاخ والاستلاب وما إلى ذلك مما كان يصف به الفرقاء أنفسهم أو يسمون به خصومهم. فانعكس ذلك على علاقاتها فيما بينها اختلافا أوْ تناقضا أوْ تقاطعا. وطع الفضاءات العربية بما نعرفه من خلافات وتشنجات وتعارضات جوهرية بين نخبه. وأفرز المعسكرين المعروفين : معسكر المتحمسين للغرب على اختلاف درجات هذا التحمس ومذاهيهم فيه، ومعسكر معارضيه على تباين درجات معارضتهم ورفضهم له ومذاهبهم في ذلك. ومعسكر ثالث يجاول جاهدا التوفيق بينهما والوصول الى نقطة وسط تجمع بين الموقفين. ولعل هذا الاختلاف - بل الخلاف - هو المسؤول الأول عن كثير من المعارك الوهمية والمشاكل المفتعلة والقضايا الخاطئة سيما في ظل دعم الغرب الجلي أو الضمني للنخب القريبة منه. وهو الدعم الذي مكّن كثيرا من هذه النخب من أن تكون متنفذة ومحتلة لمواقع مهمة ومؤثرة في السياسة والإدارة والإعلام والإقتصاد والتربية.

وتحكّم في تأجج صراعها مع معارضيها وتوجيه هذا الصراع الذي بعد أن كان صراعا بينه وبين الشرق، أصبح صراعا بين مكونات الشرق ونخبه. صراع بالوكالة عن الغرب ولمصلحته.

2.2 ـ كان الصراع بين نخب الشرق إذن على ضوء مواقفها المعلنة وغير المعلنة من الغرب عاملا ضمن عوامل أخرى، أهمها القضية الفلسطينية، وما انجرّ عنها من انفتاح جبهة أخرى في الصراع بين الشرق والغرب، هي جبهة الصراع العربي الإسرائيلي وتطوراته وتداعياته وإفرازاته، مسؤولا عن انسداد الآفاق في العالم العربي. وله أيضا قسط من المسؤولية في اخفاق البرامج والمشاريع والنماذج التنموية هنا وهناك في ظل عجز الدولة الوطنية في هذا القطر أو ذاك عن التصدي للضغوطات الداخلية والخارجية وتحقيق الطموحات والأهداف المرسومة. ذلك أل التناقض بين الطرفين صاحبي الموقفين من الغرب أدّى بصورة مباشرة الى اختلال معادلة الزمان والمكان في الشرق لأمر مفاده أن بعض ما كان مقبولا في القرون الهجرية الأولى لم يعد يتناسب والتطورات الجديدة التي يشهدها القرن الخامس عشر الهجري والقرون التي سبقته بقليل. بينما الغى المؤيدون للغرب والموغلون في هذا التأييد والراغبون في اتخاذه نموذجا لما ينبغي أن يكون عليه الشرق المكان. في تجاهل واضح لما مفاده أن كثيرا مما يصحّ في الغرب لا يصحّ في الشرق، لأن البيئة غير البيئة وأن شعوب الشرق المسلم وأممه، تختلف عن غيرها لأن لها حضارة مكتملة ليست قيد التكوين والنشوء بل هي قديمة موغلة في القدم وضاربة في أعماق التاريخ طبعها الإسلام وهذّبها وصقلها من جوانب كثيرة ترسخت وتأبّدت عبر ما لا يقل عن أربعة عشر قرنا من التاريخ.

ولعلّ من المفارقات الصارخة في مسار تأثر الشرق بالغرب (سلبا أو ايجابا) هو عدم إفلاح شعوب الشرق ـ على تفاوت ما بينها، أو بالنسبة للعالم العربي على الأقل ـ في اكتساب إحدى أهم حسنات المدنية الغربية : الديمقراطية واحترام الرأي الأخر. فبقيت العقلية العربية هي هي في هذا المجال. عند الخاصة وعند العامة، عند الحكام وعند المحكومين، عند المتحمسين للغرب وعند المحافظين، عند النخب وعند الجماهير تقوم على الاعتداد بالرأي الذاتي اعتدادا لا مجال فيه للتنازل، والعزوف عن الحوار وحسناته. مع ما يترتب عن ذلك من استبداد بهذا الرأي وتعسّف في فرضه على الآخرين مقابل تسفيه الرأي الآخر واصائه، مما أدى في كثير من الحالات إلى الإحتقان الذي ولّد التطرف وما انجرّ وينجرّ عنه من ويلات ومآسي هنا وهناك.

2.3 ـ تجاوز الآثار السلبية للواقع الشرقي ـ العربي منه خصوصا ـ الجدود الجغرافة للشرق إلى آفاق أخرى، (تفجيرات 11 سبتمبر مثلا) هو ما جعل الغرب ممثلا بأقوى رموزة في العصر الحاضر : الولايات المتحدة الأمريكية، يفكّر في التدخل المباشر ـ بالضغط وبالاكراه، وبالقوة إذا استلزم الأمر ذلك. كما حدث في افغانستان والعراق ـ لتغيير ما تبقى من منظومات القيم والمبادىء التي تسيّر الحياة الشرقية عموما والعربية خصوصا، بما يتلاءم ومصالحه داخليا وخارجيا في إطار ما سمي

بمشروع الشرق الأوسط الكبير، القائم أساسا على اقتراح اصلاحات وحلول جذرية لما يراه الغرب تناقضات وسلبيات مسؤولة عن تردّي الأوضاع. وهو ما أكدّه بوش في خطابه عن وضع الأمة يوم 20 جانفي 2004 بقوله : «ما دام الشرق الأوسط فريسة للتسلط والاستبداد واليأس والغضب، فسيواصل انتاج رجال ومنظمات تهدّد أمن أمريكا وأمن أصدقائنا، إذن ستتبع أمريكا استراتيجية قوامها الحرية في الشرق الأوسط. سنتحدّى أعداء الاصلاحات(9). ولا يخفى أن مشروعا من هذا القبيل هو اختصار لمراحل العولمة وتسريع لوتيرتها. لأن توحيد الاقتصادات وتسهيل التبادل التجاري يستتبع بالضرورة تغيير الذهنيات وتعديل الرؤى والأفكار لتقبّل منتوج الآخر وسلعته مادية كانت أو فكرية معنوية، مما سبقا الاشارة اليه من أن العولمة لا تحصل بمعزل عن انتاج فكري لتبريرها.

وبديهي أن فرصة هذا التدخل ستستغلّ لطرح قضايا ما كان الغرب يجرؤ على طرحها مباشرة بنفسه بل كان يقوم بذلك عبر النخب المؤيدة له أو الموالية لطروحاته. من ذلك مثلا قضية المرأة ووضعها في المجتمع وما يرتبط بها من قوانين منظمة للأحو ل الشخصية وتكييف هذا الوضع تكييفا علمانيا لا يستند إلى الشريعة أو ما تبقى منها في هذا المجال. بل يستند الى القوانين الوضعية (غربية المصدر في معظمها). ومحتويات البرامج التعليمية سواء من حيث لغة التعليم ـ مثلما هو الحال في أقطار بعينها ـ أم من حيث مضامين بعض المواد المدرّسة كالتاريخ والتربية الدينية وما الى ذلك. هذا بالطبع دون نسيان أهم شيء في هذه الإصلاحات وهو فرض الديمقراطية في الشرق بتوسيع دائرة الرأي والمشاركة في صنع القرار. واستنادا الى تصريحات ساسة الغرب وقادته ورموزه في الفكر والاقتصاد يتضح أن هذا المشروع ليس وليد تداعيات هجمات الحادي عشر من سبتمبر بل هو سابق لها بكثير انما كانت هذه الهجمات سببا في تسريع وتيرته. يقول دايفيد روثكويف استاذ العلاقات الدولية بجامعة كولومبيا واحد الموظفين السامين في وزارة التجارة الأمريكية أثناء الفترة الأولى من رئاسة كلينتون في مقال له بعنوان : «في مديح الإمبريالية الثقافية(10).. أما اللغة والمعتقدات والأنظمة السياسية والقانونية والأعراف الاجتماعية فهي إرث المنتصرين وأبناء السوق» وبعد أن يوضح أن الهدف هو أن «تصبح الجماعات المنفصلة أكثر تآلفا مع بعضها بعضا وتتحالف وتتمازج وتصبح في نهاية المطاف أكثر تشابها» يقول أن أمريكا هي المؤهلة لقيادة هذا التحول لأنها «الأمة الأساسية في إدارة الشؤون الكونية والمنتج الرئيسي لمنتجات وخدمات المعلوماتية في السنوات الأولى لعصر المعلومات» وبالتالي فإن «مصلحة أمريكا أن تشجع على تطوير عالم يتمّ فيه تجاوز الصدوع التي تفصل بين الأمم عبر المصالح المشتركة ومن مصلحة أمريكا إذا كان العالم يتحرك نحو لغة مشتركة أن تكون هذه اللغة عي الانجليزية» والأمر نفسه بالنسبة للاتصالات وبرامج التلفزيون.. ومحصلة هذا كله أنه «إذا كان يجري تطوير قيم مشتركة فانها ستكون حتما قيما يرتاح لها الأمريكيون». والقيم التي يرتاح لها الأمريكيون هي القيم

غربية الأصل والمنشإ بالتأكيد»(11).

3. إذن هل يمكن الحديث عن امكانية مقاومة العولمة عربيا على الأقل؟ وعلى فرض أنها ممكنة فهل من خيار؟ الجواب سيكون بأنها ليست خيارا، لأل الخيار يكون للإنسان لما يجد نفسه أمام بدائل كثيرة وهو ما لا يتوفر لشعوب الشرق عامة والعرب خاصة في ظل الضعف العربي العام وعدم امتلاك وسائل الرفض في هذا المجال. اضافة الى التشرذم الواهن والخلافات الكثيرة بين النخب جملة في مستوى البلاد العربية وتفصيلا في مستوى كل قطر. اضافة بطبيعة الحال الى اختلاف مواقفنا من الغرب جملة وتفصيلا كذلك. وعدم اتفاقنا على حد أدنى مما نريده منه. ذلك أنلها لا نعرف ماذا نريد منه بالضبط. بل لان نعرف عنه الكثير رغم ما يبدو من أن العكس هو الصحيح(12). هذا دون نسيان قوة جاذبية الإغراء المادي لرفاهية الغرب وما توفّره من نعيم لا تصمد أمامه كثير من النفوس. وهو مظهر من مظاهر تجلي التناقض الشرقي في الموقف من الغرب.

ـ إذن مقاومة العولمة ضرورة؟ نعم ان مقاومة العولمة أو بالأصح الآثار الفكرية للعولمة، ضرورة يفرضها الواقع والتاريخ وكلّ ما يفرقنا عن الغرب ويميّزنا عنه. خصوصا وأن الشرق ليس الوحيد في المعاناة من آثارها السلبية. ففي ظل انتظام قواها تنتظم أيضا قوى المقاومة(13) هنا وهناك خصوصا في الغرب. مقاومة تبرز في المظاهرات الضخمة المتواترة في مختلف بقاعه. سواء أتعلق الأمر بالمظاهرات التي تقام بمناسبة اجتماعات القمة الغربية باشكالها وصيغها المختلفة أو المؤتمرات الإقتصادية، أم تلك التي شهدها العالم ـ خصوصا الغرب ـ قبيل غزو العراق واحتلاله. ورغم أن هذه المقاومة (الغربية) تندرج في إطار الخصومة بين أبناء العمومة الثقافية مما سبقت الاشا رة اليه من التنافس الغربي ـ الغربي، فإنها توفر هامشا من الحركة والمناورة علينا ألاّ نهدره كعادتنا.

3.2 ـ مقاومة العولمة إذن فرض وواجب يبدأ بالاصلاح. والحقيقة أن الإصلاح حتى وإن كان مطلبا أمريكيا وكلمة حق من أمريكا ارادت بها باطلا، فهو مطلب أساسي، وأوجب الواجبات وأكثرها ضرورة في مسار مقاومة العولمة. اصلاح يطرح كل الإشكاليات العربية المزمنة للنقاش:

* قضية الديمقراطية وتوسيع قاعدة مشاركة الجميع في تقويم الوضع واقتراح الحلول وما يرتبط بها مما يعتبره البعض أزمة بين الحكام والمحكومين في انحاء مختلفة.

* طرح قضايا الأقليات وعلاج المشاكل المرتبطة بها بكل شجاعة. سواء أكانت الأقليات عرقية أو دينية أو طائفية أم مذهبية أو سياسية أو لغوية أم حتى عشائرية جهوية، وما يتربط بها مما يتصل بقضايا الحقوق والحريات الأساسية.

* قضايا الحوار بين مختلف مكونات الشرق جملة وتفصيلا، خاصة وعامة، خكاما ومحكومين ونخبا. فيؤدي ذلك إلى اعتراف الجميع بالجميع... أو على الأقل إدراك أن ليس هناك جماعة أو تيار يمتلك الحقيقة لوحده، ويستطيع تجاوز الوضع بمفرده، فالأوطان للجميع، تسع الجميع ويبنيها الجميع. وبهذا يتوقف إقصاء هذا لذاك، أو اخراج هذا لذاك من رحمة اللّه. وإذا مسّ الحوار الذي

هو أولى خطوات الاصلاح هذه القضايا الأساسية فإن الباقي سيكون تحصيل حاصل. عندها ستنحلّ معادلة الزمان والمكان في العالم العربي من تلقاء ذاتها، ويدرك الجميع حقيقة الحدود التي ينبغي التوقف عندها في رفض الغرب أم في اتخاذه نموذجا. وبذك تبرز الخطوط التي لا يجوز لهؤلاء وأولئك تعدّيها في مجال العلاقة بين الشرق والغرب، وتنسدّ الذرائع أمام القوى الغربية بمختلف فصائلها التي تغريها أوضاعنا بالتدخل في شؤوننا وفرض ما لا يناسبنا.

مقاومة العولمة إذن ضرورة، وواجب ينبغي ألا تصرفنا عنه الظروف التي تبدو في غير صالحنا منذ قرون، وألا تلهينا عنه المهدئات والمسكنات الغربية حتى وإن تعلّق الأمر بما يسمّى بحوار الحضارات والأديان أو الثقافات، الحوار الذي لا نمتلك شروطه. وإذا تعذرت المقاومة باليد أو باللسان فينبغي ألاّ تتعذر بالقلب وذلك أضعف الريمان. ذلك أن الزمن يتغيّر والظروف تتغيّر، والحضارة دورات، والأكيد أن دورتها الحالية - في الغرب - لن تكون الأخيرة مهما قيل عن انتهاء التاريخ.

نذكر ختاما بما ذكرناه سابقا من أن العولمة باعتبارها أحدث أشكال الهيمنة الغربية ليست في نهاية الأمر - شئنا ذلك أم أبينا - سوى حلقة من حلقات الصراع المرير بين الشرق والغرب بمفهوميهما الحضاريين. الغرب بحضارته ذات الأصول اليهودية المسيحية ونظامها من المبادىء والقيم، والشرق بحضارته العربية الإسلامية ونظامها من المبادىء والقيم هي الأخرى. لقد شكل هذان النظامان بالأدبيات المنبثقة عنهما، وبتنويعاتهما المختلفة (اللاتينية والأنجلوسكسونية والجرمانية والسلافية مثلا وغيرها بالنسبة للغرب، والعربية والفارسية والتركية مثلا وغيرها بالنسبة للشرق) الخلفية الفكرية الحضارية للصراع الذي اندلع منذ اربعة عشر قرنا بين نمطين حياتيين مختلفين، ما زال كلّ منهما يسعى لفرض نفسه على الآخر(14).

الهوامش :

1) د. عبد اللّه جوزف والشبكة الكيبكية لاندماج القارة الأمريكية(RQIC) عولمة ماذا؟ كيف؟ ولمن؟

2) موسوعة Encarta أنظر : Mondialisation

3) أنظر في هذا الصدد :Jean Marie DOMENACH, Approches de la modernoté, Ellipse, Paris/France 1995. V. Critique des valeurs et faillite du sens. p. 191/248

4) أنظر في هذا الصدد : روثكويف (دافيد) في مديح الامبريالية الثقافية : مجلة الحياة الثقافية. عدد 85/11/1997. الكويت

5) Toqueville sur la l'Algérie, Flammarion, Paris/France 2003 p. 52

6) أنظر في هذا المجال : رايغ (دانيال)، رجل الاستشراق. ترجمة : ابراهيم صحراوي. الجفان والجابي للطباعة والنشر. ط1 قبرص 2000م الفصل الرابع، على حافة الموسى ص 157/1223.

7) انظر : بيومي (علاء) الصورة الراهنة للإسلام والمسلمين في الولايات المتحدة، يونيو 2004، موقع الجزيرة نت.

8) انظر : رايغ (دانيال) رجل الاستشراق، الفصل الثاني، منبع الأنوار. والفصل الثالث : ميلاد الإستشراق المستعرب، ص 104/64.

9) انظر : صحيفة لو لموند الفرنسية 27/02/2004م.

10) انظر : الثقافة العالمية. العدد 85، 11/1997م. الكويت. ص 38/26.

11) انظر : صحراوي (ابراهيم)، عولمة الأدب؟ مجلة المنتدى

12) انظر : سعيد (ادوارد) مشكلة أمريكا في مرآتها غير الأمينة

وفي هامشية عناصرها الحركية المنفتحة على لعالم. جريدة الحياة 2003/03/27.

13) انظر : الهامشين 1 و2.

14) انظر صحراوي (ابراهيم). البعد الثقافي.. المسكوت عنه في حرب أمريكا.. جريدة الشروق اليومي، اكتوبر 2001م. الجزائر.

المائدة

محسن همليّ *

عند تصفّح السيد" دجفس Jeffs "لأعمدته المفضلَة بجريدة" التايمز "بعين تجارية في مكتبة عمومية عثر على إعلان لعائلة" هاموند ."سجل رقم الهاتف على قصاصة وهاتف العائلة في آخر ذلك اليوم نفسه.

"أجل، "قالت السيدة" هاموند Hammond "دون تأكد .أعتقد أن المائدة ما زالت معروضة للبيع .دعني أرى أين هي".

وتخيلّ السيد" دجفس "السيدة" هاموند "ذاهبة لترى مكان المائدة .تخيلها امرأة متوسطة العمر تميل إلى السمنة ذات شعر يميل إلى الزرقة وساقين متماسكتين تبدوان من حذاء ضيق.

"إن هذا الأمر يهم زوجي في الحقيقة،" قالت السيدة" هاموند" ."أو إني أعتقد كذلك .إذ أن المائدة لي في حقيقة الأمر .تركتها لي جدتي .نعم إنها ما زالت هناك .لم يتقدم أحد لشرائها إلى حد الآن".

في هذه الحال" – قال السيد" دجفس".

"إنه من الغباء أن أعتقد أن أحدا قدّم عرضا لزوجي، أو أنه ربما باعها .لا أعتقد أنه يفعل ذلك دون اتفاق بيننا .ذلك لأنها مائدتي .وإن كان هو الذي كتب ذلك الإعلان وتكفل بأمر نشره في الجريدة .عندي بنت قد بدأت تمشي، سيدُ دجفس .'إني منهكة إلى درجة تمنعني من التفكير في نصوص الإعلانات".

"بنت صغيرة .طيب، هذا جميل، "قال السيد" دجفس "وهو ينظر إلى سطح بيته دون ابتسام" .هو ذا الذي يجعلك منشغلة، أليس كذلك؟"

"لماذا لا تأتي لترى إن كانت المائدة تعجبك؟ إنها أصلية وعادة ما تجلب انتباه من يراها".

"سأفعل ذلك، "قال السيد" دجفس "ثم ضرب موعدا .

وضع السيد" دجفس("وهو تاجر أثاث قصير القامة) السماعة ثم بدأ في اختبار صوت السيدة" هاموند ."تساءل إن كان صوتها صوت امرأة تعرف كوعها من بوعها إذا تعلق الأمر بأثاث قديم .لقد كان مخطئا عندما اعتقد أنها متوسطة العمر ومشحمة .ما دامت أمًا لبنت في أول خطاها فقد كانت أصغر من ذلك .ولأنها كانت تتكلم عن الإنهاك فإنه تخيلها هذه المرة تحتذي بابوجا ناعما وقد انسدل البعض من شعرها على جبينها" .إنه صوت مثقف، "قال السيد" دجفس "لنفسه .ومضى يعتقد أن عائلة" هاموند "ثرية وربما لها خادم أو اثنان رغم ذلك الكلام عن الإنهاك .وقام السيد" دجفس"، الذي كوّن ثروته من الاهتمام بتلك التفاصيل المقلقة عن حرفائه، يمشي الهوينى على الأرضية العارية لبيته الفكتوري، يستنشق الهواء ويعيد التفكير من جديد في موضوع المائدة .كان الأثاث حوله مكدّسا يترقب من يشتريه.

* أستاذ بمعهد الصحافة

نسيت السيدة" هاموند "كل ما يتعلق بالسيد" دجفس "لحظة توقف صدى صوته في ذاكرتها .لم يبق من السيد" دجفس "شيء لأن صورته لم تتكون في ذاكرتها عندما تحدثت معه .كانت تعتقد أنه صاحب متجر؛ كان صوته يشبه صوت تاجر مواد عامة يقاطع طلب بضاعة أو صوت شخص داخل قسم المجوهرات في مغازة" ليبرتي ."وعندما علمت السيدة" هاموند "من خادمتها الأجنبية أن السيد" دجفس "قد حضر في الموعد عبست وقالت" :عزيزتي أرسولا Ursula ، إنك بالتأكيد أخطأت الاسم ."ولكن الخادمة ألحت أنه السيد" دجفس ."وبقيت واقفة أمام سيدتها تكرر أن رجلا يدعى السيد" دجفس "يقول إن له موعدا مع السيدة" هاموند" ."يا إلهي "صاحت السيدة" هاموند "أخيرا" .كم أنا بلهاء .إنه منظف النوافذ الجديد .أريه عمله في الحين .قولي له بأن يبدأ بنوافذ المطبخ وينهيها ما دام ليّنا .إنها سوداء مثل حذائك."

وهكذا قيد السيد" دجفس "إلى مطبخ عائلة" هاموند" من قبل فتاة من وسط سويسرا وفجأة أمر بتنظيف النوافذ.

"ماذا؟ "سأل السيد" دجفس."

"ابدأ بنوافذ المطبخ، تقول السيدة" هاموند"، وذلك لأنها الأكثر اتّساخا .هناك ماء ساخن في الحنفية."

"لا"، قال السيد" دجفس" ."جئت لرؤية مائدة."

"حككتها أنا أيضا .بإمكانك أن تصعد فوقها إن وضعت جريدة تحت قدميك."

وتركت" أرسولا "السيد" دجفس "وهو يحاول أن يقول شيئا وذهبت .شعرت أنه لا يمكن لها أن تتحمل التحادث مع منظف نوافذ .فهذه ليست مهمتها في البيت" .إنه رجل طريف، "قالت الفتاة للسيدة" هاموند" ."يريد تنظيف المائدة أيضا".

"اسمي دجفس، "قال السيد" دجفس" ."جئت من أجل مائدة صغيرة" .كان واقفا على عتبة الباب وبيده قلنسوة سوداء.

"ما هذه الغرابة"!، همهمت السيدة" هاموند "وكانت تريد أن تضيف أن هناك حقا تطابقا؛ وأنه في تلك اللحظة نفسها يوجد رجل يدعى" دجفس "يقوم أيضا بتنظيف نوافذ المطبخ .ولكنها صاحت عوضا عن ذلك قائلة" :يا إلهي السيد" دجفس" ."كم كان ذلك مزعجا"!

كانت هذه البلبلة بالذات، وهذا السهو الغبي الذي اعترفت السيدة" هاموند "بأنه كان لها كل الذنب فيه، التي أقنعتها بترك السيد" دجفس "يقتني المائدة .لقد تنبه السيد" دجفس "إلى أنه باستطاعته أن يستفيد إلى حد مّا من وقوفه على عتبة الباب وقلنسوته بيده .لقد رأى أنه رغم ما بدا عن السيدة" هاموند "فقد كانت تخشى أن يشعر أنه أهين.

تخيل أنها امرأة طيبة، تماما كما يتخيل شخص يشتري اللحم أنه غض.إنها امرأة طيبة، كان يؤكد لنفسه، وسيكون التعامل معها سهلا وسريعا .كان صائبا في حدسه .لقد كان هناك شعور بالذنب على وجه السيدة" هاموند :"رأى" دجفس "ذلك يستقر على وجهها عندما اتضّح أمره لها؛ وكذلك عندما علمت أنه تاجر أثاث عتيق .وربما استقر لديها أيضا أن للرجل ملامح ولهجة يهودي من لندن .كانت تخشى أن تبدو معادية للسامية، قال السيد" دجفس "لنفسه وقد أعجبه ما جال بخاطره .قدّم

ثمنا بخسا للمائدة ولكنها قبلته على الفور.

"كنتُ ذكية، "قالت السيدة" هاموند "لزوجها" .بعت المائدة الصغيرة لرجل قصير القامة يدعى السيد" دجفس "كنا اعتقدنا، أرسولا وأنا، أنه منظف نوافذ ".وضع السيد" دجفس "علامة بالطباشير على المائدة ودوّن ملاحظة حولها في مذكرته .جلس في مطبخ بيته الواسع يأكل رنكات كان قد طبخها في كيس من البلاستيك .تحرك فكاه ببطء وهدوء لتحول السمك إلى عجين كما تفعل الآلة .لم يعر اهتماما بمذاق السمك داخل فمه .كان يحسب أنه إذا باع المائدة إلى" السير أندرو تشارلز Sir Andrew Charles "فإن فائدته ستكون مائتين بالمائة وربما أكثر.

"يوم من أيام قروبين، "قال صوت في مذياع قديم للسيد" دجفس ."وقف السيد" دجفس "واتجه بصحنه الذي كان يأكل منه إلى حوض الغسيل .مسح يده بمنشفة شاي ثم صعد الدرج إلى الهاتف.

إن" السير أندرو "في إفريقيا وربما لن يعود قبل شهر، قالت له امرأة .ليست متأكدة متى يعود ولكنه سيبقى شهرا على الأقل .لم يضف السيد" دجفس "شيئا .أومأ برأسه لنفسه .ولكن المرأة التي تتكلم من قصر" السير أندرو تشارلز "والتي لم تعلم أن السيد" دجفس "أيّد ما قالت، ظنّت أن الرجل غير مهذّب .

دوّن السيد" دجفس "ملاحظة أخرى على دفتره، يذكّر نفسه بمهاتفة" السير أندرو "بعد ستة أسابيع .هذه الملاحظة لم تكن ضرورية، لأن زوج السيدة" هاموند "اتصل هاتفيا بالسيد" دجفس "بعد ثلاثة أيام ليسأله إن كانت المائدة بحوزته .تظاهر السيد" دجفس "أنه سيرى إن كانت هناك ثم بعد لحظة أجاب معتقدا أنها بحوزته .

"في هذه الحال، "قال زوج السيدة" هاموند"،" أفضلُ أن أشتريها منك".

وعبرّ السيد" هاموند "عن نيته الذهاب إليه .ثم ناقض نفسه قائلا إن صديقة له تريد المائدة وأنها ستصطحبه إن كان ذلك لا يزعج السيد" دجفس."

"ائت بمن شئت، "قال السيد" دجفس ."أحسَّ بالحرج حتى قبل مجيء ضيفيه :كان لا بد له أن يقول للسيد" هاموند "أو لصديقته أن ثمن المائدة تضاعف في ثلاثة أيام .لا يستطيع أن يصوُغها كذلك ولكن وجب على السيد" هاموند "قبول أن تكون الأسعار هكذا.

كان السيد" دجفس "يحتسي شايا في المطبخ عندما وصل السيد" هاموند "وصديقته .ولما كان لا يريد ترك شايه وإهماله هناك نفخ في إنائه .شرب معظم شايه ثم نظف شفتيه بمنشفة شاي .وعندما رن الجرس ثانية أسرع السيد" دجفس "نحو الباب.

قالت السيدة" يوغال Youghal "وهي واقفة بجانب" هاموند": "أنا المسؤولة عن كل ما حدث .أنا التي أحدثتُ كل هذا الهراء حول المائدة".

"السيدةُ يوغال لم ترها أبدا، "أوضح" هاموند". "اتصلت بنا هاتفيا هي أيضا حول الإعلان ولكنك كنت قد استلمت الجوهرة وقتها".

"تفضلا، "قال السيد" دجفس "متجها إلى الغرفة التي توجد فيها المائدة .التفت إلى السيدة" يوغال "مشيرا بيده" :ها هي، سيدةُ يوغال، يمكنك أن تشتريها رغم أني

قد أشرّتها لغيرك، لحريف من إفريقيا يبحث عن هذه البضاعة نفسها ولا يمانع في دفع أي ثمن .أقول هذا لأحذرك فقط .ولأكون عادلا".

ولكنه لمّا قدّم السيد" دجفس "السعر الذي كان يجول بخاطره لم يحرك أحد من السيدة" يوغال "أو" هاموند "ساكنا .اقتطع" هاموند "شيكا من دفتر شيكاته ثم سأل" :هل تقومون بإيصال البضاعة إلى البيت؟"

"أي نعم، "قال السيد" دجفس"، شريطة أن لا يكون ذلك بعيدا جدا .هناك تكاليف بسيطة للشحن والنقل والتأمين وما إلى ذلك .أربعة جنيهات وأربعة شلنات".

اتجه السيد" دجفس "بعربة نقل البضائع التي يمتلكها إلى العنوان الذي ذكره" هاموند ."عدّ أثناء ذلك مرابيح ذلك اليوم :ربع قالونات من الوقود بشلن وثلاثة بنسات؛ اطرح ذلك من أربعة جنيهات وأربعة شلنات يبقى له أربعة جنيهات وشلنان وتسعة بنسات .لم يحسب السيد" دجفس "وقته :لم يكن ذلك مهما بالنسبة إليه .لقد قضى ثلاثة أرباع الساعة واقفا في بيته أو ماشيا لتحريك دمه .لم يكن ربحا سيئا .وبدأ يفكر في السيدة" يوغال "و" هاموند ."وفي السيدة" هاموند "التي اعتقدت خطأ أنه منظف نوافذ .حرز أن بين" هاموند "والسيدة" يوغال "أمرا ما يتطور، ولكنه أمر يتطور بطريقة طريفة؛ يشتريان موائد عتيقة ويطلبان شحنها إلى البيت.

"تربطهما علاقة ما، "قال السيد" دجفس "في نفسه" .التقيا عندما كانت المائدة للبيع ثم هما الآن مفتونان بها ".رأى الأمر يتضح :تأتي السيدة" يوغال "الجميلة إلى بيت" هاموند "قائلة إنها جاءت من أجل المائدة .وربما أبدت امتعاضها، مذكّرة إياهما أنها هاتفت أحدهما وطلب منها المجيء" .وأجد الآن أن المائدة بيعت، "قالت السيدة" يوغال "في مخيلة السيد" دجفس" ."كان من واجبكما إعلامي بذلك قبل أن آتي، من أجل الرب .لقد أضعت وقتا ثمينا".

"تعالي، سيدةْ يوغال ْنقدم لك كوبا من الكونياك، "قال" هاموند "في مخيلة السيد" دجفس" ."كيف نصلح الأمر؟"

"أنا التي أخطأت، "قالت السيدة" هاموند" ."كنت مجنونة وبائسة عندما وضعتُ مائدتنا الجميلة بين يدي تاجر يهودي .سيد اسمهُ دجفس ْأمرَتْهُ ارسولاً، لعدم معرفة مألوفة لدى الأجانب، بتنظيف نوافذ المطبخ".

"لم تجلب لنا المائدة سوى الإحراج، "قال" هاموند "وهو يسكب الكونياك" .تفضلي، سيدةْ يوغال ْخذي شيئا من البندق .أرجوك".

"لقد وقع قلبي على تلك المائدة، "قالت السيدة" يوغال "في مخيلة السيد" دجفس" ."أكاد أبكي لسوء حظي".

"مائدة للسيدةْ يوغالْ، "قال السيد" دجفس "لامرأة تحمل سلة تبضّع وهي تغادر مجمع شقق.

"ماذا؟ "سألت المرأة.

"في أي دور من فضلك؟ لقد أُعطيت هذا العنوان".

"لا أحد بهذا الاسم هنا، "قالت المرأة" .لم أسمع باسمْ يوغال ْأبدا".

"ربما سكنت هنا حديثا .هل هناك شقة فارغة؟ هذه الأجراس لا تذكر شيئا".

"لا يمكن أن أفعل هذا، "قالت المرأة بصوت حاد وعال" .لا يمكن أن أقدم أخبارا عن متساكني هذه الشقق .لرجل في

عربة لنقل البضائع .لا أعرف عنك شيئا".

تأكد السيد" دجفس "أن المرأة منظفة بيوت ولذا تجاهلها؛ رغم أنها بقيت واقفة على السلم، على مقربة منه، تراقب تحركاته .دق السيد" دجفس "أحد الأجراس ففتحت امرأة متوسطة العمر الباب وقالت إن الشقق سلمت حديثا لمتساكنيها وأن كلهم حينئذ جدد في المكان .نصحته بدق الجرس الموجود في الأعلى؛ وهو جرس يبدو لغرفتين في العليّة.

"مرحبا سيد" دجفس"، قالت السيدة" يوغال "الجميلة بعد برهة" .وصلت حينئذ هنا".

أخذ السيد" دجفس "المائدة من الشاحنة وصعد بها السلم .كانت منظفة البيوت هناك أيضا .كانت تقول للسيدة" يوغال "إنها تنظف البيوت بستة شلنات في الساعة في أي وقت يناسب سيدة البيت.

وضع السيد" دجفس "المائدة داخل أصغر الغرفتين في العليّة .لم يكن في الغرفة سوى سجّاد مطوي ومصباح فوق حامل عمودي .كان باب الغرفة الثانية مغلقا :تخيل أن بها سريرا وخزانة ملابس وكأسي كونياك على منضدة بجانب السرير .في تلك اللحظة تخيل السيد" دجفس "المكان كله مفرطا في الترف" .وكرُ غرام، "قال في نفسه.

"شكراً سيد" دجفس"، "قالت السيدة" يوغال."

"أرى أن أطلب منك جنيها آخر .قد تعلمين سيدةْ يوغالْ أنه وفقا لجمعية تجار العتيق يجب أن أطالب الحريف بجنيه إضافي على البضاعة إذا كان هناك سلم .وقد أفقد عملي إن لم أطالب بهذا".

"جنيه؟ اعتقدت أن السيدْ هاموندْ قد"—

"إنه بشأن السلم .لا بد أن أحترم قوانين جمعية تجار العتيق .إذا كان الأمر يتعلق بي شخصيا فإني لا أبالي، ولكنك تفهمين أنه علي أن أقدّم كشفا كل سنتين".

بحثت السيدة" يوغال "عن حقيبتها ثم أعطته ورقة نقدية بخمسة جنيهات .أرجع لها ثلاثة جنيهات وستة عشر شلنا، جملة ما كان يريده.

"تصور، "قالت السيدة" يوغال "مستغربة" .اعتقدت أن منظفة البيوت تلك زوجتك التي جاءت لمساعدتك على حمل المائدة .لم أفهم لماذا بدأت فجأة تتكلم عن التنظيف بستة شلنات في الساعة .ذلك ما كنت أريد بالضبط".

اعتقد السيد" دجفس "أن خادمة السيدة" هاموند "هي بالأحرى التي أخطأت منظف النوافذ .اعتقد ذلك ولكنه لم يقل شيئا .تصور السيدة" يوغال "تعيد تفاصيل ما حدث في تلك الساعة إلى السيد" هاموند "وهما مستلقيان في الغرفة الأخرى، يدخنان ويداعب بعضهما البعض" .اعتقدتها زوجة اليهودي الصغير .اعتقدت أنها تجارة عائلية، كما يفعل هؤلاء عادة .فاجأتني إلى أبعد حد عندما ذكرت التنظيف".

اعتقد السيد" دجفس "أن الأمر انتهى طبعا .مائدة صغيرة من طراز لويس السادس عشر كانت ملكا لجدة السيدة" هاموند "ثم أصبحت ملكا لعاشقة زوجها، أو ملكا لكليهما، لم يكن السيد" دجفس "متأكدا .كان الأمر يستحق الاهتمام، افترض السيد" دجفس"، ولكنه كانت له أمور أخرى تستدعي اهتمامه أيضا :أثاث آخر للجمع والبيع في الوقت المناسب؛ ورزق لتأمين حياته.

ولكنه بعد يوم أو يومين من وصول المائدة إلى السيدة" يوغال "تتصل به السيدة" هاموند "هاتفيا.

سألت السيدة" هاموند" :"هل أنت السيدْ دجفس؟"

"نعم أنا، دجفس".

"أنا السيدةْ هاموند .هل تتذكرني .أنا التي بعتُ لك المائدة".

"أتذكرك جيدا سيدةْ هاموند .وكيف لا أذكر ذلك الخطأ حول منظف النوافذ ."أحدث السيد" دجفس "صوتا كان يريده أن يبدو ضحكا .كان ينظر إلى السقف دون ابتسام.

"أريد أن أسأل،"بدأت السيدة" هاموند"،" إن كانت المائدة عندك .إن كان كذلك فإني أفضل أن أزورك وأراها".

أسرعت داخل مخيلة السيد" دجفس "رؤية غرف علية أخرى والسيدة" هاموند "تفرشها بمائدتها وبأي شيء تضع يديها عليه .رأى السيدة" هاموند "تجوب الشوارع وتنظر إلى الأفرشة والسجاد داخل واجهات العرض مصحوبة برجل غير زوجها.

"سيدْ دجفس،"قالت السيدة" هاموند" ."هل أنت معي؟"

أجاب السيد" دجفس" :"نعم .أنا أستمع إليك سيدتي".

"ماذا قلت؟ "سألت السيدة" هاموند."

"يؤسفني أن أخيب أملك حول المائدة".

"تقصد أنك كنت قد بعتها".

"هذا ما حدث بالضبط".

"يا الهي".

"عندي موائد أخرى هنا .أشكال فاخرة وأسعار مدروسة .لن تضيعي وقتك إن زرتنا".

"لا، لا".

"عادة لا أتعامل بهذه الطريقة :حرفاء يأتون إلى بيتي وما إلى ذلك .ولكنه في ما يخصك أنت وما دمنا نعرف بعضنا البعض—

"لن يكون ذلك .أقصد، تهمني المائدة التي بعتك إياها فقط .سيدْ دجفس، هل بإمكانك أن تعلمني باسم من اشتراها وعنوانه؟"

فاجأ سؤالها هذا السيد" دجفس "فأغلق الخط في الحين .بعد برهة من الزمن وبعد أن كان قد فكر في الأمر، عادت السيدة" هاموند ."قال:

"قطعت مكالمتنا، سيدةْ هاموند .أمر ما حدث للخط .لقد قطعت مكالمةْ السير أندرو تشارلزْ مرتين هذا الصباح .كان يتكلم من نيجيريا .أقدم اعتذاري".

"كنت أقول، سيدْ دجفس، إني آمل أن أعرف اسم الشخص الذي اشترى المائدة وعنوانه".

"لا يمكن لي أن أبوح بذلك، سيدةْ هاموند .كشف أسرار كهذه ضد قوانين جمعية تجار العتيق .سوء تصرف كهذا قد يفقدني عملي".

"يا الهي، يا الهي، سيدْ دجفس .ما أفعل حينئذ؟ ما الجواب؟"

"هل الأمر مهم إلى هذه الدرجة؟ هناك أساليب أخرى .باستطاعتي أن أتصرف كوكيل لك مثلا .باستطاعتي أن أتصل بمالك المائدة بصفتي تلك وأحاول إقناعه".

"هل تستطيع أن تفعل ذلك، سيدْ دجفس؟ هذا لطف منك".

" سأطالبك في هذه الحالة بأتعاب الوكيل المعروفة .يؤسفني ذلك، سيدةْ هاموندْ، ولكن الجمعية لا تقبل بغير ذلك".

"نعم، نعم، طبعا".

"أتريدين أن تعلمي كيف تُحسب أتعاب الوكيل وما هو مقدارها؟ ليس بالكثير، نسبة فقط".

"سنرتب هذا في ما بعد".

"جيد، "قال السيد" دجفس "الذي يعلم أن النسبة التي تحدث عنها تعني ثلاثة وثلاثين شلنا وثلثا.

"رجاء اقترح ضعف المبلغ الذي دفعته لي .وإن تجاوز ذلك فسأكون ممنونة إن هاتفتني حتى نتفق".

"هكذا تسير الأمور، سيدةْ هاموندْ".

"ولكني آمل أن تفعل كل ما في وسعك لبقاء الثمن بخسا .بطبيعة الحال".

"سأبقى على اتصال معك، سيدةْ هاموندْ".

تساءل السيد" دجفس "وهو يمشي داخل بيته ويحرك جسده ليحافظ على دورته الدموية، إن كان للموائد دور تؤدّيه في خيال الأحبة .يهمه أن يعرف. إذ بإمكانه تجميع موائد من صنف معين وإشهارها بطريقة ذكية .فكّر في الأمر لفترة ليست بالقصيرة ثم ركب عربته .اتجه إلى غرفة السيدة" يوغال "بالعلية أملا في وجودها هناك.

"مرحبا سيدْ دجفسْ، "قالت السيدة" يوغال."

"مرحبا".

صعدت السلم وهو يتبعها كما يتبعها فضولها .تعتقد، قال السيد" دجفس "في نفسه، أني جئت لبيع شيء أو شيئين، ولكنها لن تتردد في أمري بالانصراف إن اكتشفت أنها مخطئة، إن اكتشفت أني جئت ابتزها.

"ما الأمر، سيدْ دجفسْ، كيف أخدمك؟"

"لدي عرض سخي لمائدة لويس السادس عشر .أو عرض جد سخي .أو لنقلْ عرض قد يصبح سخيا للغاية .فهمت ما أقصد؟"

"ولكن المائدة ملك لي .هل تريد أن تقول إنك ترغب في شرائها؟"

"شيئا من هذا القبيل .عُرضت علي فكرة شرائها ففكرت في أن أعلمك في الحال .سأتصرف كوكيل السيدةْ يوغالْ، قلت في نفسي، إذا ما استقرّلها أن تستغني عن البضاعة مقابل ضعف الثمن ونصفه الذي دفعته".

"فهمت، ولكن لا، سيدْ دجفسْ".

"لا يهمك الأمر؟"

"لا، أبدا، أنا آسفة".

"وإذا عرض حريفي ضعف المبلغ؟ ماذا بوسعك أن تقولي؟ أو ماذا بوسع السيدْ هاموندْ أن يقول؟"

"السيدْ هاموندْ؟"

"لا أعرف حقيقة من منكما يملك المائدة .لذلك ذكرته .ربما كان من الأفضل الاتصال به .إنه السيدْ هاموندْ الذي أعطاني الشيك".

"المائدة لي .كانت هدية .والأفضل أن لا تتصل بالسيدْ هاموندْ".

"هكذا إذن .ولكنه لمّا أخذت على عاتقي هذا الأمر من أجلك، سيدةْ يوغالْ، ظنا مني أن أعلمك بهذا العرض دون مضيعة للوقت ومكلفا نفسي نفقات التنقل وغير ذلك، فإنه لا بد لي أن أطالبك بالإتاوة التي عادة ما يتحصل عليها الوكيل .إنه قرار جمعية تجار العتيق الذي يضبط إتاوات لمثل هذه الحالات .أرى أنك فهمت؟"

قالت السيدة" يوغال "إنها لم تفهم .أعطته بعض المال

حتى ينصرف .

عاد السيد" دجفس "إلى بيته وبقي مدة تناهز الساعة يقلّب الموضوع على أوجهه المتعددة .وفي نهاية المطاف توصل إلى أنه من الحكمة أن يتصل بالسيدة" هاموند "هاتفيا ويتأكد من رقم هاتف مكتب زوجها .خرج إلى الشارع وبيده ورقة كُتب عليها أنه أصم وأبكم يريد مساعدة عاجلة من أحد يتصل بقريب له في الهاتف .أعطى الورقة لامرأة مسنة وأشار إلى كشك الهاتف.

"هل تسمحي لي بأن أعرف رقم هاتف مكتب زوجك؟ "سألت المرأة المسنة السيدة" هاموند" ."إنه أمر مستعجل".

"ولكن من أنت؟"

"أنا السيدLacey، وأتكلم بالنيابة عنْ السير أندرو تشارلزْ من إفريقيا".

"سمعت هذا الاسم من قبل، "قالت السيدة" هاموند"، وأعطت رقم هاتف مكتب زوجها.

"قلت إنك ذهبت لرؤية السيدةْ يوغالْ، "قال السيد" هاموند" ".وماذا قالت؟"

"لا أعتقد أنها فهمت كليا أن الأمر في غاية الأهمية .لا أعتقد أنها فهمت الرسالة".

"كانت المائدة هدية مني للسيدةْ يوغال ْ.لا أستطيع استرجاعها".

"هذا عرض ممتاز، سيدْ هاموند"ْ.

"لا جدال في ذلك".

"كنت أسأل نفسي إن كان بإمكانك استعمال نفوذك مع السيدةْ يوغالْ، أعني إذا حدث أن قابلتها".

"سوف أعلمك سيدْ دجفس"ْ.

شكر السيد" دجفس" "هاموند "ثم اتصل بالسيدة" هاموند "ليعلمها أن المفاوضات على قدم وساق".

ولكن المفاوضات فشلت بعد يومين .هاتف" هاموند "السيد" دجفس "ليقول له إن المائدة ستبقى على دمّة السيدة" يوغال ."قرر السيد" دجفس "الذهاب لمقابلة السيدة" هاموند "والحصول على ما كانت تدين به إليه .قرّر أن يعلمها أن مسألة المائدة بلغت الآن نهايتها.

قال لها" :وجدتُ نفسي أمام جدار من حجر .يؤسفني ما جرى، سيدةْ هاموند ْ.قد أزيد من مضايقتك لو طلبت منك دفع ما بقيت تدينين به إلي".

ذكر المبلغ ولكن السيدة" هاموند "بدت وكأنها لم تسمعه جليا .سالت الدموع على خديها تاركة آثارا على مسحوق وجهها .لم تعر اهتماما بالسيد" دجفس ".شهقت بكاء وارتعشت وازدادت الدموع انهمارا.

أخيرا غادرت السيدة" هاموند "الغرفة .لم يغادر السيد" دجفس "المكان لأنه لم يحصل بطبيعة الحال على المال الذي تدين به إليه .بقي هناك يفحص الأثاث ويستغرب بكاء السيدة" هاموند "الشديد كل ذلك الوقت .ثم دخلت خادمتها الأجنبية بطبق الشاي وقد تورّد وجهها وهي تتذكر أوامرها له، كما خُيِّل إلى السيد" دجفس"، بتنظيف النوافذ .ملأ كوبه بالشاي وأكل قطعتين من" البسبوسة ".كانت الغرفة هادئة جدا .صمت جنائزي.

"من تكون أنت؟ "سألته طفلة في سن الخامسة.

نظر السيد" دجفس "إليها وحاول أن يبتسم مجبرا أسنانه

أن تدفع شفتيه إلى الوراء.

"اسمي السيدُ دجفس .وما اسمك أنت؟"

"اسمي أما هاموند .Emma Hammond 'لماذا تشرب الشاي في بيتنا؟"

"لأنه قُدِّم لي بلطف".

"ماذا حدث لفمك؟"

"هكذا خُلق .هل أنت بنت لطيفة؟"

"ولكنك ماذا تترقب هنا؟"

"لأني سآخذ شيئا وَعدت أمك بتقديمه لي .بعض من المال؟"

"بعض من المال؟ هل أنت فقير؟"

"إنه دَين".

"اذهبي أما، "قالت السيدة" هاموند "من الباب .ولما ذهبت البنت قالت:

"عفوا سيدُ دجفس".

أمضتْ له شيكا .كان ينظر إليها مفكرا في" هاموند "والسيدة" يوغال "والمائدة، وكلهم في غرفة العلية في أعلى المجمع .تساءل عن ما سيحدث .افترض أن السيدة" هاموند "سيتخلى عنها لتعيش مع ابنتها .ربما تتزوج السيدة" يوغال" "هاموند "حينئذ؛ ربما يأتيان إلى هذا البيت ويجلبان المائدة معهما، ما دامت السيدة" يوغال "متعلقة بها؛ وربما يبقيان نفس الفتاة الأجنبية؛ وربما تذهب السيدة" هاموند "وابنتها للعيش في غرف العليَّة .وتأكد للسيد" دجفس "أنهم جميعا يشبهون بعضهم البعض :حتى البنت الصغيرة تبدو مطلية بحذق أقاربها الكبار ومهارتهم .ولكنه إذا ما تطلب الأمر انحيازا فإنه يؤثر السيدة" هاموند "على غيرها .لقد كان ورد على سمعه أن هناك نساء يفقدن صوابهن في حالات كهذه .وربما ينتحرن .تمنى أن لا تفعل السيدة" هاموند "ذلك.

"دعني أقلْ لك شيئا، سيدُ دجفس، "قالت السيدة" هاموند."

"لا يهم الآن".

"كانت المائدة ملكا لجدتي، ماتت وتركتها لي في وصيتها".

"لا تزعجي نفسك، سيدةُ هاموند .إن الأمر في غاية الاستقامة الآن".

"كنا نراها بشعة، أنا وزوجي، فقرّرنا التخلص منها".

"أهو زوجك الذي كان يراها بشعة؟"

"نعم .ولكني كنت أكثر منه إلحاحا على رفضها .هو لا ينتبه كثيرا إلى هذه الأمور".

ولكنه انتبه بما فيه الكفاية، قال السيد" دجفس "في نفسه، عندما ناظلت السيدة" يوغال "هذا البيت .كانت السيدة" هاموند "تكذب لتنقذ ماء وجهها :كانت تعلم جيدا أين ذهبت المائدة؛ كانت تعلم ذلك منذ الأول .لقد بكت لأنها لم تتحمل التفكير فيها؛ مائدة جدتها التي اعتقدت أنها بشعة هي الآن في وكر الخطيئة.

"لذا وضعنا ذلك الإعلان .تقدم اثنان لشرائها .أنت وامرأة".

وقف السيد" دجفس "منذرا بانصرافه.

"كما ترى، "قالت السيدة" هاموند"، لم يكن لتلك المائدة مكان في هذا البيت .لا تليق بهذا البيت .كما ترى بنفسك".

حدّق السيد" دجفس "فيها، ليس في عينيها أو حتى

وجهها: حدّق جديا في صوف فستانها الأخضر. قالت: "ولكنه فور خروجها من هنا ندمتُ على كل شيء. سأتذكر المائدة ما دمت حية. لقد تركتها لي جدتي وكانت رمزا لعطفها وكرمها".

اعتبر السيد" دجفس" أن المائدة كانت موضوعة في رواق الجدة. اعتبر أن السيدة" هاموند" كانت تُطرد من الغرف عندما كانت طفلة وتؤمرُ بالوقوف بجانب المائدة في الرواق، تبكي وتنوح. كانت المائدة تسخر من طفولتها كما هي تسخر منها الآن وهي تنظر إليها صامتة في غرفة عليّة. يكاد يراهما، السيدة" يوغال" و" هاموند"، يضعان كوبي الكونياك البصليين على المائدة ويتجهان لبعضهما البعض لينعما بقبلة ناعمة.

"بعدما بعتها لك لم أستطع إخراجها من ذاكرتي. تذكرت أن جدتي كانت دائما تعدني بها. لم يكن أحد سواها لطيفا معي، سيدُ دجفس. شعرت وكأني تخليت عن كل حبها لي. بتُّ أرى كوابيس كل ليلة منذ أن بعتك إياها. هذا هو سبب شقائي".

تخيل السيد" دجفس" أن الجدة كانت قاسية. كانت تعاقب حفيدتها كل يوم على مدار الساعة. وتركت المائدة ذكرى لروحها المتسلطة. لماذا لا تستطيع السيدة" هاموند" أن تقول الحقيقة؟ لماذا لا تستطيع أن تقول أن روح الجدة الميتة قد انتقلت إلى المائدة وأن الروح والمائدة معا يضحكان حتى يفقدا صوابهما في غرفة السيدة" يوغال"؟ تخيل، قال السيد" دجفس" في نفسه، امرأة يصل بها الأمر إلى هذا الحد؛ امرأة كان قد احترَمها كثيرا.

"عذرا إن أثقلتك بكل هذا، سيدُ دجفس. لقد كان أمرا مقلقا. أنت لطيف الوجه".

"أنا تاجر يهودي، سيدتي. ذو أنف يهودي؛ لست وسيما؛ ولا أستطيع أن أبتسم".

كان مغتاظا لأنه اعتقد أنها كانت تجاريه. لم تزل تكذب ثم فجأة احتوته في كذبها. كانت تهينه بكلامها عن وجهه. هل كانت تعرف أخطاءه ونقاط ضعفه؟ كيف تسمح لنفسها بأن تتكلم هكذا؟

"كان لا بد للمائدة أن تمرّ إلى ابنتي. كان لا بد لها أن تبقى في العائلة. لم أفكر في ذلك".

سمح السيد" دجفس" لنفسه بأن يغلق عينيه. فلتبق هناك تكذب كما تشاء، كان يقول في نفسه، بينما كانت ابنتها الوحيدة تلعب بكل براءة في الغرفة المجاورة. ستكون البنت كاذبة أيضا. عندما تكبر البنت وتصبح امرأة تجد نفسها مجبرة على إخفاء الذل الذي ألمّها؛ مجبرة على إخفاء ما لا تريد كشفه وتجميل ما حولها بالزور.

رأى السيد" دجفس" خياله واقفا، وهو مغمض العينين وصوته يتكلم داخل مخيلته، داخل بيته الفكتوري الواسع وحيدا. ليس هناك شيء ثابت في هذا البيت؛ لم تبق قطعة أثاث أكثر من شهر. يبيع ويشتري من جديد. لم يفرش سجادا ولن يفعل أبدا. لا يملك سوى مذياع قديم وذلك لأن أحدهم قال له إنه لا يسوى شيئا.

"لماذا تكذبين؟" زعق السيد" دجفس". "لماذا لا تقولين الحقيقة؟"

سمع صوته يصرخ في وجه السيدة" هاموند" ورأى نفسه واقفا بهدوء على أرضية بيته العارية. لم يكن من طبعه أن

يصرخ في وجه غيره، أو أن يحشر نفسه في أمور غيره، أو أن يأمل أن يكفوا عن الكذب .هؤلاء أناس لا سلطة لأي قانون عليهم ولذا فإنهم لا يهمونه .طها طعامه ولم يزعج أحدا.

"جدتك ماتت ودفنت، "فاجأ السيد" دجفس "نفسه يقول" .أما السيدةُ يوغالُ فإنها حية .تنزع ثيابها، سيدةُ هاموندُ، ويدخل زوجك وينزع ثيابه .على مرأى من المائدة .المائدة التي عرفتها كل حياتك .مائدة طفولتك ترى كل ذلك وأنت لا تعلمين ذلك .لماذا لا تكونين نزيهة، سيدةُ هاموندُ؟ لماذا لا تقولين لي جهاراً :أيها اليهودي، ساوم هذه السيدةُ يوغالُ حتى أسترجع مائدة طفولتي '.أفهمك، سيدةُ هاموند '.أفهم كل ذلك .سأتاجر في كل شيء على وجه أرض الله، سيدةُ هاموندُ، ولكني أفهم كل ذلك".

تجدد الصمت في الغرفة وراح السيد" دجفس "يحوم بعينيه إلى أن وقع نظره على السيدة" هاموند ."رأى الوجه يتمايل بلطف من جهة إلى أخرى، ذلك أن السيدة" هاموند "كانت ترج رأسها .كانت تقول" :لم أكن أعرف أي شيء عن ذلك ".ثم توقف رأسها وبدت كأنها تمثال.

نهض السيد" دجفس "وقطع الصمت الرهيب متجها إلى الباب .التفت لحظة إلى حيث كان لأنه ترك وراءه شيك السيدة" هاموند ."لم تنتبه إلى حركاته واعتقدت أنه من الحكمة في تلك الظروف أن لا تنطق بكلمة وداع .غادر البيت وأدار محرك سيارته.

رأى الأمر مختلفا عندما ابتعد :رأى السيدة" هاموند "مطأطئة رأسها وهو يقول إن ذلك الكذب كان له ما يبرره .كان بإمكانه أن يدخل عليها بعض الغبطة بكلمة أو بكلمتين أو بحركة حاذقة بكتفه .ولكنه لم يفعل ذلك بل صدمها بغلظته المعهودة صدمة أشلتها .تخيل أنها ستبقى في مكانها، تماما كما غادرها، شاحبة الوجه، جاثية على حزنها؛ ستبقى كذلك إلى أن يصل زوجها منشرحا .وستنظر إليه وهو منشرح وتقول" :كان التاجر اليهودي هنا .كان هناك على ذلك المقعد وأعلمني أن السيدةُ يوغالُ فتحت وكر غرام لك".

ساق السيد" دجفس "سيارته وهو شاعر ببعض الحزن، ولكنه شاعر أيضا أن ذاكرته كانت تخلّص نفسها من السيدة" هاموند "وزوجها والسيدة" يوغال "الجميلة" .أطهو طعامي بنفسي، "كان السيد" دجفس "يقول بصوت عالٍ" .أنا تاجر ماهر .ولا أزعج أحدا ".لا يحق له أن يأمل أنه كان بإمكانه توفير السلوى .ليس من حقه أن يتطاول على ما ليس له حق فيه وأن يتخيل أن لمسة من العطف قد تكون نمت بينه وبين السيدة" هاموند."

"أطهو طعامي بنفسي، "قال السيد" دجفس "مجددًا" .لا أزعج أحدا ".بعد ذلك قاد عربته صامتا دون التفكير في أي شيء .أحس بذهاب قسوة تلك الكآبة وبأن الخطأ الذي قام به بدا وكأنه أمر لا يمكن إصلاحه .وبحلول الظلام عاد إلى البيت الذي لم يوقد فيه نارا؛ حيث يحوم الأثاث فيه كالطيف دون ابتسام وحيث لا يبكي أحد ولا يكذب.

* عنوانها الأصلي The Table نشرت سنة 1967 ضمن مجموعة قصصية بعنوان" يوم أن أسكرتنا الكعكة وقصص أخرى .The Day We Drunk on Cake and Other Stories "ثم أعيد نشرها في مجموعة بعنوان" قصص ويليام تريفر" The Stories of William Trevor، لندن، دار بنقوين للنشر Penguin 1983، ص.22-11.

الصفر نصف قطر دائرتي

محمد الأحمد*

ليل ملبد، وساعاته تجر العربات السود كقافلة تخب في الوصول الى ما ليس أدي، خضم من الاغتراب يلفني، وحالتي قلقة بين صمت الشفتين الباردتين، وعيني أبي المفرغتين من الدهشة. خيوط من ضوء شحيح شاحب امتزجت بفوضى الغبار المتناثر داخل الغرفة الصغيرة ذات الجدران الكابية، فتكدس لون رصاصي على مسقط وتر الضوء النازل عموديا على فضاء قاتم امتصته حدّ التلاشي..

(تبدين لي أفعى أو حبل خلاص)

كنت أقول لها منذ كنا صغارا، ونلعب في ظل شجرة اليوكالبتوس العتيقة، أو في جذعها المحفور كمغارة. كنت أقبلها بوجل تحت حنكها، فتضحك وتمردني ضحكتها هازة إياي بايقاع حلو، وتهم بالهروب. أتشبث بكتفها حتى يتعالى صوت ضحكتها، فتأتينا أختها الكبرى زوجة أخي الأكبر الى خبئنا. فنتظاهر باللعب البريء..!

ليس الآن سوى الانتظار، والاقتراب من سريرها.. يهتف أبي صاهلا، وكأنه يلسعني بسوط على جرح أوشك أن يلتئم :

ـ اتركها..

تنوء امتدادات الصمت بالحب، واستبيح آخر ما لديّ من ذكرى، واهتف في وجهه صمتا يحرق ما في داخلي من دم. تبدو الابتسامة في وجهها خلاصا لا اعرف كيف يبتدى. الدم ينزف باردا عند الرسغين بمجرى قان مارا بالرقبة حتى شحمتا الاذنين ويمتد مع خيوط الضوء الواهنة خطوطا بلت الأرض نحو رحيق موعود.

كنت أؤمل نفسي بانبهارات العشق.. الليل لم ينتظر فرحي طاغيا عليّ. غرس مؤلم سحب من الدخان المتموج تتراجع كمقاطع من أغان متداخلة بايقاع متواتر!..

سنوات كثيرة من القحط مرت على أرض مجدبة. لم يعد في فضائي سوى الخيبة، والانجراف وراء سمكة ذهبية تغط في عمق النهر. طفرت ورائها مثل مجازف عنيد.. صرخوا عاليا.. قالوا نحذرك منها، كانت بلمعتها أقوى. انضوت ثيابي وهجمت على تلك السورات محاولا تخليصها من خمولها. لسعني البرد وبقيت أقاوم سابحا ضد التيار.. كأن رياحا باردة تلامس المكشف مني، تمض في الجلد كرجفة انتفاض عفيّة..

ـ اتركها...

جثوت عند قدميه أن يمهلني قليلا.. متذكرا معها أحلى التذكر. أصبحت الاضاءات رخوة، زلقة.. فلابد من البطء في الاقتحام!.

خفت موتها من جديد. رجوته أن يمهلني لحظة استضىء بها دجية ما يقدم.

امسكني بقوة مخرجا الصوت من شدق مرمم.. متقاذفون

* قاص عراقي

نحن الثلاثة في عالم مغلق..

بدت هي ساكنة يلثمها شقاء الروح، كأنها محور يمدني بالحيوية، كانت لحيته بيضاء كالثلج، وجبهتها بيضاء كالصبح، هي مجالي الحيوي الذي يرشد أنفي إلى مكان وفر هواءه، وصفاء التنفس بينما هو كان شاخصا أمامي كخنّاق!

مشاعر خوف تدوي بتتابع غامر، وكأني مغامر قفزت إلى تلك ادوائر المتسعة شيئا فشيئا، حد التلاشي.

الليل يشتد من حولنا في غرفة امتلأت غيضا وكآبة.. بعد أن أقحمها الانتحار وفرا من ألم عمّ كياني وافقدني الصواب. بدت أعصابي تتودج عصبا فوق آخر حتى اشتد الوطيس كأن حريقا قد نشب، أيبس ما عندي من أوراق خضر، مبتدأ بالاحتراق.

- بني أرجوك

يدفعني عنها بقوة شيخوخته التي ارجعتني طفلا. تذكرته يربطني الى النخلة التي توسطت الدار ويظل يضربني بهوس عصاب دون أن يخلصني من بين يديه أحد تثيره توسلاتي، يدفعني من جديد كأنه يرجعني طفلا يمسك شيئا عزيزا، يدفعني محاولا ازاحتي عن جنتي!

- اتركها.. ستصل الشرطة بعد قليل..

صمتي موبوء بانفجار مكبوت. بدأت أحس بليل آخر أكثر قتامة يغمر روحي مهمشا ما يجعل الحياة تطاق بتفاصيل أكثر دهمه، وابعد معنى تغرق التروي فيتناظر الموت بين الحين والآخر.. روحي عصفور حبيس يبحث عن منقذ.. ربما المسجاة منقذها الوحيد.

كانت عيناي تسبحان في تفاصيل الجسد المهدلة مجداً، وأصابعي تسرح في انشاءات الخصب الذي لا يجدب..

- بني أرجوك.. ابتعد عنها.. لا تمسها.. سوف لن يصق أحد.

كأنه يهذي، وأنا أحاول السباحة عكس التيار الجارف عيناها تأسراني، رفعت جفنيها، وعودت أخغلاقهما. عينان زرقاوان كصحوٍ مستحيل!!.

الأمر يتكرر عليّ.. كل شيء يحدث الآن.. كأنه قد حدث في السابق..

تشبه شقيقها الى حد مذهل. النتيجة ذاتها، وطريقة الانتحار أيضا. الموقف كله يتداخل!!.

نقض عزمي وبقيت مذهولا غير مصدق لشيء.. شقيقتها هي الأخرى انتحرت في ظروف لم تحوها ذاكرتي.. كنّا بعيدين عن هوس الجدية التي يتناغم بها العالم من حولنا.

الليل ذاته يمر الآن بالغموض ذاته. أبي بعصاه الخشبية يقف عند رأسي، ويصهل.. عرقي يتفصد من جبهتي، وجبهته المتغضنة. أما حبيبتي بثوبها الذهبي اللامع تضيء به.. تقتل خيبتي.

هي الآن ملكة فرعونية تنام برهبة قاسية.

الضوء الشاحب يمتدّ في عروقي فيعطل وجيبها، ويدفع بي الى الانقلاب.. بشفتي مرارة لن تزول الا بطعم شهد الشفتين امشعتين برغبة عارمة..

كان أبي يتابع الموقف بدقة، وحذر متكهنا للذي أرومة.. دفعته برفق فتهالك بعيدا، وتوضحت عيناه لائمتان بالأسى النجيع بالغم.

بشفتيها تغويني وأنا العطش الى عمق النهر الجاري هادرا على الرغم من برودته أحاول استباحة ما عزّ عليّ

بعد أن شوشت الرؤية ففقدت رزانتي، محاولا استجماع ما فيّ من رغبة حبيسة واندفاع الى العمق حيث السمكة المتلألئة بشبق سني، كنت اشتهي الفاكهة المحرمة.. بين طيات النسيان أحاول النزول الى عمق الماء.

كنت مجبولا ولا أصدق غير ذاك.. لا أدري ان كنت في كابوس، كل ما حدث أكاد أعرف نهايته، كأنه مرّ بي في زمن غير هذا بكل تفاصيله..

كانت عينا أبي تطالعني باستنكار فهممت أن افعل شيئا لا تسوء عاقبته، فنهضت الى مفتاح التيار لكهربائي وعطبته ليتسربل الظلام قائما بيننا.

فاخذت اكمل ما بدأت مستدلا اليها بضوئها الذي كسر ظلامي وقطع زبي عني. كأني فرغت من صوته الجهوري الحاد، الذي يود ايقاظي من الحلم.

تقدم مني ناهضا متكأ على عصاه، قائلا :

ـ مجنون أنت ؟!

كأنها تهمس في أذني لأواصل النشيد، وأنا اغرف الماء بيدي الى زالخلف لاندفع الى أمام :

ـ اتركها..

حاول فصلي عنها واضعا عصاه الباردة جدا بيننا، فأمسكت بها، وجررتها الي بقوة.. ثم دفعته بعنف إلى بعيد، فارتطم رأسه الواهن بحافة السرير.. شجّ رأسه، وتفجر منه دم طفر على ظهري العاري، ووجهها. وظل ينزل الى الأرض، بعد ذلك تناهت الى أذني طرقات على الباب أخذت تدوي بعنف شديد عرفتها للشرطة، ولم أحاول النهوض بعد أن قيدني الخوف بين جثتين!!

صوت الوفاء

شريفة العرباوي

وضعت السماعة بدون تركيز مما جعلها تتملّص رافضة الامتثال تحت أوامر يدها اليمنى، حتى أجبرتها على استهلاك وقت لا يستهان به في محاولة ارجاعها الى مكانها. بينما عيناها كانت تتسكعان في الفضاء حولها، دون هدف محدّد تستقر عليه، وقد غشت مشاعرها موجة من الحنين إلى أبويها. فاخذت تفكر ممسوسة بالحيرة، الى أن وردت عبر مسالك كهنها فكرة غائمة بضباب التذبذب، وهي فكرة السفر إلى بلدها.

صوته المرتعش مرضا وكبرا شقّ في ضميرها جرحا من الألم النازف، وأسئلة أمها الملحة على أحوالها وأحوال الأبناء جعل فضاء نفسها يغيم بسحب من البكاء البعد وانغماسها في حياة الأسرة ومشاغلها وتربية الأبناء وطلبات الزوج هم الذين شغلوها عنهما وما كان عليها أن تنشغل وهما في حاجة اليها.

أخذت تجوب غرفة الأستقبال جيئة ورواحا محاولة أن تخرج من بين ازدحام الأفكار في رأسها رأيا تستقر عليه، ثم اتخذت من الأريكة مستقرا لها لتواصل بلورة فكرة السفر التي ومضت منذ حين في ذهنها. سرحت وهي منغمسة مع الفكرة تقلب على كل الوجوه جوانبها في حديث لم يرق الى الجهر بينها وبين نفسها:

فكرة صائبة، قالت، هذه التي خطرت لي الآن، لما لم أجعلها تنخرط في حيز التنفيذ في أقرب وقت ممكن؟ الذي ينقصني هو شيء من العزم فقط وترتيب الأمور، عليّ أن أقتطع من الوقت أياما معدودات للسفر حتى أراهما. لم أعد استطيع الانتظار حتى يأتي الصيف، موعد سفرنا جميعا. الشوق اليهما أخذ يعصر قلبي عصرا موجعا ويغتصب مشاعري حد احتلال كل الزوايا فيها. سأرتّب أمور زوجي وأبنائي لأيام قليلة حتى أعود اليهم. استقر في ذهنها شبه القرار الأخير في انتظار استشارة زوجها، وهي تعلم مسبقا موافقته على ما استقرت عليه لاحترامه دائما لرغبتها، وتقديره لأبويها، والأخذ بعين الاعتبار حالة الكبر التي هما عليها، وما يدخرانه له من محبة وتنزيله منزلة الإبن عندهما.

انتزعت جسدها من بين أحضان الأريكة التي احتوته منذ برهة، والعزم ما زال حليف فكرتها، لتذهب الى غرفة النوم أين ستبدأ في تطبيق ما عزمت عليه. وعند ولوجها اتجهت رأسا الى الدولاب، فتحته ثم سحبت الحقيبة من فوقه وبدأت في ترتيب ما يكفيها من ملابس لعدة أيام تاركة بعض الفراغ فيها لما سنشتريه لهما من هدايا كما اعتادت عليه وعودتهما. كان كطفلين تسرّهما دائما هديتهما، مما كان يشجعها في كل مرة على اختيار الأثمن لهما.

وهل تنسى ما كانا يبذلانه من اجلها وهي طفلة، حين كانت تختار الجيّد والثمين في كل شيء فيلبيان بكل

الرضا والامتثال رغبتها. كان هو أحد اقرباء والدها وكانت هي زوجته، كفلاها بعد موت ابويها في حادث مرور وسنها لم تتجاوز السنة الخامسة. أحسنا رعايتها وعوضا بها عدم الانجاب من صلبهما، وعوضت بهما أبويها.

أحباها بعمق وأفرطا في حبهما لها، حتى أصبحت الابنة المدللة عندهما التي تطلب فيستجاب، دون تردد لطلبها، حتى وإن كان المطلوب «لبن العصفور في بلاد السند» وتحكم فتنفذ احكامها حتى اصبحت اوامرها ضربا من الدلال المستحب عندهما. الخطأ الوحيد الذي ارتكباه نحوها هو تزويجها باحد العاملين في السلك الديبلوماسي فابتعدت عنهما لتعيش ممزقة الإحساس هكذا بين واجبها نحو الأسرة وواجبها نحوهما، وقد شاخا وهما الآن في حاجة اليها، وهي في حاجة الى رد الجميل لهما.

رتبت أمورها في يوم وليلة مع الزوج والأبناء، وسوت مشاكل السفر باعانة زوجها وهي تسابق الزمن، ثم سافرت دون اعلام أبويها بمجيئها، ارادت أن تبقى ذلك مفاجأة سارة لهما. علّ الفرحة نحي فيهما الأمس المخبوء في ثنايا حياتهما الممتدة في العمق نحو الوراء، الغائب في جوف الماضي. ذلك الأمس المزدهر بالعنفوان والفتوة والحياة التي كانت تزخر بالحركة والنشاط قبل سنّ التقاعد والارتكان الى الخمول، وتزخر بالترحال بين المدن بحكم وظيفة الأب قبل الاستقرار نهائيا في إحدى ضواحي العاصمة. كم أثرت تلك الحياة ذاكرتها وشدتها على مدى السنين اليها وبالتالي اليهما.

اجتازت كل التدابير المعمول بها في المطار الباريسي، ثم حلقت بها الطائرة ساعتين في الفضاء لتحط بعدهما في مطار بلدها. أين مرت باجراءات أخرى مماثلة، بعضها كان متعبا أرهقها، كانتظارها مع المنتظرين أمام تلك الدائرة اتي كانت تدور وتدفع بالحقائب الى المتجمهرين حولها وقد ازدحموا في عملية بحث شاق كل على حقائبه التي تمرّ أمامه بالتقسيط وبنسق سريع، فليتقطها مغتبطا وكأنها غنيمة حرب أو صيد ثمين ظفر به.

ومرت أمام الجمارك والشرطة، ثم خرجت أخيرا وهي تدفع بالعربة محملة بالأغراض وسط جمع من الناس مثلها، كل يدفع بعربته في حالة سباق غير معلن نحو الباب الخارجي، منشرحي الوجوه يتبادلون، دون توقف عن السير، كلمات الود مع الأهل المرحبين بهم. ثم اجتازت الباب نحو الطريق وقد اصبحت تدفع العربة بشيء من التعب الذي سببته لها اجراءات السفر، لكن أيضا بكثير من الغبطة والشوق إلى أبويها والى ساعة اللقاء التي ترمتها مفاجأة سارة لهما. وقفت على حافة الطريق باحثة على سيارة أجرة لتنقلها من المطار الى البيت، لكنها اضطرت لانتظار برهة من الزمن لكثرة الباحثين مثلها. وأخيرا ساق لها القدر واحدة. وقف سائقها عندما لوحت اليه بيدها بعدما تعبت من التلويح الى غيره الذي كثيرا ما كان يسبقها أحد المنتظرين مثلها اليه وذلك لعدم دقتها في التلويح، إذ كانت تلوّح بيدها الا عندما تقف السيارة أمام أنفها، بعدما يسبقها الآخر اليها ويختطفها من بين يديها تاركا إياها مذبوحة بالغيض. نزل السائق ليشحن الأ غراض في الصندوق الخلفي

للسيارة، ثم عاد الى مكانه بينما أخذت بدورها المقعد الى جانبه وانطلق وسط زحمة من السيارات الأخرى نحو منزل والديها بعد ما أملت عليه العنوان. لم يأخذ من الوقت حيزا كبيرا في الطريق حتى أنزلها أمام باب الحديقة. دفعت له ما يلزم من الأجر، ثم مدت يدها الى الداخل من خلال ثقب صغير في الباب لتفتحه وهي تعرف طريقة فتحه وشقت الحديقة محمّلة بالحقيبة وبقية الأغراض الأخرى التي كانت تنفلت من بين يديها من حين إلى آخر لثقلها مائلة نحو السقوط، فتبذل جهدا لارجاعها وتواصل السير نحو باب البيت حتى بلغته، وضعت الكل من يديها في الشرفة ثم طرقت الباب بحذر كي لا تزعجهما. فالوقت متأخر بالنسبة لهما. في هذا الوقت يخلدان دائما الى الراحة بعد الدبيب اليومي. الساعة الثامنة مساء، في هذه الساعة يتابعان نشرة الأخبار في التلفاز بعد العشاء. هذا ما تركتهما عليه في الصيف ولا تظن شيئا قد تغير بعدها. حياتهما أصبحت روتينا تسير على وتيرة واحدة بعد احالته على التقاعد منذ سنوات. الأمس واليوم كالغد لا جديد فيها. جديدهما الوحيد هو عودتها هي في الصيف مع الأبناء. في تلك الأيام تحيا الحركة بهم في البيت ويملئونه هرجا، هرج كان مستحبا عندهما وينشطان به، ويغير في نمط الحياة لديهما.

كررت طرق الباب ودائما بشيء من الحذر، فوصل الطرق في هذه المرة الى الأم وكانت مسترخية في قعدتها على الأريكة في غرفة الجلوس بعد تعب اليوم. غصب جسدها على الوقوف عندما تأكدت من الطرق واتجهت متكاسلة نحو الباب، ثم سألت بفتور وبعدم ترحاب خفي بهذا الزائر في مثل هذا الوقت :

- من ؟ من الطارق ؟

جاءها الصوت من الخارج :

- افتحي أمي، أنا ابنتك، افتحي الباب.

لم تسمع الأم جيدا، أو لعلها سمعت ولم تصدق فأعادت السؤال :

- من بالباب ؟

جاءها الصوت في هذه المرة مرتفعا أكثر من الأول :

- افتحي الباب يا أمي، أنا ابنتك زينب، هنا دق قلب الأم فرحا وفتحت مسرعة فوجدتها.

ارتمت عليها تحتضنها مقبلة إياها من كل مكان في وجهها، وقد اختلطت عندها الفرحة بالبكاء :

- ابنتي، حبيبتي ظننتك زائرا آخر في هذا الوقت من الليل سيقلق راحتنا. كيف أنت حبيبتي؟ كيف زوجك والزبناء؟ وأين هم؟ بادلتها العناق والقبل السعيدة ولحظات التأثر باللقاء وهي ترد على أسئلتها :

- زوجي في العمل، والأبناء في المدرسة لا يستطيعون المجيء معي، تركتهم وجئت وحدي، لقد استقت اليكما، كيف حال صحتك وصحة أبي؟ وأين هو ؟

- في الداخل يتابع نشرة الأخبار في التلفاز كعادته، أما صحتي وإياه فهي في كفة المرض، نفتكها منه حينا ويغلبن أحيانا. أدخلي حبيبتي حيث أبوك وسأدخل الأغراض وألحق بك.

- دعي الأغراض يا أمي، فهي ثقيلة الحمل عليك سأدخلها فيما بعد. ثم اجتازت الممرّ الى غرفة الجلوس. أطلت في

صمت برأسها على الداخل. فأحس أبوها بنفس أدمي أمام باب الغرفة. ظنها زوجته، سأل دون أن ينظر حيث الباب وكان مستلقيا على ظهره على الأريكة الأخرى :

ـ من الطارق ؟

أجابته بصوتها الضاحك :

ـ الطارق هو أنا أبي، أنا ابنتك، ألا تتصور مجيئي في هذا الليل.

انتصب جالسا وهو لا يصدق ما سمعه لحجم المفاجأة، وقد عرفها من خلال صوتها للوهلة الأولى ثم قال :

ـ أهي أنت ؟

ـ نعم. هي أنا

تقدمت نحوه سريعة الخطى وعانقته مقبلة بحرارة كتفيه ويديه وجبينه مع وابل من الأسئلة الملهوفة :

ـ كيف حالك يا أبي؟ كيف صحتك؟ أأنت بخير؟ لست مريضا؟ لقد قلقت عليك عندما سمعت صوتك في الهاتف ضعيفا. تخيلت أنك مريض، أتمنى أن يكون سمعي كاذبا وتكون بخير.

همهم ببكاء الفرح هو أيضا. المفاجأة السارة تنفلت، تحت وطأتها، المشاعر من زمام المعقول فيتبدل عند حلولها الفرح بالبكاء حتى عند الرجال ثم قال :

ـ خير، بخير يا ابنتي، وإن كنت مريضا لقد ذهب الآن، بوجودك، كل المرض، حدثيني أولا كي خطرت لك هذه الفكرة الرائعة؟ ومن أتى معك؟

أجابته مازحة :

ـ أتت بي الطائرة أبي سيارة الأجرة، أما الفكرة فجاءتني عندما سمعت صوتك في الهاتف ضعيف فتيلت أنك مريض. قررت أن أوركما ولو لعدة أيام. لم أعد أطيق الانتظار حتى يأتي الصيف.

ـ حسنا فعلت، فكرة جيّدة، نحن أيضا اشتقنا اليك وإلى الزبناء. في الصيف يملئون البيت حولنا بهرجهم، ثم يتركوننا وحدنا الى الصيف الآخر، لا بأس الآن علينا أن نرضا بمجيئك السعيد وحدك. وهنا دخلت الأم، اتجهت نحو التلفاز فاغلقته، ثم أرادت أن تشاركهما في الحديث متوجهة الى زوجها :

ـ أرأيت، كم هي سعيدة هذه المفاجأة التي أحيتنا بها.

قال الزوج :

ـ سعيدة واحدة وسكت، فهي ألف سعية.

قالت هي :

ـ أردت أن لا أخبركما بمجييء. تركت ذلك مفاجأة حتى تكون فرحتكما بي كبيرة.

قال الأب :

ـ هو اختبار لنا إذا، لقد نجحت فيه.

قالت هي :

ـ نعم، أردت أن أختبر فرحتكما بي وبالتالي حبكما لي بعد هذا الغياب.

قالت الأم :

ـ أو عندك شك في ذلك ؟

قالت هي :

ـ نعم، لقد أصبحت أشك في حبكما لي عندما لمست منكما الميل أكثر إلى أبنائي. لذا جئت وحدي هذه المرة لجس النبض.

ضحكت الأم قائلة أأصبحت تغارين من أبنائك؟

وأردفت تسألها عنهم :

ـ كيف هم؟ لقد اشتقت اليهم كثيرا، متى يأتي الصيف حتى نستمتع بوجودهم بيننا، وكيف حال زوجك؟

ـ الكل بخير، هم أيضا ينتظرون الصيف بكل شرق، وقد حملّوني تبليغكم القبل الحارة والسلام.

ثم ضحك الجميع وامتدّ بهم السهر إلى آخر الليل. وكان السهر يمتد بهم كل ليلة بالفرحة والضحك حتى انتهت مدة اقامتها بينهما.

سر اليد المقطوعة

الهاشمي بن سوف

كان الفصل شتاء.. فما أن لاح الصبح وظهرت بشائر النهار على لوائح جدران الديار بقرية من قرى الجنوب التونسي، حتى خرج المؤدب من داره متمتما، وبعد أن جذب الباب خلفه اتجه يتلصص أشعة الشمس التي كانت تتسرّب شيئا فشيئا لتكسو جدران بيته... هناك جمع أطراف ثوبه وأسند ظهره الى الجدار مستأنسا بالدفء ومتمتما بالآية الكريمة.

(يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك، كلا بل تكذبون بالدين... وقبل أن يتم الآية قاطعه أعرابي بالسلام فرفع المؤدب رأسه ورد على الاعرابي السلام ورحب بالضيف ثم استأنف الآية (وأن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون».

قال الاعرابي وصلنا بحمد اللّه.

- استعدت عائلة المؤدب لاحضار الطعام، ولما جاء وقت الغداء جلس الاثنان حول المائدة، وعلى حين غفلة حانت التفاتة من المؤدب الى ضيفه، فلاحظ أنه يتناول طعامه باليد اليسرى بينما كانت اليد اليمنى مخبأة تحت الإزار... صمت المؤدب وكتم في نفسه سره تأدبا مع ضيفه.. لكنه ما لبث وبيداهة الواعظ. قال لضيفه متلطفا: كان عليك يا أخانا أن تتناول الطعام باليد اليمنى ففي الأكل بها بركة..

أجاب الاعرابي كذلك ببداهة بقوله : إنها مقطوعة يا سيدي.

لم يجد المؤدب جوابا لكن بدت عليه علامة استغراب وحيرة ودارت في خلده الكثير من الهواجس والشكوك.. أترى لماذا كانت يده مقطوعة؟.. أيكون تعرض لحادث من حوادث الطريق باحدى السيارات التي أصبحت تجوب الطرقات؟.. أم عساه سقط من احدى الجدران أو من احدى الأشجار في بعض الغابات؟.. ثم استدرك المؤدب في نفسه بقوله لا علينا ولو كانت مقطوعة من أجل اقامة حد من الحدود الشرعية.. فما دام هو ضيف فلا فائدة للتدخل في شؤونه الداخلية واحراجه..

وساد صمت ثقيل برهة من الزمن حيث استمرأ المؤدب وضيفه الطعام السخن في برد الشتاء فتململ المؤدب قبل أن يلقي على ضيفه بعض الحكم والمواعظ وقد توسط الطعام بالجفنة فاراد ان يرتاح من العبء الثقيل الذي يثقل كاهله على الدوام فقال لضيفه أتحسن السمع أيها الضيف العزيز؟

فقال الاعرابي : هي الحاسة الجيدة التي بقيت لي.

فقال المؤدب : استمع إذن ما أنشد سادتنا الزهاد في شأن هذه الدنيا.

يا غاديا في غفلة ورائحا الى متى تستحسن القبائحا

وكم الى كم لا تخاف موقفا يستنطق اللّه به الجوارحا

يا عجبا منك.. وأنت مبصر.. كيف تجنبت الطريق الواضحا

فهم الاعرابي نشيد الزهاد واستحسنه لكن بدت على بدنه قشعريرة وتفصد جبينه عرقا.. فلقد مست الكلمات منه مواضع الداء في نفسه وظن أن المؤدب اطلع على ما يضمر في نفسه من أسرار.. فتنهد بغصة وقال يا ليتني سمعت هذا الكلام منذ سنين يا سيدي المؤدب.

سكت المؤدب وبدت على شفتيه ابتسامة النصر والقدرة على الاقناع ثم عاودته الشكون من جديد في ماهية الضيف وفي سبب تأثره الكبير بنشيد الزهاد، وكذلك في تغير لونه وسحنته، ولما وضع الضيف الملعقة وغسل يديه قال للمؤدب زدنا من هذا القول يا سيدي المؤدب.. فلم يتردد هذا ان التفت الى ضيفه الاعرابي وقال روى أبا حامد الخلفاني أبياتا من ذلك القبيل الذي سمعته عن شعر الزهاد وأناشيدهم وقد بكى من أجلها الامام احمد بن حنبعل

فقال الاعرابي : وماذا روى؟

قال المؤدب :

اذا ما قال لي ربي، أما استحييت تعصيني

وتخفي الذنب عن خلقي، وبالعصيان تاتيني

فقام الاعرابي من جلوس خجلا وقال ما أردت أن أخفي على خلق اللّه شيئا وقد قال لي صاحب القصاص اذا عشت في الدنيا رد الخبر.

بهت المؤدب من عفوية ضيفه واقدامه على المغامرة بالاعتراف عن أسراره في حين لم يطلب منه ذلك فعد ذلك من الاغراق في الجهل والبلاهة، أو لعل الآيات وانشاد الزهاد فجرا في نفسه أسرار الحقائق الدفينة.

وفيما هو مستغرق في تفكيره دخلت زوجته بمائدة الشاي فوضعت الماعون أمام زوجها وخرجت.. فامتدت يدا المؤدب تحرك الكؤوس بينما جلس الضيف مرتاحا في مكانه فناوله المؤدب كأسه من الشاي، فأخذ يترشفه المزة بعد الاخرى ثم التفت الى المؤدب قائلا : الحقيقة أن وراء قطع يدي هذه قصة مهولة أستحي من روايتها يا سيدي المؤدب.. وبدا يفك الخيوط والخرق عن يده اليمنى.. ثم استدرك يقول ولكنني أرى في سردها تنفيسا عن صدري.. وموعظة وعبرة لقدر اللّه الذي لا يغلب كما كنت أنت سيدي المؤدب قدمت لنا بعض شواهده...

حدث ذلك بعد الحرب العالمية الثانية.. وقد ساد الجوع والقحط ربوعنا، فانضممت الى مجموعة من الرفاق تمتهن الحرابة وقطع الطريق.. فاصبحت فلاقا معهم وكان الفريق تحت أمرة ورقابة اخوان شقيقان طاغيان تأوينا جميعا مغارات الجبال من الجبل الأخضر الى مناطق الاعراض والظاهر.. كانت رقابنا تتطلع وعيوننا تستجلي دوما المسارب والطرقات بحثا عن المارين والسالكين فيها من عباد أو حيوان.. فاذا لاحظ أحدنا شيئا يتحرك هاجت منا الغرائز فننصب له كمينا وننقض عليه زاعقين بحط السلب، فنسلبه ما له ان كان انسيا ونسوقه الى مرتعنا ان كان حيوانا.

مضت علينا أشهر وسنوات ونحن على تلك الحال التي وفت لك يا سيدي المؤدب نهب وافتكاك وعداء وفرح بالغنائم وقد تفصلها اتراح بالامراض أو الهزائم حتى كان يوم الواقعة المشؤوم وهو يوم الامتحان الكبير لجميع الرفاق كما سأرويه.. وتنهد ـ آه ـ ان طاوعتني

نفسي.. كان الوقت ظهرا يومئذ لما سمعت صوتا زاعقا من اصواتنا النذيرة فالتفت فاذا هو زميلنا الرقيب الأصغر.

قال الرقيب الأصغر : المسرب عامر.. انني لأرى شيئا يتحرك.. نعم،، ها هو يقترب شيئا فشيئا انه لرجل يقود بعيرا مجهزا.. وخلفه ماذا ترى خلفه؟..

انها امرأة.. وقبل أن يأخذ بندقيته اعترضه أخوه قائلا : لا تذهب.. فان عندنا من الذخيرة ما يكفينا شهرا.. فلا تزعج المرحول وخاصة فيه امرأة..

إلا أن الرقيب الأصغر ركب رأسه ولم يمتثل لأوامر أخيه.. وكادت تقع بين الاثنين مشادة فافتك البندقية من يد أخيه مستنهضا منا الهمة للقيام بالسلب فقمنا الواحد بعد الآخر متقاعسين ما عدا الرقيب الأكبر وسرنا بين منعطفات الجبل لنلاقي الرجل فكمنا له حتى اذا اقترب منازعقنا الواحد بعد الآخر لارهابه طالبين أن يحط السلب ويترك ما عنده ويبتعد..

أجاب الرجل باعتداد : أن ليس عنده ما يعطيهم..

قال له الرقيب الأصغر : المال والبعير وحلي المرأة.

أحابت المرأة : هذه الحلي فوق حجر واتركانا نمضي لوجه الله.

قال الرقيب الأصغر : البعير وما فوقه نعم.. وقد ظن انه انتصر باستسلام المرأة.

غضب الرجل وأجاب الرقيب الأصغر بطلقة نارية اصابت منه مقتلا فزحف وافتك منه سلاحه..

فتراخت اعصابنا أمام ذلك الجن وتراجعنا نجر الجثة أمام المغارة التي نسكنها وقد سرت فينا رعدة ورقيبنا يتخبط في دمائه.. فلما وصلنا حتى أسلم الرقيب الروح، فما ان لمح الرقيب الأكبر أخاه حتى استشاط وأكله الغيظ وزعق فينا أين اتجه الرجل؟

فقال أحدنا متلعثما الى الغرب.

فقال الرقيب الأكبر : نلاحقه الآن ولن يفلت من بين ايدينا، يقتلنا ببرودة من دون أن نغنم منه شيئا.

سرنا جميعا متخفين خلف الرجل وزوجته دون أن يتفطنا الينا ولما نزل الظلام نصبا خيمة وطلب الرجل من زوجته الاستراحة.

فردت عليه المرأة بقولها : بل نم أنت فانني لا أجد نعاسا.

فزعق الرجل في وجهها : بل قلت لك نامي داخل تلكك البيت لأن حدسي يحدثني بانهم سيتبعوننا ويتعقبون أثرنا ما دمنا قتلنا واحد منهم.

دخلت المرأة الخيمة ونامت ملء جفونها ثم استيقظت فوجدت زوجها متكئا على حجر كأنه يعد النجوم فقالت له ادخل البيت لترتاح وسأحرس أنا الخيمة فأبى الرجل ثم ما لبث أن قبل فمد لها السلاح بعد أن أحس بسلطان الكرى. مضى الهزيع الأول والثاني من الليل، وفي الهزيع الثالث استرخت المرأة وغلبها النعاس فاستسلمت للنوم والسلاح في حضنها، ولما أيقنا من نومها أمرنا الرقيب همسا أن نتوزع فريقين أحدهما يهجم على الخيمة للقبض على الرجل والأخر لافتكاك السلاح من المرأة.. وطبقنا الأوامر. فهجمنا على البيت والتقطنا السلاح من بين ذراعي المرأة التي استيقظت في ذعر وذهول فقاما مروعان يرتجفان فكال لهما الرقيب جملة من اللكمات على الوجه والقفا وأقسم أن يحمل الرجل حيا ويقتله

حيث قتل أخاه بكت المرأة ورفعت عقيرتها بنواح حار تعدد فيه ماضيها مع زوجها وما عاشته في أيامه من حب وأفراح وأتراح فيما نحن منشغلون بتحويل ما على البعير من حوية ومتاع فوضعناه على ظهر الرجل ورقبته ثم سقناه الى جانب زوجته أمامنا..

سار الرجل أمامنا منحني القامة.. وكلما ثقل عليه المتاع توقف قليلا فيهمزه أحدنا بحرابة في جنبه فيتحرك لاهثا حتى تأكد صاحبنا أنه سيموت قبل الوصول الى أطراف مكمننا.. ولما ظهر على الرجل الاعياء الشديد قالت المرأة بانفعال: لم بربكم كل هذا المقت فلو قتلتمانا لكان أجدى من هذا العذاب!

فرفعت عندئذ أنا يدي هذه «المرحومة» من الهواء وصفعتها بها على وجهها سقطت أرضا.. وهنا لعب القدر دورته.

إذا عشت رد على الناس الخبر

التفت كل الرفاق حول المرأة يفيقونها من الصفعة وكل واحد يستنبط رأيا حتى يذهب عنها الاغماء فانتهز زوجها الفرصة وهرب بكل ما فوق ظهره ليندس بين الأشجار والحشائش، والتفت أحدنا فجأة فلم يره فصاح قائلا أن الرجل هرب فتفرقنا في ذلك الظلام نفتش عنه، ولما أفاقت المرأة لمحته فترددت قليلا ثم ذهبت اليه وخلصته من يديه ونزعت عن ظهره الحوية التي كانت بها بندقيتان، فأخذ الزوج بندقية وأعطى الأخرى لزوجته وأمرها أن تبتعد عنه قليلا ثم حمل الحوية زحفا حيث وضعها في مكان مرتفع وبدأ يطلق علينا النار.. فكان الطلق يأتينا من كل مكان فيما نحن نطلق النار على الحوية حتى استطاع أن يقتل منا أربعة وهرب الثلاثة الباقون واستسلمت أنا في تلك المعركة.. ولما رآني تبسم لي قائلا لن أقتلك أنت.. ولكن تعال معي فتبعته خاشعا ذليلا تحت سلطان سلاحه وسلاح زوجته.. فأمر زوجته أن تأتي بشفره كانت ماضية، فوضع يدي اليمنى على صخرة وضرب الشفرة بقوة مرتين بحجر فانفصلت اليد عن ذراعها فأخذ صوفا كبس به يدي اليمنى وأنا في حالة من الذهول والإغماء ولم أسمع منه سوى همسة في أذني تقول «إذا كان عشت بين الناس رد الخبر...»

سأهديك نجوى

لطيفة البصير*

قرأت لخليل مسودة الكتاب الذي ألفته عنه، أحسست بالفرح يزغرد في عينيه وأدركت أن الهاجس الذي ابتغيه يرقص على أدراج قادمة.. قال : هذا لم أكن انتظره يا سعد.. وتشابكت عيوننا. رأيت الزهو آتيا والرحيق أجمل. أن أكتب عن خليل وأن يعشق ما كتبت (خليل الذي يحلم العديد من الناس أن يلتقوا به ولو للحظات عابرة). كانت ظلال المساء مورقة والوهج يطل على منافذ لا تنتهي، وكنا معا.. ينسيني هذا اللقاء بالآخرين أيامي العادية الراكدة والوجوه المتعبة والأشياء والأشياء والأشياء. في صدري أورق مدفونة وقلم وسخط يتيم، ولكن خليل يرافقني. سألته ما الذي يهديني لقاء أوراقي التي امتزجت بدم عروقي ونبضي؟

قال :

- سأهديك نجوى...

نظرت بالقرب مني، كانت نجوى قادمة. أحببتها تلك اللحظة، ربما بعد أن تمت الهدية، ربما كانت عشقا منتظرا، ربما هي التي رغبت أو ربما رغبة قديمة منسية لامرأة أخرى تتلقاها هذه المرأة الآن. لست أدري.. ولكنها صارت لي الآن أكثر من أي وقت مضى.. قالها خليل ولن أرد له أمرا.

وللتو منحتني يدها، لمستها.. رأيت الجمر كامنا تحت الجلد، وراعتني ضجتها الدفينة. لم أرغب في هذا الهدوء الذب بدا مفتعلا، وتحيلتها شكلا آخر غير هذه الملابس الأنسيقة التي ترتديها والقوانين التي ترسم الكلمات في شفتيها. أحببتها الآن كما لو أنها لي وودت أن أخبرها لكنني رأيت أني أستبق الأوقات. كانت تحدق بي.. بمكرها الأنثوي رسمت ابتسامتها اللعوب وكأنها تكهنت ما بي.. أسرعت إلى غرفتي نازعا الى الوحدة الجميلة أعيد بناءها وامتلكها. أطوف في الحجرة. إنها معي الآن لأيام أخرى، وستكون لي، لن أرفض الهدية، وهل أرفض هدية خليل؟ أعشقها، أحيطها بذراعي. تبدو فاتنة.. بخفة توقع تلك الأقدام الرقيقة المبتسمة. أرغب في أن الحقها والتصق بها. لا أريد لأي شفاه آدميج أخرى أن تقبل ثغرها المتألق الذي يمنح الورد، أريدها لي هذا الأسبوع.. لي فقط. هكذا أصبح أنانيا وغيورا حين أحس بأن القسمة ستتم هذا الاسبوع، أكره القسمة.. ثم أفكر من عساه يستطيع أن ينالها غيري. أنا أستحقها أكثر من كل الزائرين. الأوراق التي كتبتها عن خليل تجوز لي هذا السفر... وأهيم بها من جديد تلك الريشة الهوائية والشعر الكستنائي والعيون التي تمنح الألفة.

نجوى لي. يأناجيها. صرت عاشقا يكتوي بنار الفقد. أرفض أن تتمنع علي، أريدها أجواء حالمة، أريدها قوس قزح، وأريد أن أعتصر من عينيها حبي وأن أراها تذوب من الوجد لي.

* قاصة مغربية

ما الذي تفعله الآن.. ربما تكتب أوراقا شاردة، ربما تراقب تقاطيعها في المرآة، ربما تفكر بي.. أريدها أن تكون لي وأن أحملها وأجوب بها الغرفة. قد يكون جسدها رحلة أو أغنية أو بسمة خريفية. لست أدري. ثقوب دماغي تبعث على الوثة الناعمة. أريدها أن ترضعني وأن تداعب شعيرات رأسي كطفل.

تتدغدغ مسام جلدي وأشعر بالركض في الداخل. أرفض كل الآخرين الآن. لا أريد أن أرى سواها في هذا اليتم الحاصل.

عليها أن تراني ولكنني لا أستطيع أن أطرق باب الغرفة. يبدو الضوء خافتا ومحتملا لكل المفاجآت، ولكني أصر على رؤية لونها. قد يكون شبيها بلون الغرفة. قد يكون شبيها بكل الأشياء التي أتيخلها ولم أرها، لكنها هكذا تبدو فرحا انتظره.

أطرق باب الغرفة، نجوى أمامي... قميص وردي وشعر أكثر حرية ووجه خال من المساحيق إلا من ابتسامتها والأوراق في يدها.

أتعبتني تلك الأوراق.. شاهدة على انخطافها في اللحظة والموت الآخر الذي لا أعرفه، أجهله وأود طرق أبوابه. أحلم أن تحرق تلك الأوراق وأن لا تنحرق أصابعها.. أشهدها منسوجة بتلك الأظافر التي تتقن الأشياء الكثيرة. أطأ العتبة، رائحتها الخاصة والغرفة التي أمست رحيقا من نغمها الغائب. تلمسني تلك الخفة ولكنها تسبقني، تحرق شفتي وتعتصر...

وطأنا معا المكان والفراش وصارت بالقرب رحلة وشبقا. توهج الدم في مقلتي. طفت بها وولدت منها الرحيق والرحلة. كانت جسدا آخر أفتقد ملامحه، كالنسيج الغامض الذي ينهال علي في اللحظات العصيبة. أنا الآن هائم في تفاصيلها ورائحتها وأوراقها أمتص منها فتك الغياب وقلق الزمن الذي يعبر كالبرق.. كشيء هارب مستعص، هي الآن بيني وبيني، وهي الآن حلم لهذه اللحظة، حلق تحقق...

عدت لغرفتي أغوص في همساتها، أتطلع اليها معي وأنام في احضانها دقائق ودقائق وأكرر الغزو ألف مرة..

أتراها كانت تخبىء لي عضقا منسيا تبدّى جنونه بكل الهيجان والتوق؟ أتراها زمن قادم يرقص على عتبات أخرى تنسيني صدأ الوجوه التي أهرب منها؟

أنا الآن عاشق للهدية، مؤمن بها، أقدسها وأترقب الفجر البعيد.

أرسم وجهها في كل الدقائق وأحن اليها، حتى لو ارتسمت لعنة جميلة فهي هديتي.

كان الغد بعيدا، صعبا ودافئا في انتظارها..

انتظرت وقع اقدامها الجميلة، لكنها أبطأت، ربما تهيىء لي وعدا، ربما تغزل لي أملا، لست أدري. أتوقع ذهولي باكتشافها الآن أمام الباب شبحا يختال بالمفاجآت... أتوقع بسمة البارحة والهسيس الخافت والعنف الكامن. أتوقع انفجارها وقرع هذا الصمت هكذا أصبحت غيابا قاسيا لا ينفك ينشر طقوس البرودة في هذا اللحم الذي أرتديه. علي أن أخطو هذه العتبة الثانية.

كم يكون صعبا أن أطأ العتبة مرتين...

كم سيكون مرا لو انسحبت لخيالها مني..

تسللت من غرفي.. بدت غرفتها متمنعة بعيدة.. ترائى لي

خليل يشرب قهوته المعتادة.. التجأت اليه احتمي به من
هذه الوحدة التي تهاطلت. بحثت عن نجوى بين كلماته
لكنها لم تحضر.. سألته دون إلحاح.. قال لي : إنها غارقة
في كتابة الشرنقة الأخيرة من روايتها.. لقد كانت تعاني
هذه اغزيام من عسر الكتابة، لكن لحظتك معها البارحة
الهمتها النهاية.

حارس المزرعة

نبيل جميل*

تململ عبد اللّه الحارس في وقفته جوار رير الحديد، وقد ميّز ضوء النجوم الشاحب ملامح وجهه، والتمعت عيناه. إنه يصغي الآن لحس مريب، حفيف رملي ونفس حيواني، مثل كلب / الكلب الأسود توارى منذ حين / تفحصت عيناه بنظرات ثاقبة ما يحيط به، وكأنه يستجمع قواه ليستوعب الخطر، فيما التفت أصابعه على عصا ربّت بها ساقه.

بعد دورة تجواله الأخيرة بين الواح غرسات الطماطم وكثبان الرمل، أصبحت البئر الآن بعيدة عن مطاله، بئر مظلمة، غائرة، مليئة بالصدى والهمسات، تومض في رأسه وجوه رفاقه الجنود ويلفها الفراغ، فراغ استمر سنوات وما زال يحسّه بعد شهر من التسريح.

أخبره سائق البيكب عندما باشر العمل:

- تعود أن لا تهتم بأحاسيك.

ومنذ تلك الساعة التزم بتنفيذ الأوامر في رضى يخالطه شيء من التذمر. طيلة شهر بحث عن عمل في المدينة، وكان يفكر أنه لو خير بين البقاء مترددا على المقاهي أو العمل في مكان قصي لما تردد في الاختيار.

منذ يومين جلس في الحوض المكشوف لسيارة البيكب، محني الظهر بسبب اندفاع السيارة القلق ولفح الريح الحارق، وبالرغم من وضعه فان شعورا بالنشوة قد تفجر من داخله، رفع رأسه مستمتعا بآخر صورة انطبعت في ذهنه لمجموعة من عمال الميناء وقد اندفعوا بدراجاتهم الهوائية الصفراء متسلقين أمواج السراب...

عندما تنكبت السيارة الطريق الخارجي ازدادت سرعتها واشتد لفح الريح على وجهه، فلم يعد يسمع سوى صفيرها، احتكاك عجلاتها بالإسفلت، أزيز المحرك، خطف السيارات على جانبي الطريق. كان شعورا بالامتعاض قد تسرب الى داخله وهو يرى السائق محميا من سياط الريح وراء الزجاج يميل بالحديث مع امرأتين الى جانبه وتلتمع اسنانه الصفراء ضحكا. بعد برهة تحول امتعاضه الى غفوة قصيرة، فر منها على قرقعة عجلات السيارة، وهي تمر أسفل جسر صحراوي، فرفع رأسه ملتفتا حوله، ماسحا ذرات الغبار عن حاجبيه وشفتيه، كل ما رآه كان عبارة عن أسيجة رمل تحمي المزروعات، متاهة من ممرات رملية غريبة، وكان يستطيع أن يلمح في البعيد بعض النسوة بثيابهن الملونة ينحنين وسط الخضرة، وفي البعيد تبدو قطعان خراف وماعز وحولها يمر بعض الرجال.

وبغته توقفت السيارة، كان يشعر بخدر يشل ساقبه، ابتسم لنفسه وهو يقول:

- لابدّ أن الطعام وفير هنا، الرز واللحم... والراحة النهارية...

قال السائق وهو يضيف الماء رلى برّاد السيارة:

* قاص عراقي من البصرة

ـ عليّ أن أعود قبل حلول الظلام.

ولم يرد عبد اللّه، بل ظل يرقب نزول خيط الماء من إبريق بلاستك أماله السائق بكلتا يديه وهو يتحدث عن متطلبات العمل. وفجأة نطق عبد اللّه :

ـ وهاتان الحجرتان لمن ؟

فقال السائق :

ـ الصغيرة للراحة، أما الأخرى الكبيرة فتستخدم كمخزن، فيها آلة توليد الكهرباء، برميل الوقود، أكياس حفظ نايلون، مضخة الماء...

تأمل عبد اللّه شجرة الزثل الفيحاء التي توسطت المكان، تمد عند جذعها كلب أسود جوار سرير الحديد.

قال السائق :

ـ ربما يأتي صاحب المزرعة مع رفاقه ليلا، اثنان أو ثلاثة، بعض الليالي، لا عليك / ورمقه بنظرة واختلج أنفه / عليك بارتداء الدشداشة التي في الداخل بدل البنطلون. سوف يميّزون رائحتك.. المهم لا تدوّخ رأسك، أمور تحدث والمزرعة واسعة جدا...آه، أرى أنك متعب وبحاجة إلى النوم.

لاحق نباح الكلاب غبار السيارة عندما ابتعدت.

* * *

استلقى عبد اللّه على السرير بعد جولته الثالثة وثبت عينيه في السماء المتوهجة ذات البريق، أحس بمرور الوقت عبر جسده أسبه برعشة الحمّى، الشهور الستة الأخيرة من خدمته العسكرية قضاها في رابية على تلال (مندلي)، النسيم هناك ألطف ليلا، لكن هذيان البعوض قد يدفع المرء إلى الجنون، لذا كان عليه أن يتحرك طيلة الوقت، فاذا تقدم بضع خطوات الى حافة الرابية، فانه يستطيع أن يرى الممرات التي تعبر الحدود / آثار مواضع قديمة / دور خربة، حقوق أسلاك شائكة... في الصباح فزّ مذعورا على صوت سيارة، وعندما فتح عينيه واستقر دوار الأشياء من حوله، رأى أمامه، على مسافة، رجلا بدينا قادما بدشداشة بيضاء تحفّ به بعض النسوة، صاح الرجل من بعيد :

هه.. أنت.. هلا ناولتني إبريق الماء.

تضاحكت النسوة وغرّدت أصواتهن عندما مررن به ودخلن الحجرة الصغيرة، لقد رمقنه بنظرات مستغربة قليلا. هرول عبد اللّه وهو يحمل إبريق الماء الى حيث ينتظر الرجل، كان هذا يسحب طرف دشداشته كاشفا عن فخذيه وهو يقول :

ـ هم.. أنت الحارس الجديد؟ هم ! عفيه.

تفرقت النسوة وحمل عبد اللّه فراشه الى داخل الحجرة الصغيرة، وثناه على تخت تراكت فوقه أفرشة ولحف وسجاد، انتشرت حولها رائحة عطنة، لمح عبد اللّه امرأة فتيّة متقرفصة جوار كوة مجصصة احواف تشع الضوء، مطلّة على الجانب الآخر من المزرعة، رأى أن عينيها واسعتان ومكحولتان وإنها كانت ترمقه، فسألها عما إذا كان هذا هو صاحب المزرعة، أمالت رأسها وقالت بصوت خدر :

ـ لا.. لاو واحد من العمام.

أعدّ الشاي وخفق أربع بيضات ودخن سيجارة، دخل الرجل مهمهما :

ـ يجب أن تبكّر في النهوض.

وإتكأ على وسادة شاخرا بارتياح، نظر اليه وهو يمد يده متحسسا دشداشته :

- ابن ولايه.. ها ؟ هذي الخرقة بالية، إية.. ابن ولايه.

تريّث عبد اللّه مقتعدا سرير الحديد ولمست قدمه خاصرة الكلب الذي حرك ذنبه، كان يشعر بهما في الداخل، انتفخت عروقه ودخن سيجارة، ثم نهض وتحرك مبتعدا، كان بوسعه أن يرقب جامعات الطماطم وأن يدنو منهن، لكنه شعر بجسده يتشنج وخطواته تبتعد..

آوى الى فراشه مبكرا في تلك الليلة، أحس أن غبار النهار وشمسه ما زالا يصلاّن في داخله، وشعر بجسده يخمد تحت ظلمة السماء..

في ساعة من الليل استيقظ فزعا وتناول عصاه، لقد تخيلّ إنه سمع حساً، حركة مريبة، وإنه لمح قدحة شرر تلتمع في الظلمة، خيلّ اليه أنه رأى بعض الكلاب، لكنها لم تكن كلابا فأصات نباح هذه كانت بعيدة، ذئاب ! احركة الظلية الخفيفة لثلاثة ذئاب أحسها تعبر جسده ولهاثها يلفح وجهه، لا يستطيع أن يقول انه رأى ثلاثة ذئاب، لكنها مرت من أمامه ورمقته بنظرة جانبية ثم دخلت تلك الحجرة الصغيرة متشمّمة دعامتي الباب المتآكل.

12 سبتمبر 2001

وسام بن رجب

وأردتها أن تكون لي فلم تكن، وما كان باستطاعتي وما كان بيدها. وهرب مني ذلك الإحساس بالطمأنينة والدفء إلى إحساس بالعجز والنقصان.

* * *

همس أخي في أذني : علي انهض.

فتحت عيني نظرت إلى الساعة، كانت الواحدة بعد منتصف الليل. تمليت في وجهه امشرق سعادة، سألته عن الأمر. فابتسم ابتسامة عريضة وهمس : فجروا البنتغون ومركز التجارة العالمية في الولايات لمتحدة.

ابتسمت، وأدرت رأسي ناحية الحائط قائلا : كفي مزاحا، ألم يكن باستطاعتك انتظار الغد لمثل هذه الطرف.

همس وهو يرجني بعنف : بلى! ما أقوله هو الصدق عينه.

استدرت وقد أفقت كليا ونظرت إلى ذلك الوجه المشرق أمامي. صمت وكأني أهضم ما قاله ورددت في حيرة : البنتغون ومركز التجارة العالمية؟

هز أخي رأسه موافقا وصوّر بيده برجا هائلا وباليد الأخرى طائرة وضرب هذه بالأخرى وصالح : بوم.

قفزت من السرير متجها نحو التلفاز : من فعلها ؟

شغلّت التلفاز فاذا تلك الصور التاريخية تبث. طائرة عادية تصطدم بذلك البرج العظيم فيسقط منهارا. أتابع الصور : يا إلهي البنتغون، بكل أجهزته وأسراره وكل الخطط التي يحتويها ومركز التجارة العالمية، يا رلهي من فعلها؟

هتف أخي وهو يشاهد الصور مبهورا : صدام بطل.

ـ لا، لا يمكن أن يكون هو.. ولا فلسطين.. ولا ليبيا. هذه فعلة أحد منهم. هذه القدرة والجرأة والدقة ليست لأحد بعيد عنهم بل لأحد قريب منهم ويعرف كل كبيرة وصغيرة عنهم. أنظر كيف عرف القائد أي موقع عليه أن يصدم حتى ينهار كامل البرج.

هتف أخي في حماسه المعتاد وأمله الواعد: ألا يمكن أن تكون ضربة عربية موحدة؟ يجب أن نحتقل بهذا الحدث مساء الغد.

تحمست للفكرة : أجل، نستدعي الرفاق، ونحضر الشراب والزقاق.

وأتممنا الاستعدادات ونحن في حماس كبير نردد شعارنا فرحين، ويوم علينا ويوم لنا، ويوم نساء ويوم نسر.

أفقت هذا الصباح، وأسرعت، علي أن أقدم ملف الشغل للشركة العالمية للتجارة بسوسة، علهم ينتدبوني. لبست قميصي اللائق الوحيد وسويت من هندامي وقصدت الشركة. وخلال ساعات الانتظار، التي توقعتها بفضل تكرار محاولاتي الفاشلة ومطالبي المرفوضة للشغل، قرأت جرائد اليوم وكنت قد تسلحت بها قبل دخولي الشركة. على جميع الجرائد، صورة الطائرة وهي تصطدم

بالبرج. بعض المصادر تذكر أن الجيش الأحمر هو المسؤول. ولكن من أين لهذه المنظمة مثل هذه الجرأة؟.. ماذا لو كانت روسيا وراء ما حدث؟ أستقوم حرب عالمية ثالثة؟ وما هو موقع العالم العربي من كل هذا؟ هل ستنقلب الموازين وتنهار الولايات المتحدة بانهيار المبنى؟

- علي السالمي، تفضل.

دخلت المكتب الفاخر، فإذا بالمدير نفسه يستقبلني. وتخيلتني طائرة، والمدير مبنى. صافحته فإذا بيده تسود من أثر حبر الجرائد الذي علق بي. مسح المدير يده مستاء، فاعتذرت له متشائما.

قلب الملف الذي كنت قد قدمته للكرتيرة وسألني بجفاء:

ما اللغات التي تتقنها؟

- العربية.

- والفرنسية؟

- القليل منها.

- والإعلامية؟

نفيت برأسي، فنظر إلي وقال بانفعال: يجب ان تعلم ان الاختيار في هذا الوقت أصبح صعبا لذا يجب أن تقوم بمجهودات اضافية إن أردت فعلا أن تظفر بعمل.

وفجأة فتح الباب، ودخلت شابة في العشرين أو أكثر من العمر. شقراء الشعر، زرقاء العينين، هيفاء القامة. هتفت بالفرنسية: بابا ها أنا ذا. وارتمت في حضنه وأشبعته قبلا. ورأيت المدير أخيرا يبتسم، ورأيت سنّه المكسورة فعرفت لم يكن يكثر من الضحك.

وسألها باسما: كيف جدتك؟

- بخير، وأنت؟

- بخير، وكف سويسرا؟

- كعادتها رائعة.

وهنا التفت إلتفت إلي، صافحتني، ورأيت والدها يقوم بحركة وكأنه يريد أن يمنعها، وكان ذلك بسبب الحبر الذي على يدي، ولكن فات الأوان، تملت في الجميلة الحسناء، وهي ما تزال تمسك بيدي، وسألتني بالفرنسية: نعرف بعضنا على ما أعتقد؟

كنت متأكدا من أنها مخطئة جد التأكد. أولا لأني لم أر جمالا بهذا الشكل من قبل، ثانيا لأنني لم أتعرف على أغنياء. فاعتذرت لها نافيا. ولكنها واصلت الإمساك بيدي والتمعن فيّ. نظرت إلى المدير بحرج فقد خفت أن يظظن أنني من مسك باليد لأني الممسوك به، لكنه كان ينظر إلي وكأنه يحاول تذكر الوجه هو الآخر. وفجأة هتفت الفتاة في شكل طفولي: تذكرت أنت عطيل في مسرحية «أحلام».

استغربت حضورها العرض فقد عرض في أتعس قاعة في العاصمة، غير أني أحسست بالفخر وأجبتها بابتسامة عريضة: أنا هو يا أنستي.

صفقت فرحة وكأنها وجدت لعبة طالما انتظرتها وقالت وهي تدقق النظر فيّ وتتمعن كل التفاصيل في وجهي وجسدي: لقد كنت رائعا في تعاملك مع جسدك، أرجوك أر أبي كيف تثني عضلات صدرك الواحدة تلو الأخرى.

كان هذا العمل يتطلب تحميات كثيرة، ولذل؛ كان يجب عليّ أن أنزع قميصي، ولكن المهم هو أن صداري الداخلي مثقوب. ثم إن خلعت القميص أمام شابة حاضرة في

المكتب فقد يستاء المدير. فقلت محاولا إخفاء ارتباكي :

معذرة ولكن يجب الكثير من التحمية لذلك.

ـ أتدري، أردت أن أراك بعد العرض ولكن..

رن هاتفها الجوال فابتسمت لي ورمت قبلة في الهواء لوالدها قائلة : أراك هذا المساء. ثم غمزته ملمحة لي وقالت : حاول معه.

خرجت من المكتب بعد ان فزت بشيئين، أولا بالوظيفة، وثانيا برؤية ذلك الجمال الرباني. مررت بغرفة الانتظار لأخذ الجرائد التي تركتها فما زال أمامي انتظارات كثيرة، الحافلة، فالغداء ومن ثم انتظار إلى الليل لأعرف أن هذا اليوم الممل هو على وشك الانتهاء.

وقفت أنتظر الحافلة، كانت الشمس حارقة، فاستعملت الجرائد لأحمي نفسي منها، فلم أر السيارة الحمراء الفاخرة التي تقف أمامي، أنزل رجاج السيارة، وكانت هي. هتفت : عطيل، أوصلك ؟

فتحت لي الباب فرأيت بابا ذهبيا يفتح أمامي، وصعدت السيارة، كانت فاخرة، ونظررت إلى الملاك الذي إلى جانبي. وكان رائعا. وهيىء لي أني في حلم من أحلامي التي تعددت في أيامي العاطلة، وليالي الفارغة، نظرت إلى الساعة، وتساءلت في غنج : ما برنامجك هذا الصباح، وأضافت بدلال، فلنشرب قهوة سوية !

وافقت على طلبها بسرعة فائقة وفرحة متفاقمة. كنت مبهورا ولم أصدق أنني.. أنا.. أنا... علي السالمي، مع هذا الكائن الخرافي الذي يمثل حلم شباب تونس، بل شباب العالم العربي، بل شباب العالم. وتسارعت عديد الأسئلة في ذهني وأهمها : كيف حضرت عرض «أحلام»؟ وما علاقتها بالمسرح؟

ـ اين نذهب ؟

لم أكن أعرف من مقاهي سوسة سوى الشعبي منها، فأجبتها مازحا : لك الاختيار.

دخلنا المقهى، كان فاخرا وكانت أنيقة وكنت نشازا في هذا المشهد الرائع من الأناقة والجمال. جلسنا، وقدمت لنا قائمة المأكولات، صعقت لارتفاع ثمنها، فما في جيبي لا يكفي لنصف قهوة في هذا المكان. نظرت اليها فإذا بها تتمعن النظر فيَّ، وتدقق النظر في كل جزء من وجهي، وجسدي، و... ابتسمت، أحسست بالسعادة والفخر : أنت رائعة.

ابتسمت لي مجاملة، ثم توجهت نحو النادل : عصير غلال وقطعة حلوى. ثم توجهت لي : جرّب الحلوى هنا إنها لذيذة. فأجبتها كاذبا أنني أفطرت جيدا هذا الصباح. ولكن بعد الحاجها، واقتناعي بأنني إن طلبت الحلوى أو لم أطلب فإنني لن استطيع أن أدفع الفاتورة لغلو ثمنها. فطلبت مثلها عصير غلال وقطعة حلوى.

نظرت اليها فإذا هي تتملى فيَّ النظر في صمت ،إعجاب. بادلتها النظرات، وأحسست بخدر يسري في كامل جسدي وعيني تنزلقان لكامل جسدها. وقاطعتني : والآن، حدثني عن امسرح، عن عطيل و «أحلام».

ـ عن أي شيء بالذات ؟

ـ عن علاقتك بالمسرح، متى بدأت، لم تمارسه، متى ومع من ؟

ـ أعشقه، وودت لو كنت قادرة على التمثيل مثلك.

ـ ولم لا ؟

- لا، ليس لي القدرة ولا الموهبة.

- أتدرين أن مع جسد كجسدك، يمكن لأي مخرج أن يوظف حضورك على الركح، دون حاجتك إلى التمثيل.

- أتعتقد أني أقبل بسلوك كهذا. فاما أن اكون قادرة على التمثيل وإلا فلا حق لي في الصعود على الركح. ثم أن لكل شخص ميدانه.

- كلام جميل ورأي نبيل، وأضفت مازحا، وعربية سليمة، ولكن ما ميدانك أنت؟

متت قليلا، ثم نظرت إلي وقالت بدلال : أبيع الحلم.

- لمن وأين ؟

- هذا يبقى رهين اللحظة، فلا أفكر فيهما.

ساد الصمت للحظات، ونحن ننظر لبعضنا بعضا، ثم ابتسمت قائلة : لوجهك سحر خاص، سمرتك الخفيفة، وعيناك الواسعتان السوداوان تذكراني بكاليفورنيا. لقد قضيت فيها شهرا بقي في ذاكرتي كيوم من أيام ألف ليلة وليلة. صمت قليلا ثم أضافت : أتعلم أن أروع النظرات التي تتماشى مع طابعك، هي نظرات الشهوة والنداء.

وأحسست أني فارس من فرسان ألف ليلة وليلة، وأني أنقذ الأميرة فاربح قلبها والمملكة. ونظرت اليها قائلا : أنت أميرة نزلت إلي من السماء.

فابتسمت قائلة : بل أنا شيطان من الأرض، قد أبيعك الحلم للحظة. فلا تتعجل القول.

- ولكني أريدك للعمر كله، لا للحظة، وأضفت : أتعرفين أننا لم نتعارف على بعضنا البعض بعد.

فنظرت للبعيد : وهل نحن في حاجة إلى ذلك ؟

- ألا تعقدين ؟

- أعتقد أني أعرف عنك ما يكفي.

- هذا ليس رأيي.

- أسأل ما بدا لك.

فسألتها مازحا : الاسم واللقب وتاريخ الولادة وماكنها وعناوين اغرقامة، وسنتصل بك بعد هر.

- اليوني التونسي، مولودة في 18 فيفري 1978 بسويسرا، أي أبلغ من العمر 24 سنة. مكان إقامتي الحالي بسوسة. ولست أدري بعد ان كنت سأعود الى الولايات المتحدة أم لا خصوصا مع ما حدث.

أشرقت قائلا : ضربة هائلة، أليس كذلك ؟

- أجل، فظيعة، هذا أمر رهيب أن يصبح السلام مهددا في العالم.

قهقهت قائلة : وكلها أعمال ارهابية يجب مجابهتها والقضاء عليها.

أجابت في جديتها التي حسبتها مزحا في البداية : هذا طبيعي، فليس من المعقول قتل أرواح بريئة دون عقاب، أتدرك أنه كان يمكن أن أكون هناك وقت الحادث.

صمتّ لوقع الصدمة عليّ. لم أكن أعتقد أن هناك في كل تونس أو في العالم العربي من يندد بهذا الحدث أو يطالب بعقاب الفاعل. كان موقفي واضحا وصريحا، وهو : الشماتة والفخر. وها أن هذا الكائن الرائع الذي أمامي يستنكر هذا العمل ويطالب بمعاقبة الفاعل.

سألتها : ألا تعتقدين أن هذا الحادث هو نتيجة سياسة أمريكا القمعية لكل بلدان العالم العربي أو العالم الثالث بصفة عامة. وأن ما حدث هو رد فعل على كل ذلك.

قطبت مستنكرة : أي قمع نمارسه أمريكا علينا؟ أمريكا

هي أرض الحلم والجمال وهي سندنا في أوقات الحاجة.

كان موقفها مفاجئا جديدا علي، امتقعت وانعقد لساني وتساءلت عن موقفها من فلسطين؟ من اسرائيل؟ من العراق؟ ما موقفها من الإسلام عموما؟ ما دينها؟ ما ملتها؟ ما مذهبها؟ وما موقفها؟

قطعت تفكيري قائلة : يجب علي الذهاب، عندي موعد مع شلتي للذهاب إلى البحر. أتذهب معنا؟ سنكون في نزل السلام. أرجوك يجب أت تأتي وإلا فسألغي موعد معهم لنتغذى سوية.

وترددت الكلمات في أذني، أمريكا، إوهاب، شلتي، فندق خمس نجوم. أي عالم تنتمي اليه هذه الفتاة؟ ورفعت رأسي كي أجيبها : لا، لن أكون هناك، فلا تريحني معاشرة المنبتين. غير أني تمليت في ذلك الوجه ورأيت حياة جديدة، واعدة تنتظرني. فأجبتها : سأحاول.

وجاء النادل : وأحسست بالعار. أنا الرجل الشرقي الذي يحاول دائما أن يكون في المقام الأول وسيد الموقف، أحسست بأن الأمور تعدتني، لأني لا أملك شيئا في جيبي ما أثبت به رجولتي.

عدت إلى المنزل وقلبي يخفق، هل وقعت في الحب؟ أهي الزهرة التي طالما بحثت عنها؟ هل سأرسي أخيرا في الميناء الذي طالما أبحرت بحثا عنه؟

فتح أخي الباب، فبادرته : وجدتها.

- من هي ؟

- وجدت عروس البحر التي طالما حلمت بها ولم أدري أنها موجودة على أرض الواقع كنت قد نسيت في تلك اللحظة موقفها من الولايات المتحدة، أو بالأحرى تناسيته. كائن بعثه اللّه رلي بعد طول دعاء. الجمال والأناقة والأنوثة والرقة والمال.

- يجب أن أقابلها هذا المساء بنزل السلام.

- أنسيت يا حبيبي موعدنا هذا المساء، ولما رأى حيرتي أضاف، استدعها لتكون معنا.

قطبت ضاحكا : هذا لا يمكن.

- لـم ؟

- أين استيفها؟ أفي هذا القن الكريه؟ عن أي قضية؟ لنهنأها بمجزرة قتل فيها العديد من الأبرياء.

تمعن أخي فيّ : أي نوع من الفتيات هي لتغيّرك بين عشية وضحاها.

- لم تغيّرني ولكن نبهتني إلى جانب آخر للأحداث.

- أدرك أن العديد قتلوا في هذه الحادثة ولكن ألا تعتبر أن ضحايا فلسطين هن أضعاف ضحايا الولايات المتحدة. وأن هذا ردّ اعتبار لنا... للكرامة العربية والاسلامية.

- ألا يمكن تأجيل الاحتفال ؟

- لن نؤجل شيئا، إن أردت أجلّ موعدك معها.

... وذهبت إلى النزل، اقترضت النقود واقترضت الثياب، سويت من شعري وهذبت هندامي، وتانقت ما استطعت. وكانت هناك، صدمت، كان جسدها شبه عار. وقفت مدهوشا غير قادر على أن أبادرها بالكلام. وحين نظرت اليها وجدتها مدهوشة كدهشتي، وتتمعن فيّ بخيبة .

سألتها : ماذا بك؟

- لم غيرت مظهرك ؟

استغربت السؤال : هل أقلقك ذلك ؟

- أجل، أنت لك طابعك الخاص وشكلك الشخصي فلم

تحاول تغييره ؟

- أي مظهر وأي طابع ؟

- طابعك العطيلي !

- ذلك ليس طابعي! بل طابع عطيل. تلك الشخصية وهذا الذي أمامك هو الشخص.

صمتت دون اقتناع، ثم قالت مستدركة : أنت على كل الأحوال رائع.

وهنا نظرت اليها وبادرتها : وأنت ألا تعقدين أنك تبالغين، فأنت لا تلبسين غير ملابس داخلية.

تمعنت فيَّ وأجاتني : هذه ليست ملابس داخلية. هذا بكيني.

- ولم لا تسترين* جسدك قليلا ؟

ابتسمت واقتربت مني، ولمست لسمة رقيقة لطيفة اقشعر لها كامل جسدي، وأحسست بقلبي يهوي.

وهتفت : أتسمع اللحن؟ أعشق هذه الموسيقى فلنرقص. نظرت حولي فلم أر أحد سوانا يرقص.. الجميع مستلقون على العشب أو على حافة المسبح يأخذون نصيبهم من الزشعة البنفسجية. وكانت أمامي بجسدها الملائكي.. تتلوى.. تتمايل مع اللحن الأمريكي، دارت حولي وأحسست بشعرها يلامس جسدي، التصقت بي قليلا ثم ابتعدت، وهي تغمزني وتبتسم أن تعال إلى الرقص معي. لم أكن أعرف الرقص على الألحان الغربية، ولكني تمايلت معها. وتململت في داخلي : آه، لو رآني أخي لاستلقى من شدة الضحك، أترك الزق ولخوان لأهز ردفي كراقة رديئة. وتمايلت في داخلي أحلام وردية. أين أنت يا علي من كل هذا. ها أنت ترقص مع حورية من الجنان، وأنت تملك قلبها، وها أن جسدها يفتح يديه لك مهلا مستقبلا.

مني، ولمست عنقي بأناملها، لمسة رقيقة لطيفة اقشعر لها كامل جسدي، وأحسست بقلبي يهوي.

وهتفت : أتسمع اللحن؟ أعشق هذه الموسيقى فلنرقص. نظرت حولي فلم أر أحد سوانا يرقص.. الجميع مستلقون على العشب أو على حافة المسبح يأخذون نصيبهم من الزشعة البنفسجية. وكانت أمامي بجسدها الملائكي.. تتلوى.. تتمايل مع اللحن الأمريكي، دارت حولي وأحسست بشعرها يلامس جسدي، التصقت بي قليلا ثم ابتعدت، وهي تغمزني وتبتسم أن تعال إلى الرقص معي. لم أكن أعرف الرقص على الألحان الغربية، ولكني تمايلت معها. وتململت في داخلي : آه، لو رآني أخي لاستلقى من شدة الضحك، أترك الزق ولخوان لأهز ردفي كراقة رديئة. وتمايلت في داخلي أحلام وردية. أين أنت يا علي من كل هذا. ها أنت ترقص مع حورية من الجنان، وأنت تملك قلبها، وها أن جسدها يفتح يديه لك مهلا مستقبلا.

وأمسكت بخصرها، فالتصقت بي، وهي تتثنى وتتلوى أمامي. وأحسست بعرق بارد يتصبب من جبيني ولم يعد بامكاني الصبر أكثر، وهمست في أذنها والشهوة تتقاطر مني : ألا يمكن أن ننعزل قليلا بعيدا عن الناس؟

- بلى، تعال، اتبعني. أملك غرفة في هذا النزل ومشت وهي تهز ردفيها وتتمايل مع اللحن. ولم أر الطريق، فقد كنت أنظر إلى تلك الاستدارة، فلا أردت زيادة ولا نقصانا لذل الردف الذي سواه اللّه أحسن تسوية. وصلنا لغرفة من غرف النزل الفردية، فتحت الباب، ودخلنا. اقتربت منها وجذبتها من يدها كي أقبّل فمها، فألقت برأسها الى

الوراء باسمة : انتظر حتى أعدل الضوء. وعدلت فيه فأصبح ضوء قويا ساطعا. ارتميت عليها كي أقبلها وجسدي المحموم يرزح تحت وطأة الشهوة، والرعدة أخذت مني مأخذا، فابتعدت قليلا إلى الوراء وأخذت مصورة شمسية من درج خلفها وقالت بدلال : فلنأخذ صورة أولا.

فابتسمت بخبث : القبلة أولا.

- تعال وخذها.

فأسرعت لأختطف القبلة، فاخذت الصورة. وجريت نحوها، فأخذت الصورة الثانية. ودرنا في الغرفة، أنا أبغي القبلة، وهي تأخذ الصور. وفجأة توقفت وفتحت الشباك فدخل ضوء النهار.

- ماذا هناك؟

- لقد نفذ الفلم.

فابتسمت بحبث : فما الذي ننتظر ؟

- أن نخرج.

قطبت : إلى أين؟

- أنت إلى منزلك، وأنا إلى شلتي.

- ماذا تقصدين ؟

قالت وهي تفرغ المصورة من الفلم وتثنيه واضعة إياه في صندوق : أقصد ان غايتي كانت تصويرك في وضع شهواني، وقد نجحت، فشكرا جزيلا لك.

وقفت مدهوشا، انظر اليها دون أن أفهم شيئا. فواصلت كلامها : أنا مصورة فوتوغرافية، تلك هوايتي ومهنتي. ومن يوم أن رأيتك في عرض «أحلام» أصبحت غايتي هي تصويرك، وعلى وجهك ارتسامات الشهوة.

تملكني الغضب والشخط عليها وقلت : إذا فقد تلاعبت بمشاعري من أجل صورة.

ابتسمت : أنا لا أرى الأمور على هذا النحو. ألا ترى اني بعتك الحلم ليوم كامل. الحلم بانك تعرفت على امرأة كاملة الأوصاف والشروط وأنك نلت راها وإعجابها وحبها. ألا ترى أنك وليوم كامل حلمت بمستقبل وردي مشرق وانك تزوجت الأميرة.

نظرت اليها مشمئزا : أنت شيطان

- قد أخبرتك بذلك من أول لقائنا فلا تلمني.

ابتعدت عنها منهارا وسمعت صوتها يصل إلي من بعيد : لا تكن جاحدا فقد عشت يوما ممتعا مليئا بالحلم والهوامات.

حسين الجزيري أحد روّاد النهضة الأدبية والفكرية في تونس

بوراوي عجينة

1) ترجمة حياة حسين الجزيري

ولد سنة 1894 بمدينة تونس (بحي الحلفاوين) في عائلة منحدرة من أصل تركي، إذ كانت غادرت «إزمير» بتركيا إلى الجزائر. ثم هجرتها إثر احتلال الفرنسيين إياها (وكان ذلك سنة 1830) الى تونس، واستقرت بها. وكان والده ضعيف الحالة الاجتماعية يرتزق من صناعة يدوية تقليدية بسيطة (بدكان بنهج المر). تعلم الإبن بالكتّاب ثم بالمدرسة القرآنية (الابتدائية). ثم التحق بجامع الزيتونة وتلقى فيها نصيبا من العلوم الدينية والأدبية. وقضى به بضعة سنوات، تحصل إثرها على شهادة «التطويع». ولم يكن راضيا عن طرق التدريس الزيتوني ووسائله التقليدية آنذاك فحرّض طلبة جامع الزيتونة على الإضراب ففصل من الدراسة (1912)، انقطع عن التعليم النظامي نهائيا. وأصيب ببعض الاضطرابات النفسية، وأقبل على المطالعة بشغف متعرفا على أعمال الأدباء القدامى والمعاصرين، وعمل في مجال الصحافة (بداية من 1910) وتولى تحرير افتتاحيات جريدة «اللواء»، وكتب مقالات بجريدة «المنار»، وحرر في صحف هزلية - منها «المضحك» و «جحا» - مقالات انتقد فيها السلطة الحاكمة آنذاك الأمر الذي دفعها إلى نفيه بالكاف بالشمال الغربي للبلاد. وهناك عمل كاتبا مساعدا لدى وكيل بالمحاكم الشرعية (1912 - 1914). وكان في الأثناء مراسلا لجريدة جزائرية هي «الفاروق» (1914). وأزعجت انتقاداته السلط الرسمية الجهوية فأمرت باخراجه من الكاف. عاد إلى مدينة تونس واستأنف الكتابة والنشر في الصحف وانتقد المستعمر الفرنسي منددا بسياسته فأوقف وحكم عليه بالسجن. وظلّ حبيسا بالسجون قرابة أربعة وأربعين شهرا أثناء الحرب العالمية الأولى. وفي السجن شرع ينظم الشعر الهزلي. ثم أفرج عنه بعد الهدنة فعاد إلى المجال الصحفي محررا بجريدة «المضحك» والعمل ضمن معاوني الوكلاء والمحامين.

أصدر الجزيري بنفسه «النديم» في 19211/2/12 وهي جريدة أدبية اجتماعية فكاهية أسبوعية. وحرّر الافتتاحيات والمقالات ونشرها بها. وكان مسؤولا عن شؤون الإدارة والمال والطبع والاشتراكات والتوزيع أيضا. وقد تجمع حول الجريدة ثلة من أدباء العصر منهم المصلح راجح ابراهيم (1888 - 1933) ومحي الدين القليبي (1900 - 1954) المناضل في صفوف الحزب القديم... وكانت الجريدة منارة للفكر والأدب في فترة ما بين الحربين. وقد نشرت بها عدة مقالات وأقاصيص والأشعار. وكانت «النديم» طريفة في شكلها ولغتها ونقدها وشعرها ومقالاتها وروح الفكاهة المنبعثة منها. وكان الجزيري من المساهمين في الحركة الوطنية فقد ساهم في تأسيس الحزب القديم (1920) وانتسب اليه

ووقف إلى جانب العروبة والإسلام ودافع عن الخلافة. وقد ساهم في إثارة خصومات أدبية من خلال مقالاته ومواقفه التي جاهر بها. وتواصل صدور جريدة «النديم» بلا انقطاع قرابة عقدين من الزمن، إلى أن أوقفت نهائيا في 1942/11/8 عند إيقاف المستعمر الصحف الوطنية وفرضه الأحكام العرفية. ثم استأنف الجزيري الكتابة وحرّر افتتاحيات بجريدة «الزهو» وعمل موظفا مستكتبا محررا بوزارة العدل (منذ 1943) حتى إحالته على المعاش (سنة 1956).

وأنتج إثر الاستقلال برامج إذاعية بمحطة الإذاعة الوطنية بتونس منها برنامج «من صميم الحياة» وهي مجموعة مسامرات. وقد كتب تمثيليات مثلتها فرقة الإذاعة الوطنية وبثّت. وعيّن مراقبا بالإذاعة للنصوص الأدبية والتمثيليات.

وكان حسين الجزيري - المعروف بفصاحته - قد تولى في مرحلة شبابه تلقين الممثلين والممثلات بمدينة تونس النطق الصحيح والأداء السليم أثناء التمارين ضمن جمعية «الشهامة العربية» للتمثيل. وكان عضوا إثر الحرب الثانية بجمعية «الاتحاد المسرحي» وقد كتب لها مسرحيات مثلتها وقدمتها على الركح. وقد نظم أغان فكاهية لحنها وأداها المطرب الفكاهي الساخر صالح الخميسي (1912 - 1956) والممثل الفكاهي محمد الحداد (1923 - 1961).

وقد ربطت حسين الجزيري بمعاصريه من تونس والمشرق علاقات صداقة وودّ أو عداوة وخصومات أدبية، سواء من خلال الصحف أو المحاضرات أو المسامرات أو المراسلات أو المحاورات أو الجلسات الخاصة، ونذكر من هؤلاء الأدباء الأصدقاء أو الأعداء : زين العابدين السنوسي وسعيد بوبكر وبيرم التونسي والمصلح محمد رشيد رضا صاحب «المنار» المصرية. وكان التنافس شديدا بين الموالين لجريدة «الزمان» (وكان يتزعمهم بيرم التونسي) والموالين لجريدة «النديم» (وكان يتزعمهم الجزيري) الذي استغل جميع المناسبات للتعليق على الأحداث ونقدها نقدا لاذعا (السجن، الإقبال على المخدرات، الثراء الفاحش، الإفراط في الأكل ، معاكسة النساء، نقد المستعمر... وكانت شخصيته طريفة متعددة الجوانب فبقدر ما كان يتصف بحدة الطبع والصلابة والتشبث بالمواقف والميل الى الخصومات كان يسخر من الناس رمن نفسه أيضا، ويمزج الجدّ والهزل في مقام واحد أحيانا. وقد تزوج زيجتين في الأولى من محافظة حتى وفاتها ثم الثانية من متحررة إلا أنه لم يخلّف منهما عقبا.

كتب المقامة والقصة القصيرة والمسرحية الفصيحة ولمسرحية العامية ونظم الشعر الفصيح والشعر الهزلي والأزجال (وهي أشعار عاميّة) والمعارضات الشعرية وحرّر الافتتاحيات والمقالات الصحفية الاجتماعية والأدبية والسياسية وأعدّ المسامرات والبرامج الإذاعية والاجتماعية والكتاب المدرسي...

ونشر أعماله الأدبية بصحف ومجلات منها : «النديم» و «الزهرة» و «امضحك» و «الثريا» و «العالم الأدبي» و «البدر» و «الزهو» ، «اللواء» ، «الفاروق» الجزائرية و«المنار» ومجلة «الإذاعة»... ومثلت مسرحياته في

المسرح وفي الإذاعة ولحنت بعض أزجاله وأشعاره.

وقد اعتنى المؤلف بنشر بعض أعماله الأدبية بنفسه في حياته في كتب. وقد أعيد طبع أهمها بعد الاستقلال، وظلّ أغلبها رغم ذلك متفرقا في صحف العصر ومجلاته وفي مقدمتها «النديم». وقد انتسب الى اتحاد الكتاب التونسيين منذ تأسيسه سنة 1971 حتى آخر أيام حياته.

وقي توفي حسين الجزيري في 1974/12/31 بتونس في سن تناهز الثمانين عاما ودفن بمقبرة الجلاز في غرة جانفي 1975.

2) من أقوال الباحثين :

قال جعفر ماجد في سياق حديثه عن الشعر في فترة ما بين الحربين : حسين الجزيري حمل راية الشعر الفكاهي وسخّر سخريته للنقد الاجتماعي والسياسي، وعرف ظلمة السجون فخاطب عصفورا بقوله :

غناؤك يا طير يذكي فؤادي
فؤادي الذي ذاق مرّ العـذاب
شقيت لأنّي أحبّ بلادي
وقلبي لشقوتها في الاكتئـاب
لقد كنت يا طير في كل وادي
طليقـا ترفرف بين الصحـاب
فمدّدت لأسرك أشواك غدر
لمن يطربـون بنـوح الأمـير

وأضاف جعفر ماجد : «ويكاد لا يخلو شعر شاعر في ذلك العهد من المعاني الوطنية... فإن الشعر كان طاغيا في الثلاثينات على كل الأجناس الأدبية الأخرى».

«تاريخ الأدب التونسي الحديث والمعاصر» تونس - قرطاج - بيت الحكمة 1993 - جعفر ماجد (45 و 46).

وقال محي الدين خريف ضمن حديثه عن «الأدب الشعبي في تونس» والشاعر الذي كان له حضور أكبر ومثّل الشعر التونسي الحضري أكبر تمثيل هو حسين الجزيري المتوفى سنة 1976 بتونس، فهذا الشاعر قد عاش عصره ومثّل مظاهر الحياة فيه أكبر تمثيل وتتبّع الحياة اليومية للإنسان العادي بتونس العاصمة ورسمها في جزئياتها الصغيرة وكلياتها الكبيرة. وكان كالصور الذي حمل معه آلة تصويره ويطوف بها في الشوارع والأسواق ويدخل بها إلى البيوت وكلما وجد نقطة ملفتة للنظر رسمها متخفيا وراءها مشهد آخر لشخص عادي أو لظاهرة يومية... من ذلك تعرضه لعادة التدخل في شؤون الغير وحب الاستطلاع... (عرض خريّف مقطوعة شعرية) ووصفه لنا مظاهر كانت موجودة وما زالت إلى الآن في بعض الأحياء ومنها صورة «الدقازة» تلك المرأة التي تكشف للناس عن طوالعهم مدعية المعرفة بالغيب (عرض خريّف مقطوعة شعرية).. (محي الدين خريف - المرجع نفسه ص 232 وص 233 وص 234).

وقال الحبيب بن فضيلة مقدما مقامات الجزيري : «لقد تضمنت مقامات الجزيري مستويين هما الهزل والجد. وهي مقامات لا يهتم فيها صاحبها ... برصد حيل اللصوص والمكدّين بقدر ما هي لوحات تصوّر واقعا اجتماعيا عرفته «الحاضرة» في الثلاثينات من هذا القرن تصويرا كاريكاتوريا حمّله المؤلف آراءه ومواقفه النقدية من القضايا المطروحة متخفيا وراء الجانب الهزلي للمقامة (...) (و) لغة هذه المقامات قريبة من اللهجة

العامية في مجملها إضافة الى اشتمالها على كلمات إفرنجية مثل «بونجور - البروفسور... (...) ولم يخل السرد في مقامات الجزيري من عنصري الدهشة والغرابة، لكن عنصر المفاجأة كان متغيبا، وحتى إن وجد فبصفة نادرة ومحتشمة (...) كما أن الأوصاف والنعوت غالبا ما شملت تدرجا من المدح إلى القدح وإظهار العيوب، ذلك أن روح المقامة نقدية إصلاحية لمظاهر اجتماعية، في أسلوب جمع بين الهزل والجد. وبالتالي فإن الموعظة من كل مقامة لابدّ أن يهتدي اليها القارىء دون أن يجهد الكاتب نفسه في الإفصاح عنها» وختم بن فضيلة : «وهكذا تعتبر مقامات الجزيري من أحسن المراجع لدراسة أحوال المجتمع التونسي في أواخر الثلاثينات. ويعتبر الجزيري أبرز من كتب المقامة في تونس» . تقديم كتاب «مقامات الجزيري» ص 52 و ص 53).

ونقول : مهما يكن من أمر فقد كان أدبه طريفا جديدا مستمدا من صميم الواقع الاجتماعي وليس من الذاكرة الأدبية فحسب، فيه تنويع في الأغراض وتجديد في الأساليب وروح الدعابة والهزل والسخرية. وهو يمثل بلا أدنى شك علامة هامة طريفة في تاريخ الأدب العربي المعاصر بتونس.

3) مؤلفاته :

له قصص قصيرة كان نشر أغلبها في الثلاثينات والأربعينات ذكر ابن فضيلة منها :

«مؤامرة على الأرض بين الشمس والقمر» (قصة قصيرة) مجلة «البدر» ج3 - 1923.

«السلام على الجناة الكرام» (قة قصيرة) ملة «البدر» 1925.

«صياح الديك» (قصة قصيرة) مجلة «الثريا» جانفي 1945 - ص 39

«مقامات حسين الجزيري» (مقامات) تونس - المركز الوطني للاتصال الثقافي - وزارة الثقافة 1988. (تقديم وجمع الحبيب بن فضيلة) ويضم الكتاب 38 مقامة كان المؤلف كتبها ونشرها بين جانفي 1939 وافريل 1940 بـ «النديم».

«ديوان الجزيري» (شعر فصيح هزلي) : الدار التونسية للنشر 1971 في 130 ص ويضم قرابة 60 قصيدة ومعارضة شعرية.

وله «أزجال» عديدة (وهي أشعار بالعامية) كتبها إثر الحرب العالمية الثانية ومثلت بالاذاعة.

«جنازة ضائعة» (مسرحية فكاهية بالعامية) مثلت بالاذاعة.

«تنبيه الغلام إلى شيم الكرام» : (رسالة تعليمية) سوق البلاط تونس 1911 ثم الجزائر 1913،

وله أربع «مقالات» (نقدية أدبية) : وازن فيها بين الشاعرين مصطفى آغة 1877 - 1946 والشاذلي خزندار 1881 - 1954 نشرت في «النديم» في أربعة أعداد (شهر مارس 1923).

وله مقالات حفية و افتتاحيات (نشرت بـ «النديم» السنوات الممتدة من 192 الى 1947).

وله مقالات نشرت بمجلة الاذاعة بتونس بعد الاستقلال.

4) مراجع عن الجزيري :

زين العابدين السنوسي : «الأدب التونسي في القرن الرابع عشر» ط1 - 1927 - 1928 ط2 - الدار التونسية للنشر 1979 - (ج1 72-94) وفيه نص شعري عنوانه «استقبال رمضان».

محمد الفاضل بن عاشور : «الحركة الأدبية والفكرية في تونس» ط1 - القاهرة. معهد الدراسات العربية العليا 1956 - ثم ط2 تونس - الدار التونسية للنشر 1972 - وفيه إحالة على دور «النديم» (ص 155) وقصيدة «صوت من السجن» يقول فيها الجزيري :

حدث عن السجن بالإغراق لا حرج

هيهات أنسى له هولا إلى الأبد

مجلة الاذاعة التونسية في 7 نوفمبر 1969.

عمر بن قفصية : «أضواء على الصحافة التونسية» 1860 - 1970 - تونس - دار بوسلامة للنشر 1972 - 148 - 154.

محمد محفوظ : «تراجم المؤلفين التونسيين» بيروت دار الغرب الاسلامي 1984 - ج 2 (29 - 34).

جان فونتان : «فهرس تاريخي للمؤلفات التونسية» (تعريب حمادي صمود) تونس - قرطاج - بيت الحكمة 1986 - 150.

عمر بن سالم : «اتحاد الكتاب التونسيين» القانون الأساسي وتراجم الأعضاء - تونس قرطاج - بيت الحكمة 1989 (167 - 169).

محمد بوذينة : «مشاهير التونسيين» - ط2 - سراس للنشر تونس 1992 - «حسين الجزيري» 1930 - 194).

«تاريخ الأدب التونسي الحديث والمعاصر» تونس - قرطاج - بيت الحكمة 1993 -

جعفر ماجد : ضمن «الأدب التونسي فيما بين الحربين» ص 45 وص 46 ومحي الدين خريف ضمن حديثه عن الأدب الشعبي في تونس - 232 - 234).

عمر بن سالم : «كتاب من تونس، تراجم» تونس - دار سحر للنشر 1995 (69).

حمادي الساحلي : «الصحافة الهزلية في تونس نشأتها وتطورها» من 1906 إلى 1956. بيروت - دار الغرب الاسلامي 1996 - ونشر له «المقامة العاشورية» وكان الجزيري نشرها سنة 1940.

محمد بوذينة : «حسين الجزيري» «سلسلة مشاهير» العدد 157 - الحمامات تونس - منشورات بوذينة 1996.

الحبيب شيبوب : «حسين الجزيري شاعر الوطنية» مجلة منارة الساحل سوسوة - السنة 4 - العدد 5 - نوفمبر 2003 - (56 - 58).

مرجعان بالفرنسية :

جعفر ماجد «الصحافة الأدبية في تونس من 1904 الى 1955» منشورات الجامعة التونسية للنشر 1979 - (دكتوراه دولة) عرّف بدور «النديم» في الحركة الأدبية بتونس.

جان فونتان : «تاريخ الأدب التونسي» تونس ط2 - سراس للنشر 1999 - ج2 (170 - 172).

مرجعان آخران :

عبد العزيز العبسي : «ملامح من المجتمع التونسي من خلال جريدة النديم» (شهادة الكفاءة في البحث) نوقشت بكلية الآداب بمنوبة - تونس 1980 - (مازالت

مرقونة).

الأزهر الزنّاد : «فنيات الهزل في ديوان الجزيري» (شهادة الكفاءة في البحث) نوقشت بكلية الآداب بمنوبة - تونس جوان 1982 - (مازالت مرقونة).

5) من مولفاته السردية : مقامتان

أ - المقامة الأولى

حدثنا الفيلسوف المشهور المكنّى عند الجميع بأبي طرطور (2) قال : جمعتني إحدى فترات الارتياح. بفضيلة صاحبنا الشيخ الدحداح(3) وقد رأيته معربا عن تعجب كبير. ومفصحا عن استغراب كثير. فقال ألم تعرف ما حصل في هذا النهار. من أخبار النجائب وعجائب الأخبار. فقد ارتفع الى السماء تذمّر السادة الزوربيين. من عدم وجود الثلج عند أغلب البائعين(4). وقد سمعنا بأن معمل الثلوج قد تعطلت آلاته. أو اضطربت بعض حركاته. مما جعل الناس يفتشون في كل حي دون أن يحصلوا على أي شيء. ولقد شاهدت جماعات أمام المستودع ينتظرون. وهم في التذمر والتبرم يمعنون. هذا يقول لا قبل لي بتحمل هذه الحرارة. دون زن أجد الثلج عند عطار(5) الحارة. وذلك يصيح كيف أتناول الغلة(6) دون تثليج. والحرّ ما زال يتكاثر ويهيج. والآخر ينحو باللوم على المعمل وحركاته. ويتهمه بعدم أخذه احتياطاته.

قال الدحداح : فاستمعت لكل ما قالوه في هذا الباب، وانصرفت بالتفكير في ما يقاسيه الأعراب. ثم قلت : يا اللّه لأولئك البؤساء. ممن قدوا كل مواد الغذاء. يستغيثون فلا يغاثون. وقد لايجدون ما به يتبلّغون(7). ولكم أتت المجاعة على المعدمين من سكان البادية. ولكم أورثهم الجوع أخطر الأمراض العادية. ففي الأمر عبرة لمن اعتبر. وأثرٌ مخزن لمن نظر وأبعد النظر. أناس ساخطون على فقدان الثلج مبرّد العوينه(8) والدلاّع(9). وأناس يدعون جياع أبناء جياع. وربك وليّ الصابرين. وهو أرحم الراحمين.

ب - المقامة الصحافية

خدثنا الأديب المشهور. الظريف أبو طرطور. قال : كنّا جلوسا في إحدى الجنائن(11) العمومية. نتحادث بشأن الأحوال الاقتصادية. وإذا بصحافي قديم قد أقبل علينا فسلّم وجلس هو الآخر يتحدث الينا فشاهدنا في بردتيه إمارات(12) الثراء بعد الإملاق(13). وعلامات الشبع عقب الاشتياق. فسألناه عن أسباب نعمته الجديدة. وعن مطيّته لعيشته السعيدة. وقد عرفناه قبل اليوم في خصاصة محدقة. وفي ضائقة مرهقة. فقال الحمد للّه رب العالمين. لقد انسحبت من حضيرة الصحافيين. بعد أن قضيت شطر العمر أخدم بني الإنسان. وأبوء بالخيبة والخسران. أنفق من العقل ومن الجيب. وأخالف بالسهر المرهق نصائح الطبيب. وإزاء هذا لا ألقى إلا المقابلة بالتثبيط. والمعاملة بما لا يتفق مع التنشيط. هذا يبتلع حق الجريدة ويهضمه. وذاك يجحد مالها عليه وهو يعلمه. ومنهم من ؤذا تأخرت عنه الجريدة يعنّفك. وإذا أنت بيدك الاشتراك يسوّفك. ثم إذا قيّضت(14) له خلاصا صرفه ببعض الأعذار. ،إذا بعثت له الوصل في البريد رفضه بازورار. ومنهم من إذا خاطبته بلطف. فأنت الوقح المتعجرف. وإذا أغلظت له في القول فأنت

الشحات(15) المتكفّف. وإذا نشرت اسمه سقط الحق ورفع اكلام. وإذا شكوته لأحد أحبابه فيا لك من مغتاب نمّام. فكيف لا اقرّ يا إخواني من هذه المهنة العجيبة. وكيف لا أعرض عن تلك الذمم الغريبة. فها قد هربت بما بقي لي من العقل(16). وفتحت دكانا لبيع الفحم والبقل. ونجوت بجلدي من عذاب الصحافة. التي ما تزال(17) عندنا خرافة. وأصبحت بعيدا عن كل قلق. لا أفكّر في أجر مطبعة ولا في ثمن ورق. ومن هضم لي حقا ولم دفي فيه تأنيب ولا لوم. فهنالك عند الله تجتمع الخصوم.

1 ـ نشرت «المقامة الثلجية» لحسين الجزيري أول مرة بجريدة النديم الاسبوعية باسم مستعار هو الحريري في 23 جويلية 1939 ص 92. والمؤلف هو الجزيري

ثم نشرت المقامة ضمن كتاب «مقامات حسين الجزيري» تحقيق وتقديم الحبيب بن فضيلة وزارة الثقافة والمركز الوطني للاتصال الثقافي، تونس 1998 ص 92، ص 93

أصدر الجزيري جريدته النديم سنة 1921 وهي أدبية فكاهية زسبوعية. وكان يحرر فقراتها ويديرها ويهتم بتوزيعها بنفسه وتواصل صور الجريدة 22 عاما وتوقفت إبان الحرب العالمية الثانية. وكان الجزيري محررا بصحيته وعدة صحف اخرى منها الزهرة والنهضة والثريا والعالم الأدبي والبدر وغيرها (انظر مقدمة مقامات حسين الجزيري ص 18 وص 191. الشروح والهوامش بدون معقفات من اعداد مقدم المقامات الحبيب بن فضيلة. أما من بين معقفين فهو من إعدادنا.

2 ـ الطرطور: الدقيق الطويل. القلنسوة القيقة للرأس

3 ـ الدحداح من الرجال: القصير الغليظ البطن. (ج) دحاديح

4 ـ أغلب البائعين: أغلب الباعة

5 ـ العطار: بائع المواد الغذائية وتطلق هذه التسمية عليه في تونس العاصمة فحسب.

6 ـ الغلة: الغلال

7 ـ تبلغ بكذا: اكتفى بالبلغة: ما يكفي لسد الحاجة ولا يفضل عنها

8 ـ العوينة: نوع من الثمار يكون أسود اللون أو زصفر وبداخله نوى صغيرة وهو شبيه بالمشمش.

9 ـ الدلاّع: نبات من فصيلة القرعيات: ثمرته كبيرة، قشرته غليظة وتكون بيضاء أو خضراء، شكلها إما بيضوي أو دائري، لب هذا النبات أحمر. لذيذ الطعم غني بالماء والسكر. يستعمل كمرطب في البلدان الحارة ويطلق عليه في شمال افريقيا «دلاع» وفي بعض المناطق الأخرى يسمونه البطيخ الأحمر.

10 ـ نشرت «المقامة الصحافية» لحسين الجزيري أول مرة بجريدة النديم في 16 افريل 1939 ص 74 بمضاء الحريري وهو الجزيري ثم نشرت المقامة ضمن كتاب «مقامات حسين الجزيري» تحقيق وتقديم الحبيب بن فضيلة وزارة الثقافة والمركز الوطني للاتصال الثقافي، تونس 1998 ص 74، ص75

11 ـ الجنائن: الحدائق

12 ـ أمارات: علامات

13 ـ الإملاق: الافتقار

14 ـ قيّ: قاض فلان فلانا بالشيء: عاضه عنه وزبدله به. قيّض الله له كذا. قدره له وهيأه. تقيّض الشيء له. تقدر وتسبب.

15 ـ الشحات: الشحاذ / المتسول

16 ـ في النص الأصلي جملة: «وفتحت دكانا لبيع العقل» وهي (هنا) زائدة فاستغنينا عنها.

17 ـ في النص الأصلي: لا تزال (كذا).

هامش الحياة، هامش الكتابة

فرج الحوار

هل هي مجرد مصادفة أن يقدم بوراوي سعيدانة نصين - ولا أقول أقصوصتين - من مجموعته الموسومة بـ أخبار حمدان القرمطي وأتباعه باستشهادين لصموئيل بيكيت وبابلو نيرودا يؤكد فيهما كل من الرجلين، على طريقته الخاصة، عن عقيدة وموقف يصبح بموجبهما المركز - ونعني به هنا ما اصطلح على اعتباره من المقومات الأساسية للوجود الاجتماعي الانساني - مجرد هامش، بينما يتحول هذا المفهوم الأخير الى مركز بديل ؟

يردّد بوراوي سعيدانة مع صموئيل بيكيت في مفتتح أروقة الفشل: «ليست الفوضى المنتشرة في الوجود من اختراعي، وفرصتنا الوحيدة في التجدد أن نفتح أعيننا ونرى الفوضى، تلك الفوضى التي لا يستطيع إنسان أن يتلمس أي معنى وراءها»(1).

أما بابلو نيرودا فيقول في بداية كلاب الشارع آتون(2) : «كمواطن، أنا رجل عاديّ عدو للقوانين والمؤسسات، أشعر باشمئزاز نحو البورجوازية، معجب بحياة القلقين الساخطين، سواء كانوا فنانين أو مجرمين».

وتكمن أهمية هذين الاستشهادين، في ما نرى، في كونهما يمثلان الأفق المعرفي والأيديولووجي للنصوص السردية المضمنة في المجموعة، وهو أفق يتحدد وفقه مفهوم الهامش، لا بصفته فضاء مفارقا أو مواز للفضاء الاجتماعي المكرّس، وإنما بصفته تحولا جذريا في صلب هذا الفضاء نفسه والقيم المؤسسة له بما يعكس العلاقة التراتبية التي تربط الواحد منهما بالآخر.

ومؤدى هذا القول أن مفهوم الهامش لا يكتسب إلا كرديف لمفهوم المركز، وهو ما نلمسه بالفعل في الثنائيات التي تجعل من الفوضى واللامعنى نقيضا للنظام والمعنى، وتجعل من الفضاء السردي - وفقا للتصوّر اللوكاتشي - مجال إدانة وبحث : ردانة للأوضاع القائمة، وتبشير بأوضاع وقيم بديلة. وهي مهمة تضطلع بها مجموعة من الفواعل يربط بينها قاسم الإنتماء إلى الفئات المهمشة اجتماعيا، نخص بالذكر منها الشحاذين والمتسكعين وبائعي السجائر(3)، والعاطلين عن العمل(4). وهي حالات اجتماعية لا تنتمي إلى فئة بعينها، وإنما هي تنضوي تحت مسمّى الشرذمة بالمعنى التهجيني للكلمة.

سنحاول في جزء أول من هذه المقاربة أن نوضح معاليم الانقلاب القيمي الذي أدى الى انتصاب الهامش مكان المركز. وحيث أن مفهوم الهامش في الأعمال التي نحن بصددها لا يتصل بعامل المكان فحسب، وإنما هو يشمل كافة المقومات المؤسسة للجنس القصصي، فقد ارتأينا أن نتلمس في جزء ثان من هذه الدراسة عوامل التهميش على مستوى المضامين، على أن نخصص الجزء الأخير منها لتلمس المحمول الإيديولوجي والرمزي لفعل التهميش بصفته فعلا إبداعيا.

أ ـ عوامل التهميش الأساسية :

إن المقصود لدينا بلفظ الانقلاب هو ممارسة القاص لفعل التهميش كفعل إرادي يطال المقومات الأساسية للمتن السردي بدرجة أولى، ثم يتعداها الى المضامين. وتتمثل إرادة التهميش هذه في عملية إفساد متعمّد ـ وهو متعمّد لأنه خيار واع ـ لعملية القص على مستوى قواعد صياغة الفواعل والمستوى المعرفي وكذلك على المستوى القيمي.

ولعل أهم نتائج هذا الانزياح عن الأنماط المكرسة هو أن تتحول الكتابة لدى القاص إلى «مجال شاسع» من «الأوراق المبعثرة» «الملطخة» بالمداد الأبيض»، على حدّ تعبير الراوي في آخر أروقة الفشل(6)، وهو ضرب من الكتابة البيضاء ـ إن صح التعبير ـ التي لا تؤسس لمعنى ما لأنها تقوم على إيمان راسخ بسلبية الفعل وسلبية المقاصد في عالم تحكمه الأهواء والنزاعات الاعتباطية.

1 ـ الفواعل والرهانات :

ومن السمات البارزة لانهيار مقومات القص المعهودة أن الفواعل المكرّسة في مشادة عنيفة وأروقة الفشل ـ مدار حديثنا في هذه القراءة ـ لا زسماء لها، فالنص الأول ينعت الشخصيتين المركزتين فيه بألفاظ من قبيل «رجلان اثنان»(7) أو «هما كجرادتان»(8)، ويشير إلى الشخصيات الأخرى باللفظ التعميمي «الناس» ـ ويقول عنهام إنهم نيام في مخادعهم كالجراد، كالقنافذ، كالطيور الوحشية»(9) ـ أو بعبارات أخرى نسوق منها «وجوه شاحبة كالليل» و «رؤوس منتوفة الريش كالدجاج المسلوخ»(10)، وهي عبارات تقزيمية وتهجينية في آن لأنها تختزل الكائن البشري في أحد أعضائه، فضلا عن الإحالة على الحيوان في كل هذه الحالات. وهو ما سنعود اليه بالتحليل لاحقا.

أما النص الثاني فيشار إلى الشخصية المحورية فيه بضمير الغائب المفرد المذكر، وتحدد الشخصيات الأخرى بالإشارة إلى ما يفترض أن يحيل على أوضاعها المهنية، وإن كانت هذه الإحالات لا تنص في الحقيقة إلا على هامشية هذه الفئات. مثال ذلك البائسون(11)، وبائعو الكلام، وماسحو الأحذية، والمتسولون(12). ونفس هذا التعميم الضبابي نلمه في ما يتعلق بالإطار الزماني للنصين، فقد اقتصر في الأول منهما على الاشارة الى طريق ما «في مدينة غاطسة في ظلمة النوم كقطعة فحم»(13)، وتوفر النص الثاني على لفظة الخريف(14) كإيماءة مبتسرة إلى زمن الحكاية، وأشير إلى اطاره المكاني بلفظي الرصيف والطريق(15).

ولعله مما يزيد من حدة الغرابة في النصين ـ بل في كل نصوص المجموعة ـ ما ساد فيهما من مناخ كافكائي تلمس اثاره في غياب مفهومي العلية والسببية في الربط بين الأحداث، وخاصة في حقارة الرهانات التي هي مدار عملية القص، بل وانعدامها في بعض الحالات، وهو ما حول المتن السردي إلى لوك واجترار لا طائل من ورائه. فقد تحدد الرهان في مشادة عنيفة منذ السطر الأول في شكل معادلة صعبة من الورق المقوى160)، مفسحا بذلك المجال للصراع المحتوم الذي سيكون الحدث المركزي واليتيم في النص، وهو صراع أفضى في النهاية إلى نتيجة قررها الراوي كما يلي : «هما اثنان، والكرتونة

كرتونة واحدة، وبعد جدال ولكم وشتم وسب ولطم غدت الكرتونة كرتونات والرجلان رجالا»(17).

الرهان المركزي في النص الثاني يتمثل في استحالة التفكير في عالم متداخل مختل مشوه المعالم، نهب للفوضى، وهو ما تعلن عنه الشخصية المحورية اذ تتساءل : «ما جدوى مراجعة فقدت قوامها في نصف الطريق؟»(18)، او عندما تتوالى الاشارات الى عبثية التفكير، وعدم جدواه في صيغ متكررة ومتقاربة مبنى ومعنى، كأن يقول الراوي متحدثا عن بطله بانه «تمادى في التفكير»(19)، او انه «أذعن مليا لفوضوية الطريق الممتدة امامه، لجلبة الجاحدين على الرصيف، لكل هؤلاء وهؤلاء، وفظاعة مساعيه تبهره بصدق الاخفاق»(20)، او ان آراءه «تلاشت (...) حيث لا يعلم، ولن يعلم قط شيئا ما يبلور له العلامات المتضاربة على الطريق»(21)، ليقرر في النهاية مآل كل ذلك بقوله : «وايقن - بعد ان ايقنوا - ان لا شيء يتعب الفكر أكثر من التنقيب عن الاستقرار»(22).

2 ـ مملكة العدمية :

ان هذه العدمية الحادة هي التي تفسر المناخ الكافكائي الذي ألمحنا اليه منذ حين، وهي التي تضفي على الفواعل واعمالها طابع التفاهة والحقارة والوضاعة والمذلة - وكلها صفات ترددت في مواضع عديدة من النصين، بل اننا نزعم ان لفظتي الحقارة والمذلة ترقيا الى مستوى المفاهيم لدى القاص بوراوي سعيدانة - وهذه العدمية هي التي تحدد الأفق المعرفي والايديولوجي لنصوص المجموعة عندما تحكم ببطلان الفواعل وببطلان سعيها، وهو ما تردد مرارا في أروقة الفشل في مواضع مفصلية من النص وفي شكل احكام قاطعة. مثال ذلك ما يقوله الراوي على لسان الشخصية : «ليتك تنبذ العالم وما فيه»(23)، او ما يقرّره من نتائج بدلا عنه، كما في قوله : «غدت أحلامه كتلة ظلام. وغدا قاربا بلا ربّان»(24)، أو كما في قوله : «كان لا شيء، وما يزال لا شيء. وغدا مجموعة ثقب»(25).

ولعل قمة هذه العدمية تمكن في التشكيك في اوضاع ووضع المؤسسات التي يستند اليها وجوده، وما نتج عنها من قيم، موضع التساؤل والشك، كما هو الشان في سلسلة الاسئلة هذه : «ما قيمة الإنسان؟ ما قيمة العلم؟ ما قيمة المحافل الاممية التي تدعو إلى التعاون، تدعو الى السلام»؟(26). وهذه العملية الأخيرة هي التي بنت عليها الشخصية قناعتها بان العالم عالمان في الحقيقة : عالم الاشقياء والبؤساء ومن شاكلهم من الهامشيين الذين تشبه أوضاعهم أوضاع البهائم، ولا دور لهم يضطلعون به الا دور الضحيح، وذلك لأن البؤساء والفقراء والمهمشين هم الضحايا بامتياز في أخبار حمدان القرمطيّ وأتباعه، وهي وظيفة سنتدبر محمولها الايديولوجي بعد حسن، خاصة وأن نصوص المجموعة تقدمها بصفة القانون النافذ. أما العالم الثاني، فهو عالم الموسرين والمنعمين و «الأسياد»(27)، وهي فئات اجتماعية لا تحضى بوجود فعلي لها في نصوص المجموعة.

والعلاقة بين هذين العالمين تحكمها قطيعة مستحكمة باتة، هي من قبيل القدرية الصارمة التي تقطع باستحالة الوئام والتعايش، وبالتالي باستحالة الخلاص في كون

تكتسحه الفوضى. وقد جعلت هذه الفوضى «لتريح الاشقياء ـ الذين يخنقهم دخان الكون المعفن، يلهيهم عن شواغل الحياة ـ من وزر الاستقرار»(28). عالم اشبه ما يكون بالفخ، يتكوّن من خطوط ملتوية ومتداخلة تجعل منه متيهة حقيقية، لا خلاص للضائعين فيها، تكون للأشقياء فيه و ـ أي في العالم ـ اوضاع واقدار الفئران التي تجهل كيفية التخلص من المصيدة(29). فلا عجب إذن ان يتوفر عنوان النص المذكور على لفظ الأروقة كمرادف لكلمة المتيهة.

ان مصير القضايا في عالم كهذا ـ ولفظة القضايا عند بوراوي عجينة عي مرادف للفظة الرهانات لدينا ـ ان «تبقى بطبيعتها تدوي بلا جدوى»(30).

ب ـ عوامل التهميش في المتن السردي :

1 ـ القدرية الصارمة :

ولابد من الاشارة هنا الى ان التهميش، الذي لمسنا بعض وجوهه ومظاهره في ما تقدم، ينبع من ارادة حقيقية لدى المبدع، لعلها جماع نظرته الى الكون والوجود، وتقوم هذه الارادة على عقيدة راسخة تستند الى نفس القدرية الصارمة التي المحنا اليها آنفا، وهي قدرية مؤهلة للاستمرار الى ما لانهاية. وقد لمسنا وجود هذه القدرية أولا كرديف لقانوني العلية والسببية، كما في قول راوي أروقة الفشل : «كذلك ترسم الصورة لتعلق، كذلك ترسم السيجارة لتحترق»(31). ولكننا لمسنا وجودها بشكل أوضح في علاقة بني الإنسان بعضهم ببعض، وهي حقيقة أكد عليها النصّان بشدة، بصفتها أولا قانونا ضابطا للعلاقات الاجتماعية، ثم بصفتها قانونا يحكم الوجود الإنساني برمته.

ومد عبّر نص مشادة عنيفة عن السمة الاولى لهذا القانون في قول الراوي : «هما اثنان وقطعة الكرتون قطعة واحدة، ولكن البديهي ـ كذا في النص ، ولعل المقصود هو الغريب ـ في الأمر هو أن أحدا منهما لم يفكّر ـ ولو نصف تفكير ـ أن الكرتونة يمكن قسمتها الى قسمين متساويين بالعلدل والانصاف(32)، أو في قوله أيضا، وقد ورد كلام الراوي هنا في شكل تعليل للخلاف الذي نجم بين الشخصيتين المحورتين : «قد حدث الخلاف. حدث ذلك لأنهما كانا كذلك. وكذلك كانا اثنين والكرتونة كرتونة واحدة(33). وواضح أن هذا التعليل الظاهري ليس في الحقيقة غير تكريس لنص المصادرة القدرية التي تحولّ الكائن البشري إلى آلة مبرمجة سلفا، لاحظ لها من وعي أو تفكير.

أما الوجه الثاني لهذه القدرية فقد عرّفه راوي أروقة الفشل بقوله : «الإنسان ليعبث به، ليدري به، ليتطعم ضراوة العذاب(34). فلا غرابة إذن أن يلح النص على خواء الفواعل وعجزها المطلق. فالإنسان في عرف القاص ليس إلا «شيئا وسط أشياء»، وسيظل «كذلك لا شيء»(35) ونحن نلمس لديه إصرارا على تغييب الإنسان وتشييئه، كما يتبيّن ذلك في المقطع الوصفي التالي : «وكراس مبعثرة مجلوس فيها»، اعتمد فيه القاص صيغة البناء للمجهول بطريقة غير معهودة لا تبررها إلا الرغبة في إعدام الفواعل إلماعا إلى تفاهتها الوظيفية. ونحن نجد أمثلة كثيرة من هذا القبيل، لعل أهمها وأطرفها قول الراوي : «مكتظة بهم شوارع المدينة اقفراء(37) ـ

والمقصود هنا «هم الأشقياء (الذين× تتداعى هاماتهم أما وابل الأفيون القاتل»(37) - حيث يترادف إثبات وجود الفواعل ونفيه عبر اللفظتين الأولى والأخيرة في الجملة. ولعل مما يزيد من حدة هذا النفي ما توحي به لفظة الاكتظاظ من إمتلاء، وهو إمتلاء يعضده الجمع في الضمير الموالي.

2 - الثنائيات المتضادة :

ولعل النظرة المانوية التي يصدر عنها القاص في تصوره للوجود الإنساني هي التي تفسرّ المتنين السرديين، موضوع البحث، على كم كبير من الثنائيات المتضادة، تعتبر من أهم عوامل التهميش فيه لأنها تحولّ الظواهر إلى قوى متباينة، بل ومتضادمة في الغالب، وهو ما يفسرّ سيطرة مفاهيم القطيعة الباتّة واستحالة اتواصل بين الفواعل المكرّسة في النصين.

والحقيقة أن هذه الثنائيات لا تخص الفواعل لوحدها، وانما تتعداها إلى الظواهر الطبيعية والاجتماعية على حد السواء بكيفية تبعث على الاعتقاد بأننا - وكما هو الحال بالنسبة للقدرية - إزاء قانون مفارق مفاده أن الكون تتوزعه قوى متعارضة ترمز إلى الصراع الأزلي بين الظلام والنّور، والخير والشر، والحق والباطل، وما أشبه هذا من المفارقات. فليس من الغريب إذن أن يتأسس المتن السرديَ في مشادة عنيفة على الثنائيات التالية : الخارج/الداخل، الليل/النهار، الأمان/الخطر، لمسالمة/العنف، الشتاء/الربيع.

ومؤدى هذه الثنائيات هو القول بحيوانية الفواعل كلها، المضطلعة منها بفعل الشجار والقائمة بدور المتفرج السلبي على حد السواء، والقول كذلك باستحالة التواصل بين الكائنات البشرية - وهي حقيقة يضطلع بعرضها وضرحها نص أروقة الفشل - لأنها عاجزة تماما عن التفكير المنطقي وترفض الاقرار بقيم التواصل التي ينبني عليها نظام التعايش. بل إن هذه الكائنات المشوهة والمدجنة لا تقرّ بأي قيمة أخرى ما عدا قيمة الفردية، فهي كالحيوانات تماما لا يتعدى وعيها ذواتها. وهو ما يقرّره الراوي في مشادة عنيفة بقوله : «وبلغت الزصوات - أي أصوات المتشاجرين - آذان الذين لم تكن لهم البتة أية رغبة في الاستماع إلى مثل هذا الحوار البغيض».

ويبلغ التعارض أشده في أروقة الفشل حيث تتوزع قطبي الثنائيات مفاهيم تتعلق بالأساسين المعرفي والنفسي اللذين يقوم عليهما الوجود البشري، وهي نفسها التي يقوم عليها فعل السرد بصفته كناية عن هذا الوجود، إن اعتماد النصّ برمته على مفاهيم الفوضى والنظام، والنعيم والشقاء، والمعنى واللامعنى تجعل من مفهوم الانقلاب، الذي حللناه آنفا، مرادفا للمسخ، ومن العالم زريبة يسكنها خليط من البهائم والسوائم، تتراوح طباعها بين المسالمة إلى حد الجبن وبين العنف إلى حد التصادم.

ومما يدعم تأولنا هذا لمفهوم الانقلاب ما ورد في النصين من وصف للبشر بأنها كائنات ذات أذيال(38)، أي كائنات من فصيلة القرود، وهو ما يؤكده النص بشكل واضح في موضع سابق عندما وصف أحد المتساجرين صاحبه بأنه «قرد جائع»(39). ولا يجب أن يغيب عنا هنا أن الإحالة على هذه الكائنات ذات الأذيال تستلهم - بشكل

واع أو لا واع - مفهوم المسخ القرآني وارتباطه العضوي بالقرود والخنازير، بصفتها حيوانات وضيعة ومدنسة. بل إن القاص يذهب إلى حدّ الجهر بالطبيعة الشيطانية لبعض هذه الكائنات المشبوهة، كما هو الشأن في قوله : «وزي عذاب أهول من عذاب البنادير تقرعها أيادي الأبالسة في ليلة من ليالي الرسراف والتهرية؟(40) وهو في مقام آخر يحولّ هذه الكائنات إلى مجرد أجساد «يعذبها الأمل البائس في قفص وهميّ لا حرب فيه ولا سلام»(41).

ولعلّه من المفيد أن نشير هنا إلى أن المتن السردي لا يفاضل بين هذه الكائنات، على ما في أدوارها من اختلاف. فهو يسوّي - عفوا أو قصدا - بين الضحايا وجلاّديهم وفقا لقانون القدرية الذي يحكم الكون والعلاقات بين الكائنات، باعتبار أن الفواعل جميعا آلات مصممة للقيام بأدوار تقررت سلفا بمعزل عنهم. هذا على الأقل ما يؤكده الراوي في عدستي أمينة، أولى نصوص المجموعة. إذ يعلن : «كذلك نبني والآخرون يحطمون. نعم، هكذا تشاء أو لا تشاء، لكلّ مهمته : البناء أو التحطيم، فالأمر متساو»(42).

ومؤدى كل ذلك أن العالم في قصص بوراوي سعيدانة عالم لم ينشأ بعد، والإنسان فيه غائب. والإنسان المقصود هنا هو الإنسان الفاضل الكامل، نقيض امسخ الذي يعمر اكون حاليا.

ج - إنشائية الخواء والعبث :

1 - الالتزام الكافر :

إن ررادة التهميش لدى بوراوي سعيدانة تصدر عن خيار فني وايديولوجي، وهو بهذا المعنى يتماهى، في الظاهر على الأقل، مع مفهوم الالتزام باعتباره أولا وآخرا التزاما بانتاج مخصوص لمعان وقيم مغايرة للمكرس منها على أرض الواقع. ولا يتأتى مفهوم الالتزام، بالمعنى المقرر هنا، إلا بتوفير جملة من الشروط، لعل أهمها وأوكدها الوعي والحرية. وهذا لنوع من الالتزام هو الذي يؤدي إلى إنتاج النص الواقعي بصفته وصفا منهجيا ومنطقيا للوجود.

ولكن الأمر مختلف تماما عند بوراوي سعيدانة، فأقاصيصه ليست مما يمكن تصنيفها في خانة الواقعية، وليست مضامينها ايجابية بالقدر الكافي الذي يتوجب وفقا له الحاقها بما يسمى الأدب الهادف. فجماع الحقيقة في أروقة الفشل يكمن في عقيدة يصدع لها الراوي، مفادها أن الحياة كلها «ضجيج وفوضى. ولا فلسفة نفعت الجياع (...) سوى أنها تبين أن ذلك لا إنساني. فلتهد حتى الموت على أنها لا إنسانية، ولكنها تبقى وتبقى تدوي، وتدوي بلا انقطاع»(43).

وغياب مفهوم السببية الذي يسمح بالتفسير الموضوعي هو فيعالم بوراوي سعيدانة قانون معكوس وحتمي يحيل كل شيء في الكون إلى وضى أزلية، يتعذر بوجودها على المتن السردي أن ينتظم في سياق منطقي متسلسل يؤدي في النهاية إلى إنتاج لمعنى ما، وقد ألمح نص أروقة الفشل إلى هذه الاستحالة من خلال ايراده للخبر التالي : «اغتيال خمسة عشر شخصا في حالة غامضة»، وهو خبر يعلق عليه بقوله : «الأسباب : مجهولة»(44). ولعل التفسير الوحيد لهذه السلبية الباتة أن الفوضى هي

ماضي الكون وحاضره ومستقبله، وهي بهذا المعنى ديمومة متجانسة وثابتة، لا مجال فيها لأدنى تحول أو تغيير. وقد أفصح الراوي عن قناعته هذه بقوله : «آن له أن يعلن علانية لا جدوى مساعيه لفهم الجديد في الفوضى»(45).

2ـ الجنة الأرضية المفقودة :

والقاص لا يبرر موقفه هذا ولا يعلله، وانما يصوغه في شكل مصادرات متتالية تتناسق تماما مع مفهوم القدرية الذي تقوم عليه نظرته الى الوجود، فيقرر طبقا لذلك بلا جدوى الاعتراض على ترديالأوضاع واستشراء العنف لأنها أوضاع من فعل «الإنسان المتحضر»(46)، وهي مصادرة أخرى يعمد اليها القاص ليختزل ويشوه مفهوم الحضارة، وذلك بربطه عضويا «بالقنابل والنيران»(47). ومعنى ذلك أن الراوي يقف موقف العداء من الحضارة الراهنة ومن القيم التي تقوم عليها استنادا إلى اعتبارات أخلاقية عامة يمكن اختزالها في مفهومي الظلم والهمجية، وهي مفاهيم تضطلع بتوضيحها الإحالات المتكررة الى البؤساء والجياع والمشردين الذين «يولولون و (...) يردمون تحت أمطار القنابل ونيران الانسان المتحضر»(48).

ولعله من البين أن هذا التصور للحضارة ينبع من نظرة انتقائية واختزالية لفعل البشري تقوم على التعارض امطلق بين الخير والشر، باعتبار أن الأول بديلا للثاني، وباعتبار أن الكون يمكن ـ وهذا هو المهم ـ أن يقوم على أحدهما بمعزل عن الآخر. ولا يخفى أن هذا التصور المثالي يصدر عن نظرة خلاصية للصيرورة البشرية تستند إلى فكرة اليوطوبيا باعتبارها نقيضا لعالم الرداءة والفساد، وهي فكرة وطيدة العلاقة بالاعتقاد بامكان وجود جنة أرضية.

إن انخرام نظام الكون وتفشي الفوضى فيه هي ظواهر عارضة يفسرها تنكر العالم لقدره في أن يكون جنة أرضية، جنة المستضعفين التي تجرد لتحقيقها حمدان بن الأشعث القرمطي(49) الذي ولد «في مكان ما من الدنيا»(50). ولكن الراوي لا يلبث أن يردف هذا التوضيح ـ الموضوعي رغم عموميته المجحفة ـ بتوضيح ثان يتوجه به إلى القارىء مباشرة يخبره بأن ولادة حمدان هذا تمت تحديدا «في دنيا الفقراء إن شئت»(51). والمعروف عن حمدان «أنه رجل طيب، بهي الطلعة، رقيق الإحساس، لا يحمل حقدا على الفقراء، يساعد الضعفاء ويحارب من أجلهم، عدو الاستغلال والاحتكار، والتالي عدو الرهاب والفوضى وعدو مصاصي العرق والدماء»(52).

وهذه الخطيئة التي تتمثل في انحراف الكون عن قدره هي نتيجة منطقية لخطيئة سابقة تتمثل في تنكر الإنسان لقدره في أن يكون ملاكا، أي كائنا خيرا على الدوام، كما يتبين ذلك من خلال صورة حمدان القرمطي، الذي يقول متحدثا عن نفسه : «أنا لا أخاف الجيش، ولا فرق النظام العام، ولا الشرطة، ولا رجال الدرك والمليشيا. عنواني في كل مكان (...) حيثما توجهتم وجدتموني. أنا الثورة والثورة في كل الأصقاع. والثورة لا يمكن القبض عليها ومحاكمتها»(53).

ويتبين، من خلال هذا أن إدانة الحضارة تستند إلى كونها من مصادر الشر الأساسية، إن لك تكن مصدره الوحيد،

وأن البديل محكوم، تماما كالواقع الرديء، بنفس القدرية الصارمة التي تحكم قبضتها على كل شيء في عالم بوراوي سعيدانة القصصي. فالثورة لن تتحقق بفعل إرادة حمدان وسعيه، وانما بفعل الحتمية التي تسير كل شيء.

ولابد من الملاحظة هنا أن ما يزيد من حدة هذه الحتمية كون الفواعل مجردة من الأسماء، بما في ذلك حمدان نفسه، باعتبار أن حمدان بن الأشعث القرمطي هو كناية أكثر منها اسما وهوية. وتتحول هذه الكناية الى رمز باحالتها على واقع تاريخي اقترنت فيه صفة القرمطي بمفهوم الثورة على وجه الاطلاق. وكون الفواعل مجردة من الأسماء يجعل منها فئات أكثر منها ذواتا ويجعل المتن القصصي مجالا للإدانة أكثر منه مجالا للتخييل. ولعل معنى الكتابة بالمداد الأبيض يكمن في هذا الانزياح تحديدا.

الخاتمة :

لقد بات واضحا بناء على كل ما تقدم أن القاص يعتبر الكون برمته هامشا لمركز مفقود ومرتقب يتعين على الثائرين وحدهم انجازه، لأن الثائرين «هم القادرون على تغيير العالم»، كما جاء في تصدير المؤلف لمجموعته، ولأنه في التغيير وحده «يكمن جوهر الوجود. «ولكن هذا التغيير ليس رهنا بارادة الإنسان الذي سيمكث يبحث عن مخرج لواقع متدهور يجب أن يعاش»(54)، على حد تعبير الراوي في خاتمة عدستي أمينة(55).

فالأديب في مجموعة أخبار حمدان القرمطي وأتباعه إنسان يمسك بيده قلما أبتر(56) اصابه الشلل، فلم «يعد في استطاعته أن يكتب»(57)، فضلا عن كون «الورقة مدنسة»(58)، وأن الكتابة لن تكون أكثر من عملية تكفير عن الذنب(59)، أي تكفيرا عن الخطيئة الأولى التي أصبح بمقتضاها الملاك البشري شيطانا رجيما. والأدب الذي تنتجه الفواعل الكاتبة في عالم الضياع والفوضى - وهو عالم الهامشية بامتياز - ليس غير «رسوم جافة لا تني - كذا في النص، ولعل المقصود لا تعبر - عن شيء(60)، فهو أدب مأزوم لأنه نتاج طبيعي للعالم الشيطاني(61)، فليس أفصح من الفوضى في التعبير عن الفوضى، خاصة وأن الإنسان «حين ينظر إلى نفسه في المرآة يفهم على الفور أنه تافه في عالم تافه»(62).

الهوامش :

1 - بوراوي سعيدانة، «اروقة الفشل»، ضمن أخبار حمدان القرمطي وأتباعه، ص 14.

2 - نفس المصدر ص 77.

3 - نفسه، ص 65.

4 - نفسه، ص 86.

5 - نفسه، ص 77.

6 - نفسه، ص 23.

7 - نفسه، ص 50.

8 - نفسه، ص 54.

9 - نفسه ص 52.

10 - نفسه ص 55

11 - نفسه، ص 15.

12 - نفسه، ص 18.

13 - نفسه، ص 55.

14 ـ نفسه، ص 19.

15 ـ نفسه، ص 15 ـ 16.

16 ـ نفسه، ص 50.

17 ـ نفسه، ص 55.

18 ـ نفسه، ص 15.

19 ـ نفسه، ص 17.

20 ـ نفسه، ص 18.

21 ـ نفسه، ص 20.

22 ـ نفسه.

23 ـ نفسه.

24 ـ نفسه، ص 16.

25 ـ نفسه، ص 18.

26 ـ نفسه، ص 20.

27 ـ نفسه، ص 22.

28 ـ نفسه، ص 14.

29 ـ نفسه، ص 16.

30 ـ نفسه.

31 ـ نفسه، ص 15.

32 ـ نفسه، ص 50.

33 ـ نفسه، ص 52.

34 ـ نفسه، ص 15.

35 ـ نفسه، ص 16.

36 ـ نفسه.

37 ـ نفسه.

38 ـ نفسه، ص 55.

39 ـ نفسه، ص 52.

40 ـ نفسه، ص 15.

41 ـ نفسه.

42 ـ نفسه، ص 9.

43 ـ نفسه، ص 21.

44 ـ نفسه، ص 18.

45 ـ نفسه، ص 23.

46 ـ نفسه، ص 20.

47 ـ نفسه، ص 21.

48 ـ نفسه، ص 20.

49 ـ نفسه، ص 86.

50 ـ نفسه.

51 ـ نفسه.

52 ـ نفسه، ص 93.

53 ـ نفسه، ص 103.

54 ـ نفسه، ص 12.

55 ـ نفسه، ص 3.

56 ـ نفسه، ص 6.

57 ـ نفسه.

58 ـ نفسه.

59 ـ نفسه.

60 ـ نفسه، ص 10.

61 ـ نفسه، ص 7.

62 ـ نفسه، ص 9.

الجمهـــــورية التـــونســـية

وزارة العـــــدل وحقـــــوق الانســـــان

المحكـــمــــة العقـــــارية

بـــــــــــــــلاغ

عملا بالفصل عدد 6 من المرسوم 3/64 المؤرخ في 20 فيفري 1964 ليكن في علم العموم ان القائمات العامة للعقارات التابعة للمنطقة مارث الشمالية حرف B من عمادة الجديدة ولاية قفصة.

والواقع مسحها تنفيذا لأحكام المرسوم المشار اليه أعلاه وضعت بمركز معتمدية السند ومحكمة ناحية قفصة وعلى من يهمه الأمر الاطلاع على تلك القائمات والقيام إذا اقتضى الحال بالاعتراض لدى المحكمة المذكورة في أجل شهر من تاريخ صدور هذا البلاغ بالرائد الرسمي للجمهورية التونسية والســـلام.

رئيس المحكمة العقارية

محمد المنصف الزين

الجمهـــــورية التـــونســـية

وزارة العـــــدل وحقـــــوق الانســـــان

المحكـــمــــة العقـــــارية

بـــــــــــــــلاغ

طبقا لأحكام المرسوم عدد 3 لسنة 1964 المؤرخ في 20 فيفري 1964 والقرار الصادر عن السيد وزير العدل وحقوق الإنسان بتاريخ 2005/1/28 المتعلق بفتح عمليات التسجيل الإجباري بالنسبة للعقارات غير المسجلة وغير المبنية الكائنة بالمنطقة العمومية السقوية وادي ببوش بعمادة الهرية من معتمدية الروحية ولاية سليانة وعليه فان عمليات التسجيل الإجباري تعتبر مفتوحة من الآن بكامل العمادة المذكورة.والقرار الصادر عن السيد وزير العدل وحقوق الإنسان بتاريخ 2005/1/28 المتعلق بفتح عمليات التسجيل الإجباري بالنسبة للعقارات غير المسجلة وغير المبنية الكائنة بالمنطقة العمومية السقوية وادي ببوش بعمادة الهرية من معتمدية الروحية ولاية سليانة وعليه فان عمليات التسجيل الإجباري تعتبر مفتوحة من الآن بكامل العمادة المذكورة.

فالمرغوب من كل من يهمه الأمر من المالكين والمتسوغين وأصحاب الحقوق العينية الاستعداد من الآن لإحضار جميع الرسوم والوثائق وجميع المؤيدات المثبتة لحقوقهم على العقارات غير المسجلة وغير المبنية المراد مسحها بالمنطقة المبينة أعلاه قصد تقديمها للحكام المكلفين عند مرورهم على عين كل عقار. والســـلام

رئيس المحكمة العقارية

محمد المنصف الزين

الجمهـــــورية التـــونســـية
وزارة العــــدل وحقـــوق الانســـان
المحكـــمـــة العقـــارية

بـــــــــــلاغ

عملا بالفصل عدد 6 من المرسوم 64/3 المؤرخ في 20 فيفري 1964ليكن في علم العموم ان القائمات العامة للعقارات التابعة للمنطقة حرفـA من عمادة المليشات ولاية المنستير

والواقع مسحها تنفيذا لأحكام المرسوم المشار اليه أعلاه وضعت بمركز معتمدية زرمدين ومحكمة ناحية جمال.

وعلى من يهمه الأمر الاطلاع على تلك القائمات والقيام إذا اقتضى الحال بالاعتراض لدى المحكمة المذكورة في أجل شهر من تاريخ صدور هذا البلاغ بالرائد الرسمي للجمهورية التونسية والســلام.

رئيس المحكمة العقارية

محمد المنصف الزين

الجمهـــــورية التـــونســـية
وزارة العــــدل وحقـــوق الانســـان
المحكـــمـــة العقـــارية

بـــــــــــلاغ

عملا بالفصل عدد 6 من المرسوم 64/3 المؤرخ في 20 فيفري 1964 ليكن في علم العموم ان القائمات للعقارات العامة التابعة للمنطقة حرف A من عمادة الجديدة ولاية قفصة.

والواقع مسحها تنفيذا لأحكام المرسوم المشار اليه اعلاه وضعت بمركز معتمدية السند ومحكمة ناحية قفصة.

وعلى من يهمه الأمر الاطلاع على تلك القائمات والقيام إذا اقتضى الحال بالاعتراض لدى المحكمة المذكورة في أجل شهر من تاريخ صدور هذا البلاغ بالرائد الرسمي للجمهورية التونسية والســلام.

رئيس المحكمة العقارية

محمد المنصف الزين

الجمهــــــورية التـــونســـية
وزارة العـــــدل وحقـــــوق الانســـــان
المحكـــمـــــة العقــــارية
بـــــــــــــلاغ

عملا بالفصل عدد 6 من المرسوم 3/64 المؤرخ في 20 فيفري 1964 ليكن في علم العموم ان القائمات العامة للعقارات التابعة للمنطقة حرف C من عمادة أم الصمعة ولاية قبلي.

والواقع مسحها تنفيذا لأحكام المرسوم المشار اليه أعلاه وضعت بمركز معتمدية سوق الأحد ومحكمة ناحية قبلي.

وعلى من يهمه الأمر الاطلاع على تلك القائمات والقيام إذا اقتضى الحال بالاعتراض لدى المحكمة المذكورة في أجل شهر من تاريخ صدور هذا البلاغ بالرائد الرسمي للجمهورية التونسية والســـلام.

رئيس المحكمة العقارية
محمد المنصف الزين

الجمهــــــورية التـــونســـية
وزارة العـــــدل وحقـــــوق الانســـــان
المحكـــمـــــة العقــــارية
بـــــــــــــلاغ

عملا بالفصل عدد 6 من المرسوم 3/64 المؤرخ في 20 فيفري 1964 ليكن في علم العموم ان القائمات العامة للعقارات التابعة لمنطقة حرف B من عمادة الهشام ولاية مدنين

والواقع مسحها تنفيذا لأحكام المرسوم المشار اليه أعلاه وضعت بمركز معتمدية جرجيس ومحكمة ناحية جرجيس

وعلى من يهمه الأمر الاطلاع على تلك القائمات والقيام إذا اقتضى الحال بالاعتراض لدى المحكمة المذكورة في أجل شهر من تاريخ صدور هذا البلاغ بالرائد الرسمي للجمهورية التونسية والســـلام.

رئيس المحكمة العقارية

محمد المنصف الزين

الجمهـــــورية التـــونســية
وزارة العــــدل وحقـــــوق الانســــــان
المحكـــمــــــة العقــــارية

بـــــــــــــلاغ

عملا بالفصل عدد 6 من المرسوم 3/64 المؤرخ في 20 فيفري 1964 ليكن في علم العموم ان القائمات التابعة لعمادة منزل سالم منطقة حرف Vمن معتمدية منزل حياة من ولاية المنستير والواقع مسحها تنفيذا لأحكام المرسوم المشار اليه أعلاه وضعت بمركز معتمدية زرمدين ومحكمة ناحية جمال.

وعلى من يهمه الأمر الاطلاع على تلك القائمات والقيام إذا اقتضى الحال بالاعتراض لدى المحكمة المذكورة في أجل شهر من تاريخ صدور هذا البلاغ بالرائد الرسمي للجمهورية التونسية والســلام.

رئيس المحكمة العقارية
محمد المنصف الزين

مجلــة المســار

يصدرهـا اتحـاد الكتـاب التـونسيين
أسسهـا محمد العـروسي المطـوي
الحســاب البنكـي 78861 7 – 081765 – 000 000 10
الشركــة التـونسية للبنـك ــ 1 شــارع الحبـيب ثــامر – 1001 –تــونس
سعر المجـلة : ديناران – أو مايعادلها للأفراد
3 دنــانير للمؤسسات
الإشــتراك السنـوي : 15 دينارا (مع إضافة معلوم البريد)
الاشتــراكات التشجيعيــة مفتوحــــــة
في البــلاد العربية 20 دولارا – في البــلاد الأخرى 30 دولارا
لوحــة الغلاف للفـنان اللبناني وجيه نحلة (أكريليك على قماش 1995)
طباعة: مطبعة فن الطباعة تونس – الهاتف: 738 349 71